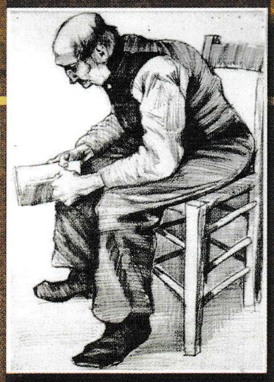
سلسلة الكلاسيكيات المسيحية



إقرأ من أجل نفسك

ثمن التبعية

"عندما يدعو المسيح إنساناً، يدعوه للموت"
بنهوفر

ديترش بنهوفـــر
ترجمة / ق. طانيوس زخاري

المحرر العام
د/سامي فــوزي

ثمن التبعية
The Cost Of Discipleship

"عندما يدعو المسيح إنساناً، يدعوه للموت"
بنهوفر

"When Christ calls a man, He bids him come and die"

سبق نشره من قبل تحت عنوان "اتباع المسيح" لدار النشر المعمدانية

تأليف
ديترش بنهوفر

ترجمة
ق. طانيوس زخاري

المحرر العام
د. سامي فوزي

ثمن التبعية

The Cost Of Discipleship

تأليف: ديترش بنهوفر

ترجمة: ق. طانيوس زخاري

الناشر: د. سامي فوزي

المحرر العام لسلسلة الكلاسيكيات: د. سامي فوزي

الطبعة العربية الثانية: ٢٠١٣

رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٧٧٢٨

الترقيم الدولي: 6-083-387-977-978

انتاج فني وطباعة: Sparkle Printing Solutions

٤ ش المسعودي من ش المقريزي، روكسي ٠١٢٨٢١١٧٨١٢



اقرأ من أجل نفسك

سلسلة الكلاسيكيات المسيحية

المحتويات

الجزء الثاني: الموعظة على الجبل

شكر وتقدير

ندين بالشكر لدار النشر المعمدانية على تعاونها معنا في نشر الفكر المسيحي الأصيل، وعلى موافقتها أن تمنحنا شرف إعادة نشر كتاب "اتباع المسيح" لديترش بنهوفر تحت عنوان "ثمن التبعية"

ونخص بالشكر السيدة الفاضلة/ سوسن التنوري

التي لولا مساعدتها لنا، ما كنا استطعنا وضع هذا الكتاب الثمين مرة أخرى بين يدي القارئ العربي

شكر وتقدير لكل منْ يمسك بأحد هذه الكتب، ثم يأخذ قراراً بحوزتها وقراءتها لأن الروح القدس قد همس في أذنه وفي قلبه. نقدم تقديراً لهذا الإنسان الذي يسمح لحياته بأن تتغير وتتكرس كنتيجة مباشرة لقراءة هذه الكلاسيكيات.

شكر وتقدير غير محدودين لكل منْ ساهم بالمال أو بالدعم المعنوي والعملي؛ لمنْ ساهم بالقليل ولمنْ ساهم بالكثير. بدون هذا الدعم لما استطعنا القيام بهذا العمل.

شكر وتقدير للمترجمين الأكفاء الذين آمنوا برسالة هذه الكلاسيكيات، وقدموا لنا ترجمة دقيقة أمينة وماهرة نفتخر بها جميعاً في الشرق الأوسط.

وأخيراً، وليس آخراً، نقدم اعزاز وتقدير إلى نيفين ممدوح، المديرة الادارية لسلسلة الكلاسيكيات، والتي حملت على كتفيها كل التفاصيل والأعباء في كل مراحل اخراج هذه الكلاسيكيات.

والآن لا يبقى إلا أن نسجد شكراً وتبجيلاً لصاحب الكون الذي يحسبنا مستأهلين أن نعمل معه في كرمه. نرفع صوتنا في صلاة وخشوع كما فعل عبده موسى في القديم "**ولتكنْ نِعمَةُ الرَّب إلهِنَا عليْنَا، وعَمَلُ أيْدِينا ثبِّتْ عليْنَا، وعمَلَ أيْدِينا ثبِّتْه**"

د. سامي فوزي



اقرأ من أجل نفسك

"رجلٌ مُتقدِّمٌ في العمر جالسًا يقرأ"

رسمَ الفنَّان العالمي فان جوخ Van Gogh هذه اللوحة المُعبِّرة – والتي تكاد تنطق بالكلمات – عن رجُلٍ متقدِّم في العمر يجلس في وضعٍ جسدي معبِّرٍ، وفي هدوءٍ وتأمُّل.

ماذا يفعل هذا الرجل؟ إنه يقرأ. في هذه اللوحة عبَّر الفنَّان العظيم عن إحدى ركائز الحياة البشرية: القراءة... القراءة في هدوءٍ وتأمُّل واختلاءٍ بالنفس.

وفي تقديمنا لهذه الكلاسيكيات المسيحية العملاقة، ندعو القارىء إلى أخذ نفس "وضع" رجُل لوحة فان جوخ. في هذا "**الوضع**" نذهب للأبدية!

ما الذي يعبِّر عنه هذا الوضع؟

أولاً: إنه يعبِّر عن إنسانٍ اقتلع نفسه من زحمة الحياة وصخبها وانشغالاتها وضجيجها، ثم أخذ هذه النفس إلى "موضع خلاء". هناك يتقابل مع نفسه، ومع خالقه.

ثانيًا: يعبِّر هذا الوضع عن قرار واتجاه ورغبة وتصميم على أخذ النفس في رحلة تدريب شاقة في معترك القراءة والبحث والتفكير. إن أهم معركة للإنسان في هذه الحياة التعيسة التي نعيشها هي "معركة الفكر والتفكير". قال فرانسيس شيفر Francis Schaeffer ، أحد عمالقة رجال الله في القرن العشرين، "**الحرب هي حرب الفكر** The Battle is the battle for the mind". ويقصد شيفر بهذه العبارة، أنَّ الصراع بين الله وبين الشيطان وقوى الشر الروحية، هو صراعٌ على امتلاك فكر الإنسان

والتحكم فيه. عندما يدرِّب الإنسان نفسه في شبابه في معترك القراءة والفكر سيجد نفسه في شيخوخته ذاهبًا بسهولة إلى "موضع الخلاء" الذي اعتاد عليه في سنين حياته.

ثالثًا: إنه "وضع" الخشوع والخضوع أمام "كلمة مكتوبة". هنا في هذا "الوضع" اعترافٌ صارخ مُدوّي للإنسان بأنه لا يستطيع أبدًا أن يعيش الحياة بدون "كلمة مكتوبة". بالنسبة للإنسان، الكلمة المكتوبة هي تجربة مَنْ سبقوه ومَن أقامهم الله ونصَّبهم في الحياة ليكونوا مُرشدين ومعلمين وممسكين بالمصباح لإنارة الطريق لمَنْ يأتي بعدهم. هؤلاء المُرشدين المستنيرين هم مَنْ تركوا لنا "كلمةً مكتوبة". هذه "الكلمة المكتوبة" تقف على قاعدة "**كلمة الله المكتوبة**" في الحياة، وأيضًا في الوحي المقدَّس "المُسلَّم مرةً للقديسين". كان المسيح يقول دائمًا "إنه مكتوبٌ...". منذ بدء الخليقة يتكلم الله كل يوم في التاريخ وللإنسان. وعندما يتكلم الله، **يتحتَّم على الإنسان أن "يقرأ". فاقرأ إذًا من أجل نفسك!**

رابعًا: إنه "**الوضع**" الذي يُعبِّر عن اشتياق النفس. تشتاق النفس الصادقة البارة إلى الاختلاء والهدوء والسكينة وحياة التأمُّل. يوحي لنا "رجُلُ" فان جوخ بأنه وجد مُبتغى ومشتهى نفسه. لقد تعب من السير في الحياة والآن يأتي إلى "موضع خلاء"... يأتي إلى نفسه وإلى خالقه ومخلِّصه والرجاء الوحيد المتبقي له. لقد بحث في كل موضع وفي كل مكان... بحث مع شولميث التي طافت المدينة باحثةً وتبحثُ... والآن، أخيرًا وجَدَ ضالَّته، وأراد أن يذهب مع "حبيب نفسه" إلى موضع خلاء.

أيها الإنسان... قد تقول في نفسك: "عندما أتقدَّم في العمر، سوف أتحرر من مشغوليات الحياة الطاحنة وعندئذٍ أجد الوقت لأقرأ." أقول

لك في هدوءٍ ويقينٍ: إذا لم تقرأ الآن في شبابك وفي وسط كل مشغولياتك، فلن تقرأ في شيخوختك. هذا هو قانون الحياة والقانون الإلهي المحفور في صخر الحياة.

مَنْ يعرف الله حقًا... يقرأ... نعم يقرأ. مَنْ لا يعرف الله، لا يقرأ. اقرأ إذًا من أجل نفسك.

د. سامي فوزي

القاهرة، مايو ٢٠١٣

مقدمة للكلاسيكيات المسيحية

"ولتكنْ نعْمَةَ الرَّب إلهِنَا عليْنَا، وعمَل أيْدِينا ثبّتْ عليْنَا، وعمَل أيْدِينا ثبّتْه" (مزمور٩٠:١٧)

نحن نعيش في زمن الفراغ الداخلي والتسطُّح. نعيش في زمن "المسيحية السُوقية" والباعة الجائلون. إنه زمنٌ قد انقلبت فيه الأعمدة "إذَا انْقلَبتِ الأَعْمِدةُ، فالصدّيقُ ماذَا يفعَلُ؟" (مز١١:٣). لقد انقلبت الأعمدة والمسكن ينهار على ساكنيه.

نعيش اليوم في زمن جفافٍ مؤلم، وأرضٍ جرداء قاحلة، وشبه غيابٍ تامٍّ للقيادة وللقدوة الروحيةً الطاهرة والبارَّة "**وأجْعَل صُبيانًا رؤسَاءَ لهُم، وأطْفالاً تتسلَّطُ عليهِمْ.**" (إشعياء٣:٤)، هذا هو حالنا اليوم. كان هذا عقاب الله للشعب في القديم، والمُشاهد المُدقق الصادق مع نفسه، يرى هذا العقاب حادث وحالّ بيننا في بلادنا وفي كنيسة بلادنا.

وعندما نتوقف بأمانة لنفحص الواقع الروحي المحيط بنا في بلدنا، وأيضًا في الشرق الأوسط؛ نجد فقرًا شديدًا ـ بل شبه مجاعة ـ في عنصر التعليم الإلهي والمُعلِّم الممسوح من جهة، وعنصر الكلمة المقروءة الفعالة من جهة أخرى. وكان لهذا كلِّه تبعيّات كارثية على الكنيسة وعلى هؤلاء المسيحيينً الأمناء الذين يبحثون حقًا عن الله ويسعون لحياة البر.

تحت ضغط هذا الفقر الشديد، وتحت إلحاح الاحتياج العميق للأمناء، جاءت فكرة هذه السلسلة "سلسلة الكلاسيكيات المسيحية". وهذه الكلاسيكيات هي تلك الكتب التي أثبتت رجاحتها اللاهوتية وعمقها الروحي وتأثيرها الفّعال في بناء الحياة المسيحية الحقيقية والأصيلة. تلك الكتب التي أثبت التاريخ، وشَهِد لها القديسون عبر تاريخ الكنيسة،

أنها لعبت دورًا إلهيًا أساسيًا في هداية الإنسان المسيحي في بحثه عن الله وسعيه الحثيث في حياة البرِّ والقداسة. في إيماننا المسيحي نحن نقف على أكتاف مَنْ سبقونا. وللأسف فإن مكتبتنا العربية تفتقر لهذه النوعية من الكتب المسيحية.

"**إذَا انْقلَبَتِ الأعْمِدةُ، فالصدّيقُ ماذَا يفعَلُ؟**"، لكننا نقول إنه مهما انقلبت الأعمدة فمازال هناك الصدِّيقون، حتى وإن كانوا قليلين جدًا. ولهؤلاء الصدِّيقين القلائل نقدم هذه الكلاسيكيات المسيحية، لتكون كالمنارة الهادية. إنهم قلائل، ولكن لهؤلاء القلائل جاء المسيح وقُبرَ وقام، وسيأتي ثانيةً في سحاب المجد ليأخذهم معه. لهم قال السيد "لا تَخفْ، أيُّها القطِيعُ الصَّغيرُ، لأنَّ أباكُمْ قدْ سرَّ أنْ يُعطِيكم الملكُوت." أمّا العامَّة، **فهذه الكلاسيكيات تدعوهم للخروج من "الفخ" الذي وضعته لهم الحياة ووضعوه هم أيضًا لأنفسهم**. نقول لهم لم يفُتْ الوقت بَعدُ لتغيير المسار والخروج من الكهف، ولكنّه حقًا وقتٌ قصيرٌ جدًا ومُقصّرٌ، وحالاً ستُغلّق الأبواب على العذارى الجاهلات. هؤلاء العذارى الجاهلات اللاتي يملأن أسواق "المسيحية السُوقية" ويجدر بهن أن يستمعنْ للكلمات الخالدة من عملاق المسيحية في القرن التاسع عشر، **سورين كيركجارد** Soren Kierkegaard "هؤلاء العذارى الجاهلات قد فقدن **الوَلَع المتّقد اللامتناهي لانتظار العريس** Infinite Passion of expectation"، ولذلك أُطفئت مصابيحهن. أما العذارى الحكيمات الساهرات، فستكون لهن هذه الكلاسيكيات – التي شهد لها الزمن والزمان عبر تاريخ المسيحية – كطوق نجاة، وكقطرات ماء من ينبوع الماء الحي للنفس العطشة المتألمة السائرة في وسط صحراء الحياة الجرداء وأرضها القاحلة.

د. سامي فوزي

القاهرة، مايو ٢٠١٣

سيرة حياة "ديترش بنهوفر"

ولد ديترش بونهوفر في مدينة "برسلو" في اليوم الرابع من شهر شباط (فبراير) عام ١٩٠٦، وكان ابوه استاذا في الجامعة، وحجة شهيرا في الطب النفسي والامراض العصبية. وكان اسلافه علماء لاهوت، واساتذة، ومحامين، وفنانين. وإلى جانب ذلك كان يجري في شرايينه الدم الارستقراطي من ناحية أمّه.

اما والداه، وهما لا يزالان على قيد الحياة، فهما من الشخصيات البارزة التي تتميز بنظرتها الواسعة، وتقديرها السليم. وهما ثاقبا النظر، مثقفان، من النوع الذي لا يهادن ولا يجاري، في أي شيء مهم في الحياة. وقد ورث ديترش بونهوفر عن والده الصلاح، والانصاف، وضبط النفس، والمقدرة، كما ورث عن امه الفهم العميق للبشر، والعطف العظيم عليهم، والولاء الشديد لقضية المظلومين، وثباته الراسخ الذي لا يتزعزع.

وقد ربى ابوه وامه ابنهما ديترش، مع اخوانه الثلاثة، واخته التوأم له، وثلاث اخوات اخريات في "برسلو" ثم من عام ١٩١٢ في "برلين"، في التراث المسيحي، الانساني، المتحرر، ذلك التراث الذي ألفه والداه وكانا يحبانه ويعشقانه، كالهواء الذي يتنفسانه. وكان ذلك هو الروح الذي وجه حياه ديترش بونهوفر وقرر مصيرها منذ البداية.

وكان بونهوفر منفتحا للغاية. كان منفتحا لكل شيء يجعل الحياة جميلة. كان يفرح طربا بحب والديه، واخواته، وخطيبته، واصدقائه العديدين. كان يحب الجمال، والازهار، والحيوانات. كان يحب اعظم

الاشياء في الحياة وابسطها. وكان ميله للمرح والايناس، وشهامته الاصلية، وحبه للموسيقى والفن والادب، وثبات خلقه، وحزم سجاياه، وجاذبيته الشخصية الساحرة، مع استعداده للاصغاء، من الصفات البارزة التي خلفت له اصدقاء في كل مكان. لكن اعظم ما ميزه كان عدم انانيته واستعداده لخدمة الاخرين الى درجة التضحية بالنفس. وحيثما وجد عملا يتطلب شجاعة خاصة، ويتردد الاخرون في القيام به، كان بونهوفر يجازف ويقوم به بنفس راضية.

كان علم اللاهوت ذاته أصيلا في نفسه، كالدم الذي يجري في عروقه. فمن ناحية أمه، كان فان هازى، جد بونهوفر، قسيسا للامبراطور، جلب على نفسه سخط الامبراطور بسبب اختلافه مع آراء الامبراطور السياسية. ولما انقطع الامبراطور عن حضور اجتماعات فان هازى الدينية، اضطر فان هازى ان يقدم استقالته. اما جده الاكبر لامّه، فكان كارل فون هازى، المع واشهر مؤرخ كنسي في المانيا، في القرن التاسع عشر. وقد ذكر في كتاب سيرة حياته، الذي كتبه بنفسه، عن زيارته الى غوتيه في مدينة فيمر عام ١٨٣٠، وهو نفسه قد سجن بسبب آرائه المتحررة الهدامة في سجن قلعة هاي اسبرج عام ١٨٢٥ (كما سجن جده لابيه). ومن ناحية ابيه كان ينتمي الى اسرة سفابية، كانت تسكن في فرتمبرج منذ عام ١٤٥٠، وكانت تستطيع ان تفخر بعدد غير قليل من اللاهوتيين الافذاذ في الاجيال السابقة.

هذا التراث العظيم الذي توارثه ديترش بونهوفر عن عائلته يوضح السبب الذي لاجله صمم، وهو في الرابعة عشرة من عمره، ان يدرس علم اللاهوت وهو لا يزال بعد في المدرسة. فلما وصل الى سن السابعة عشر التحق بجامعة توبنغن. وبعد عام واحد انتظم في دراسات جامعة

برلين، وجلس عند قدمي فطاحل اساتذتها امثال ادولف فون هارناك، ر. زبيرج، وليتزمان وغيرهم. وسرعان ما كوّن الاستاذ هارناك فكرة سامية جدا عن سجايا بونهوفر النبيلة وقدراته الفذة. وبعد ذلك تأثر بالاراء اللاهوتية لكارل بارت، تلك الاراء التي تركت طابعها على كتاب بونهوفر (سانكتوروم كومونيو). وفي عام ١٩٢٨ عمل راعيا في برشلونة لمدة عام واحد. وفي عام ١٩٣٠ صار استاذا محاضرا في علم اللاهوت النظامي في جامعة برلين، وكان اذ ذاك في الرابعة والعشرين من عمره. ولكنه قبل أن يبدأ عمله الجامعي فعلا ذهب الى مدرسة يونيون اللاهوتية الشهيرة في نيويورك، حيث عرف "بالشاب اللامع في علم اللاهوت" كما وصفه الاستاذ نيبور. وسرعان ما اذاعت كتاباته ومؤلفاته صيته الرائع في عالم اللاهوت، لا سيما كتابه ناخفولغه (اي هذا الكتاب) الذي صار له اهمية اعمق وابلغ بعد موت كاتبه، وهو الكتاب الذي ترك اثرا بالغا عند اللاهوتيين في كل انحاء العالم عندما ظهر لاول مرة.

وقد تفتّح امامه مجال متسع، وكان ينتظره عمل جليل رائع، في ميدان النبوغ اللاهوتي. ففي ضوء ما انجزه فعلا، وما كان ينتظر ان ينجزه، يعتبر موته مأساة مروّعة. لكن المعايير العالمية لا تستطيع ان تقيس الخسارة بشكل واف، لان الله قد اختاره لاتمام اسمى عمل يمكن ان يقوم به شخص مسيحي اذ صار شهيدا. وقد كتب بونهوفر من سجنه قبل استشهاده يقول "انني لا استطيع ان اتحول عن ارميا ٤٥" وهو يشير بذلك الى القول: "وانت فهل تطلب لنفسك امورا عظيمة؟ لا تطلب. لاني هأنذا جالب شرا على كل ذي جسد يقول الرب، واعطيك نفسك غنيمة في كل المواضع التي تسير اليها".

كان ديترش بنوهوفر واقعيا ممتازا. كان من القلائل الذين فهموا

بسرعة ان الاشتراكية النازية كانت محاولة وحشية لصنع التاريخ بدون الله، وتأسيسه على قوة الانسان وحده. وقد ادرك ذلك حتى قبل ان يأتي هتلر الى الحكم. لذلك عندما اتى هتلر الى الحكم في عام ١٩٣٣، ترك بونهوفر عمله الجامعي، اذ اتضح له ان عمله قد فقد معناه ورسالته الحقيقية، وفي هذا كان يختلف عن معظم اقرانه في الجامعات الالمانية، الذين حاولوا ان يهادنوا "النظام النازي" وأن يتوافقوا معه بأي ثمن.

وفي شهر شباط (فبراير) عام ١٩٣٣، ندد في اذاعة له باللاسلكي، بالنظام السياسي الذي افسد أمة بأكملها واضلها ضلالا شنيعا، جاعلا من "الفوهرر" صنمها والهها. ثم قرر بعد ذلك ان يترك برلين إلى لندن، حيث خدم راعيا لكنيستين، وحاول ان يوضح لاصدقائه البريطانيين، ومنهم اسقف تشيسستر خصيصا، حقيقة طبيعة كفاح الكنيسة الالمانية. وسرعان ما ادرك انه في الحالة التي وجدت فيها الكنائس نفسها في الثلاثينات، لا تنتفع الكنائس شيئا بترديد عبارات عقائدها القديمة. وقد بدت له الحركة المسكونية انها الطريق الوحيد لاتحاد اعضاء جسد المسيح المختلفة. وهذا يوضح السبب الذي لاجله اعتبر بونهوفر ان واجب الكنائس هو ان تصغي من جديد إلى رسالة الكتاب المقدس، وان تضع نفسها في مجموعة الكنيسة كلها. فلا عجب اذن ان نجد بونهوفر يلعب دورا بارزا في الحركة المسكونية، ويجعل للطالب الالماني الماما بحياة الكنائس غير اللوثرية، وتاريخها، وتطورها، ونموها، اكثر مما فعل اي معلم آخر في جامعة او في مدرسة لاهوت المانية.

وفي عام ١٩٣٥ عاد بونهوفر إلى المانيا، بعد ان اصبح واحدا من قادة الكنيسة الرسمية. لكن الغستابو منعه من ان يكرز في برلين، او يتكلم فيها او يدخلها. لذلك ذهب إلى بوميرانيا لادارة كلية تدريبية غير معترف بها

رسميا، وكانت الكلية تابعة لاحدى الكنائس، وكانت تقع في شبه جزيرة صغيرة في بحر البلطيق، وقد انتقلت بعد ذلك إلى فانكنفالدا بقرب مدينة ستيتن. وقد نشأت هذه الكلية بطريقة خاصة، لا تقليد لايّ نموذج معروف او موجود. فلم تكن نظاما يضم اناسا يعيشون عيشة العزلة والتقشف، ولم تكن كلية تدريبية بمعنى الكلمة المألوفة. بل كانت تدريبا فعليا به يحاول المسيحي ان يحيا حياة المجتمع، الحياة التي يجب ان يحياها، تلك الحياة كما وصفها ديترش بونهوفر في احد كتبه المختصرة. وخدام الانجيل الشباب الذين جاءوا إلى تلك الكلية من كل انحاء المانيا كانوا يتعلمون فيها الدرس الذي يفتقر اليه عصرنا اليوم جدا، وهو كيف يجب ان يحيا المسيحي في القرن العشرين بروح المحبة الاخوية الصادقة، وكيف يكون نمو مثل هذه الحياة ميسورا طبيعيا وتلقائيا، اذا وجد فقط اناس مكرسون كلية للرب، ولذلك يحبون احدهم الاخر كنتيجة طبيعية. وظلت الكلية تؤدي رسالتها على هذا النحو، إلى عام ١٩٤٠، حينما اغلقها الغستابو نهائيا.

ولما بدت الحرب امرا حتميا لا مفر منه، طلب اصدقاء بونهوفر منه ان يرحل عن المانيا لينقذ حياته، لانه كان مصمما تصميما تاما على معارضة الخدمة في الجيش في حرب عدوانيّة. ولما سأله سويدي في مؤتمر مسكوني عقد في مدينة فانو، من اعمال الدانيمرك، في عام ١٩٣٤ "ماذا تعمل عندما تقع الحرب؟" أجاب "سأصلي إلى المسيح ان يمنحني قوة حتى لا احمل السلاح". وفي تموز (يوليو) عام ١٩٣٩، اخذه اصدقاءه الاميركان وخرجوا به من المانيا إلى الولايات المتحدة، لكنه حالا شعر بأنه لا يستطيع ان يمكث هناك. عاد إلى وطنه، وفي طريق عودته من الولايات المتحدة مرّ على انكلترا، واحس اصدقاؤه بسرعة ان قلب بونهوفر ليس له

بل لاخوته المسيحيين المتألمين المضطهدين في المانيا، وانه لا يستطيع ان يتركهم في وقت هم في أمس الحاجة اليه.

والسبب الذي جعل بونهوفر يتخذ هذا القرار يرجع، كما قال رينولد نيبور، إلى "اسمى منطق في الاستشهاد المسيحي". فلقد كتب بونهوفر إلى نيبور، قبل مغادرته اميركا يقول:

"لن يكون لي حق في المساهمة في اعادة بناء الحياة المسيحية في المانيا بعد الحرب، ان لم اشترك مع شعبي في الالام التي يقاسونها في هذا الوقت... ان المسيحيين في المانيا يواجهون تجربة شنيعة، فاما ان يقبلوا هزيمة شعبهم، حتى تبقى الحضارة المسيحية، واما ان يقبلوا انتصار شعبهم، فتندثر بذلك حضارتنا. ولو خيّرت أنا بين الامرين لعرفت ماذا اختار، لكني لا استطيع ان اختار ما اريد، واحيا آمنا".

وقد اختار ما اراد، ولم يبال بأمن حياته ولا براحته، ولم يندم قط على قراره. فقد كتب حتى وهو في السجن بعد ذلك بسنين يقول:

"اني واثق من يد الله وارشاده... ويجب ان لا تشكّوا ابدا بأني جد شاكر وجد مسرور، ان اسير في الطريق الذي يقودني الله فيه. ان حياتي الماضية ممتلئة بل فائضة بمراحم الله، وفوق كل خطة تقف محبة المصلوب الغافرة".

عندما نشبت الحرب، سعى اصدقاؤه في المانيا ان يعفوه من الخدمة في الجيش، فاستطاع ان يظل في عمله مع الكنيسة الرسمية، وان يتخذ من الفرصة التي هيأتها له الحرب سبيلا لتنشيط حركة سياسية خفية غير ظاهرة. وقد هيأت له سجاياه واخلاقه ونظرته العميقة ان يكون في طليعة العدد القليل الذي طبع اثرا روحيا بالغا على المعارضة المتزايدة في المانيا.

وقد القى القبض على بونهوفر (واخته كرستل وزوجها، هانز فون دوناني) في بيت والده، في شهر نيسان (ابريل) عام ١٩٤٣ ... وكان بونهوفر بقوة ايثاره وصلاحه وبشجاعته الفذة، مصدر الهام عظيم لكل الذين اتيحت له الفرصة ان يتصل بهم في السجن وفي معسكرات الاعتقال. بل كان مصدر الهام لحرّاسه، فصاروا يقابلونه بالاحترام، وتعلق بعضهم به بشدة، حتى كانوا يهرّبون قصائده وكتاباته التي كان يكتبها في السجن، وكانوا يعتذرون له لاضطرارهم ان يغلقوا باب زنزانته بعد انتهاء وقت تفقد السجناء.

لكن اهتمامه في السجن كان الحصول على اذن حتى يستطيع ان يخدم المرضى وزملاءه في السجن. وكانت مقدرته على تعزية القلقين وتسلية البائسين مدهشة حقا. ونحن نعلم ما كان لكلمة بونهوفر ومساعدته الدينية من اثر ومن معنى عند زملائه المسجونين، لا سيما في ساعاتهم الاخيرة (حتى لابن أخ مولوتوف، كوكورين، الذي كان سجينا مع بونهوفر في بوخنفالد، والذي دخل إلى قلبه تعليم المسيح). ونعلم ايضا ما كان لمساعدة بونهوفر العملية من اثر ومن معنى في سجن (تيغل) في اثناء المحاكمات السياسية التي كان يحكم فيها على عشرة او عشرين شخصا بالاعدام من قبل محكمة عسكرية كل اسبوع في عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤. وكان بعضهم متهمين بالتخريب والتدمير (ومن بينهم جندي بريطاني) وقد نجوا من موت محتم بواسطته وبواسطة حميه الذي كان محاميه). وقد سمعنا ان زملاءه في السجن قد تأثروا تأثرا عميقا بما كان يبديه بونهوفر من هدوء وضبط نفس في أحرج المواقف واقساها. فمثلا عندما كانت برلين تضرب بالقنابل الشديدة المتواصلة، وكانت صيحات زملائه المسجونين تنطلق عنيفة مع فظاعة التفجيرات، وهم يدقون بايديهم

بشدة على ابواب زنزاناتهم المقفلة طالبين ان ينقلوا إلى الملاجئ الامنة، كان بونهوفر يقف امام الناس صامدا كالطود، رابط الجأش كجبار.

انما هذا جانب واحد للصورة. اما الجانب الاخر فهو ان بونهوفر كان رجلا يعيش في هذا العالم، ويحبه. هذا الجبار امام الانسان، كان مجرد طفل امام الله. وحين كان في الجسد، كان الصراع بين الجسد والروح يدور بشدة في داخله. حتى بدا بونهوفر في بعض الاحيان لغزا لنفسه. وقد عبر عن ذلك في قصيدته التي عنوانها "من أنا"، وفيها اشار إلى عظم تقدير الناس له وتأثرهم بثباته ورباطة جأشه وعمق فرحه وقوة انتصاره في مواجهة أشد الاخطار، لكنه كان يرى نفسه امام نفسه وامام الله حقيرا وضعيفا وقلقا، **فان كان الناس يرون فيه فضائل وانتصارات، فهي قوة الله فيه، لا قوته الشخصية.**

وفي الخامس من شهر تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٤٤، نقل بونهوفر من سجن تيغل، إلى سجن الغستابو الرئيسي في برلين. ومع انه كان يدرك تمام ما يتوقعه هناك، الا انه كان هادئا جدا رابط الجأش، وودع اصدقاءه قائلا، مع السلامة، كأنه لم يحدث شيء، انما كما ذكر واحد من زملائه في السجن "كانت عيناه غير طبيعيتين تماما". وقد قطعت بعد ذلك علاقته بالعالم الخارجي، وكانت آخر رسالة بل الرسالة الوحيدة التي ارسلها بعد ذلك، هي القصيدة التي الفها في سجن الغستابو في برلين، اثناء الغارات الفظيعة جدا على برلين، وهي عن "العام الجديد – ١٩٤٥".

وفي شهر شباط (فبراير) عام ١٩٤٥.عندما دمرت الغارات الجوية سجن الغستابو في برلين، اخذ بونهوفر إلى معسكرات الاعتقال

في بوخنفالد، ثم نقل من هناك إلى اماكن اخرى، إلى ان تم فيه تنفيذ الاعدام، بأمر خاص من هتلر، في معسكرات الاعتقال في فلوسنبرج في اليوم التاسع من شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٤٥، قبل ان يتم تحرير تلك المعتقلات على يد الحلفاء بأيام قليلة. وقد تم اعدامه نحو نفس الوقت الذي اعدم فيه اخوه كلوز وزوجا اختيه، وهما هانز فون دوناني، ورودجر شليخر على يد الغستابو في برلين، في معسكرات الاعتقال في ساخسنهوزن.

كانت القوة المرشدة لحياة بونهوفر، التي يستند اليها كل ما عمله واداه وتألم لاجله، **هي قوة ايمانه ومحبته لله الذي وجد فيه سلامه وسعادته. من هذا الايمان جاءته الرؤيا التي بها استطاع ان يعزل الغث عن السمين في الحياة، وان يميز بين ما هو جوهري وما هو تافه في حياة الانسان.** إلى هذا الايمان يعزى ما اشتهر به بونهوفر من ثبات في العقل، وتصميم في الهدف، ومحبة للبشرية المتألمة وللحق وللعدالة وللصلاح. ولم يكتف ان يطلب العدالة والحق والامانة لذاتها، ولا ان يحتمل الالم في سبيلها. لكن علينا كما يرى بونهوفر، ان نفعل ذلك في طاعة مخلصة لذاك الذي هو مصدر كل صلاح وعدالة وحق ، وهو الذي وضع فيه بونهوفر اعتماده الكلي وثقته التامة.

هذه هي دعوة الله نفسها، التي تحضنا ان نستخدم الحرية مع شعور عميق بالمسؤولية. ولقد كان بونهوفر يعتقد ان الانسان كائن روحي حر، لكن هذه الحرية منحت للانسان بواسطة النعمة الالهية، لا لتمجيده، بل لحفظ النظام الالهي في الحياة البشرية. فان لم يرشدنا التعليم المسيحي في استخدام الحرية، وانكرنا الله، فان كل المسؤوليات والالتزامات المقدسة للانسان تفقد قيمتها. فليس للمسيحي خيار آخر سوى ان يعمل

ويتألم، وان لزم الحال ان يموت. لقد بيّن رأيه هذا في قصيدة اسماها "محطات في طريق الحرية" كتبها في السجن لما ادرك ان موته بات قريبا ومحتما، وقال في مقطعها الاخير:

"تعال الان ايها العيد الاخطر والاجل، في طريق الحرية الابدية.
تعال ايها الموت وحطم هذه الربط والسلاسل وهذه الاسوار.
كم طلبناك ايتها الحرية، في التدريب، وفي العمل، وفي الالم.
والان ونحن نموت، سنلتقي بك، ونراك، في وجه الله نفسه."

كانت محبة بونهوفر لزملائه هي التي جعلته يعتقد انه لا يكفي ان يتبع المسيح بالوعظ والتعليم والكتابة، بل ينبغي ان يتبعه بالعمل المسيحي والتضحية المسيحية. وكان جادا للدرجة القصوى في هذه الدعوة. ولهذا السبب نرى بونهوفر دائما يعمل "في الخفاء" ويبتعد تلقائيا عن كل وسائل الدعاية والنشر. وكان يعتبر بر الذات والتغافل خطيئتين شنيعتين ضد الروح القدس، كما كان يعتبر طموح الكبرياء والغرور بدء السير في الطريق المؤدّي إلى جهنم.

ان بونهوفر وضع اهمية كبرى على الانسان وحياة الانسان فتراه يقدم حياته في سبيل ادراك جديد للحياة الشخصية التي تتأصل في الايمان المسيحي. وهو الذي حقق عمليا القول الكريم "نفس الانسان سراج الرب" (امثال ٢٠:٢٧)، وان اعلان الله انما جاء عن طريق الانسان ولاجل الانسان. فلم يكن بونهوفر يعتقد ان المسيحية هي للنفس المؤمنة التقية التي تغلق الباب على نفسها، وتحتفظ بنفسها داخل اطار ما تسميه بالدائرة المقدسة. لا بل كان يعتقد ان مكان المسيحية هو في هذا العالم، وان الكنيسة باعتبارها جسد المسيح والشركة فيه انما هي الكنيسة المنظورة. وعلى الانسان ان يتبع المسيح الذي خدم في هذا العالم

وعاش وجاز فيه، كالرب الحي، والذي مات والذي قام. **لذلك فحيثما شاءت مسرة الرب ان تضع انسانا في هذا العالم، فعلى المسيحي ان يكون مستعدا للاستشهاد والموت. بهذه الطريقة وحدها يتعلم الانسان الايمان.**

وكان ولاؤه لله ولسيده هو الذي دفعه، في النهاية، إلى اتخاذ القرار الرهيب المرعب، ليس فقط ان يقف ضد الاشتراكية النازية، بل ايضا ان يعمل على هزيمة بلاده، اذ بهذه الوسيلة وبها فقط كان يمكن انقاذ المانيا كبلد مسيحي من الفناء. ولهذا السبب عينه عذّب بونهوفر واصدقاؤه شر تعذيب، ثم ماتوا قتلا. **ولقد اثبت بونهوفر واصدقاؤه، بمقاومتهم حتى الموت، ان ثمة، حتى في عصر السيادة المطلقة للدولة، ولاء يسمو على الولاء للدولة . ولقد اثبتوا انه حتى في هذا العصر** ، يجب اعتبار الله فوق الوطنية وفوق كل شيء، وانه من الخطأ ضد الله وضد دعوته للشركة مع الشعوب الاخرى ان تنحط الوطنية إلى الانانية والشره والجشع. وهذه الدعوة التي تحمل في طياتها القضاء المبرم على الفكرة الوطنية المادية – التي لا تزال سائدة اليوم – هي من مآثر ومخلفات التراث الروحي لبونهوفر واصدقائه.

ان الذين حضروا الخدمة التذكارية في لندن في اليوم السابع والعشرين من شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٤٥، قد شعروا بأن شيئا خطيرا رهيبا حدث في المانيا في اليوم التاسع من شهر نيسان (ابريل) عام ١٩٤٥، عندما لقى ديترش بونهوفر حتفه على يد الحراس السود.. ولا يمكن قياس هذا الحادث الرهيب بالمقاييس البشرية. شعروا ان الله نفسه قد تدخّل في اشنع صراع شهده العالم، ببذل واحد من اشجع ابنائه واشدهم امانة، ليكفّر عن جرائم نظام شيطاني، وليحيي الروح الذي

ينبغي ان يعاد به بناء حضارة مسيحية.

حقا ان كانت التضحة هي اسمى بلوغ يصل اليه الانسان، وان كانت قيمة الانسان في وجوده الجسماني تتوقف على مقدار ما يطلب اليه بذله من تضحية، اجابة لالتزامات المحبة في البيئة المادية التي وضع فيها، فعلى هذا القياس تكون حياة بونهوفر وموته من التواريخ البارزة في تقديم الاستشهاد المسيحي، او كما يقول نيبور، انها تخص "اعمال الرسل الحديثين". وقد كان جهاده الحسن دليلا حيا على سيادة ما هو روحي وافضليته على ما هو ماديّ. **لقد اصبحت قصته قصة انتصار الشخص المحب الامين الذي ينتصر على الشر، ذلك الشر الذي لم يستطع ان يحطم آخر حصون الحرية الروحية المسؤولة. "ان حياة الروح ليست الحياة التي تتجنب الموت، وتتخلص من الدمار، بل هي بالاحرى الحياة التي تحتمل الموت، وتظل محفوظة في الموت. وانها لتبلغ حقيقتها في وسط الدمار التام".**

كثيرا ما قيل، يجب ان يعاقب عدد كبير من الناس الذين لم يكونوا مذنبين بطريقة مباشرة ومسؤولين عن جرائم الحكم النازي السابق في المانيا، وذلك بسبب موقفهم الصامت من ذلك الحكم. انما لا ننسى على كل حال انه في نظام الحكم الدكتاتوري الاستبدادي في عصرنا الحاضر، توجد عيون مبثوثة في كل مكان، حتى في الاماكن الخفية، وتوجد وسائل ضغط شاملة كاملة، حتى ان التمرد على ذلك الحكم يعني الموت المحتم لكل المتمردّين ولكل من يساندونهم. **وايقاع اللوم على شعب بكامله في دكتاتورية معاصرة اشبه بلوم سجين لم يستطع ان يهرب من سجن احكمت حراسته.** وليست اغلبية الناس في كل الشعوب من الابطال البواسل. وما فعله ديترش بونهوفر وامثاله لا يمكن ان ينتظر

من الكثيرين. **ومستقبل المجتمع المعاصر يتوقف بالاكثر على البطولة الهادئة للاقلية النادرة جدا، التي تتلقى الهامها من الله. هؤلاء القلائل يحظون بالهام الهي، فتراهم مستعدين ان يدافعوا عن كرامة الانسان وعن الحرية الحقيقية، وان يحفظوا شريعة الله، ولو كان ذلك يعني الاستشهاد او الموت، هؤلاء القلائل يتممون الشريعة لانهم "غير ناظرين إلى الاشياء التي ترى، بل إلى التي لا ترى. لان التي ترى وقتية، واما التي لا ترى فأبدية".**

كثيرا ما سأل بونهوفر نفسه عن المعنى الاعمق لحياته التي كانت تبدو له محيرة ومتقطعة. وقبل موته باشهر قليلة، اذ كان يرى الحوادث المقبلة تلقي ظلها القاتم امامها، كتب وهو في سجنه يقول **"كل شيء يتوقف على ما اذا كانت اجزاء حياتنا تدل على تخطيط الحياة بجملتها، ويتوقف على كون هذه الاجزاء مهمة للاجيال القادمة، لان اتمامها لا يمكن الا ان يكون عملا الهيا. وهذه الاجزاء الاخيرة ضرورية جدا. فان كان في حياتنا جزء من هذه الاجزاء الضرورية... فليس لنا ان نحزن على حياتنا المتناثرة بل علينا، بعكس ذلك، ان نفرح ونتهلل".**

علينا ان نتهلل حقا برحمة الله. صحيح اننا لم نجد قبر ديترش بونهوفر، الا ان ذكرى حياته محفوظة ومأمونة لا في قلوب اولئك المرتبطين به ارتباطا وثيقا فقط، بل ايضا في قلب الكنيسة التي تستمد دم حياتها باستمرار من اولئك الذين يتبعون المسيح.

لقد اعطتنا حياة بونهوفر وموته رجاء عظيما للمستقبل. لقد وضع مثالا لنوع جديد من القيادة الحقيقية الملهمة بالانجيل، المستعدة للاستشهاد والموت كل يوم، والمؤيدة بروح جديدة من الانسانية المسيحية،

ولادراك بنّاء للواجب المدني. والانتصار الذي احرزه انتصار لنا جميعا، انتصار للمحبة والنور والحرية، انتصار خالد لا تمتد اليه براثن الموت.



الجزء الأول

النعمَة وَالاتّبَاع

المقدمة

ان انتعاش حياة الكنيسة يجلب معه دائما ادراكا اعظم للكتاب المقدس. فوراء كل الشعارات والعبارات التي تنجم عن المناقشات والقضايا الكنسية، مع لزومها الذي لا شك فيه، **ينتج تصميم اشد لطلب ذاك الذي هو الهدف الوحيد للجميع، ومشتهى الكل، يسوع المسيح نفسه.** فيتسأل الناس: ماذا يريد يسوع ان يقول لنا؟ ما هي مشيئته لاجلنا اليوم؟ كيف يستطيع ان يساعدنا لنكون مسيحيين افاضل في العالم العصري؟ ونهتم في آخر المطاف لا بما يريده منا هذا او ذاك، ولا بما تطلبه منا هذه الكنيسة او تلك، بل بما يريده منا المسيح نفسه. فعندما نذهب الى الكنيسة نصغي الى العظة يكون همنا ان نسمع كلمته. ولا نفعل ذلك لمجرد اسباب انانية، بل لاجل الجماهير البعيدة عن الكنيسة، التي تصم آذانها عن سماع رسالة الكنيسة. ويخامرنا شعور غريب بأنه لو جاء يسوع – لو جاء يسوع نفسه بكلمته – ووجد في وسطنا في اثناء العظة، لكان السامعون غير الذين يسمعون الآن، ولكان البعيدون عن رسالة الكنيسة غير الذين هم بعيدون الآن.

وهذا لا يعني ان كلمة الله لا تسمع في الكرازة في كنائسنا في الوقت الحاضر، **انما المؤلم حقا ان كلمة المسيح الصافية النقية قد تغطت بطبقة كثيفة من الافكار البشرية، والقوانين والتشريعات الثقيلة المتعبة، والآمال الكاذبة، والتعزيات المزيفة، حتى صار يصعب جدا اتخاذ قرار صميم صادق، قرار باتباع المسيح.** لا شك في ان غرضنا هو ان نكرز

بالمسيح، وبالمسيح وحده. ولكن بعد ان نقول ما نقوله ونفعل ما نفعله ليس لنا ان نلوم ناقدينا اذا وجدوا وعظنا صعبا لا يمكن فهمه، ومثقلا بافكار وتعبيرات لا صلة لها مطلقا بالجو العقلي الذي نعيش فيه.

وليس من الصواب ان نقول ان كل كلام النقد الموجّه ضد الوعظ الحالي هو رفض متعمّد للمسيحية، ناجم عن روح ضد المسيح. فكم من اناس يأتون الى الكنيسة تحدوهم رغبة صادقة ان يسمعوا ما نقول، لكنهم يعودون دائما الى بيوتهم شاعرين بأسف لاننا قد صعبنا عليهم الاتيان الى يسوع. فهل نحن مصرون على الا نعمل شيئا لهؤلاء الناس؟ انهم مقتنعون ان الذي صدهم ليس كلمة المسيح نفسه بل ما طوقناها به من اسلوب بشري، وصياغة تتصل بمعاهدنا ومؤسساتنا، ومن عناصر تعليمية عقائدية في وعظنا. نحن نعرف بطبيعة الحال الجواب على هذه الاعتراضات، وهذه الاجابات تسهل علينا بلا شك التنصل من مسؤولياتنا. لكن قد يكون من الافضل ان نسأل انفسنا: الم نكن في الحقيقة عقبة في سبيل المسيح وكلمته؟ أليس من المحتمل اننا نتمسك اكثر مما ينبغي بطريقة نحبها في تقديم الانجيل، وباسلوب من الوعظ كان صالحا جدا في زمانه ومكانه وملائما للوضع الاجتماعي القائم وقتئذ، والذي كان الوعظ عندئذ يهدف اليه؟ الا يوجد شيء من الحق في النقد الموجه الى وعظنا، بانه متعسف اكثر مما ينبغي، وغير موافق ولا ملائم للحياة بشكل فظيع؟ السنا دائما نعزف على وتيرة معينة من الافكار على حساب غيرها مما لا تقل عنها اهمية؟ الا يحوي وعظنا شيئا اكثر مما يلزم من افكارنا واقتناعاتنا، وشيئا اقل مما ينبغي من فكر يسوع المسيح؟ ان المسيح يدعو كل المتعبين والثقيلي الاحمال، ولا شيء يخالف مقاصده ويضرّ مناداتنا ووعظنا ابلغ الضرر، مثل تنفير الناس من المسيح

بارغامهم على اتباع عقائد من صنع البشر. وان كنا قد فعلنا ذلك، نكون قد جعلنا محبة يسوع المسيح هزءا وسخرية للمسيحيين والوثنيين على السواء. ولا ترجى فائدة من وراء بحث نظري عقيم، ولا من محاولة تبرير انفسنا بشتى الاعذار. لذلك علينا ان نعود الى الكتاب المقدس، الى كلمة المسيح نفسه ودعوته الصريحة. فلنجتهد ان نترك افكارنا واقتناعاتنا الخاصة، بما فيها من فقر وحقارة، ونسعى لتقديم ما يعلنه لنا يسوع المسيح بكل ما يصحبه من غنى وروعة.

اننا ننوي ان نذكر كيف يدعونا يسوع ان نكون تلاميذه. لكن ترى أليس هذا بتحميل اكتاف الناس حملا آخر اثقل واصعب؟ أهذا كل ما نستطيعه للنفوس والاجساد التي ترزح وتئن تحت احمال كثيرة ثقيلة من معتقدات من صنع البشر؟ ان كنا ندعو الناس لاتباع يسوع، ألسنا بذلك ننخس ضمائرهم المتألمة من قبل، بمناخس احدّ واقسى؟ هل نظل نتبع التقليد الذي سرى في الكنيسة في كل عصور التاريخ، ونضع على اكتاف الناس احمالا ثقيلة لا يستطيعون ان يحملوها؟ هل نظل نطلب منهم مطالب لا علاقة لها بالامور الاساسية في الايمان المسيحي؟ هذه مطالب قد تكون من كماليات الصفوة القليلة الناعمة بالرفاهية، لكنها بالنسبة للجماهير الكادحة التي تكافح قلقة للحصول على قوتها اليومي الضروري، والتي تواجه مشاكل في اعمالها وفي عائلاتها، تجعلها امام سبيل واحد، وهو رفض هذه المطالب باعتبارها تجديفا وتجربة لله. هل اهتمام الكنيسة ان تستبد بالناس استبدادا روحيا طاغيا، وتملي عليهم ما يجب عليهم ان يؤمنوا به، وان يتمموه حتى يخلصوا؟ وهل من واجبها لتحقيق ذلك ان تضطرهم الى اعتناق عقيدة او القيام بعمل تحت طائلة العقاب الوقتي والابدي؟ هل تضيف كلمة الكنيسة استبدادا جديدا وضغطا آخر على

نفوس الناس؟ قد يكون هذا ما يريده كثيرون من الناس. لكن هل تستطيع الكنيسة ان تخضع لهذا المطلب؟

ان الكتاب المقدس عندما يتكلم عن اتباع يسوع يعلن عن تلمذة تحرر البشرية من كل عقائد من صنع البشر، ومن كل ضغط وثقل، ومن كل هم وعذاب يؤلم الضمير. فان تبع الناس يسوع، استراحوا من نير شرائعهم الثقيل، وخضعوا لنير يسوع الهين اللطيف. لكن هل يعني هذا ان نتجاهل أوامره الجدية الخطيرة؟ حاشا. وانما نستطيع ان نحصل على الحرية الكاملة، ونتمتع بالشركة مع يسوع، عندما نتمم امره كاملا، ونطيع دعوته للتلمذة التامة. **ان الانسان الذي يتبع امر يسوع بدون تحفظ وبدون قيد، ويخضع لحمل نيره بدون مقاومة، هو الذي يجد نيره هينا، وينال وهو تحت ضغطه الرقيق اللطيف قوة تحفظه وتسنده في الطريق المستقيم.** ان وصايا يسوع ثقيلة، بل ثقيلة جدا، للذين يحاولون ان يقاوموها. اما الذين يخضعون لها فيجدون ان نيره هين وحمله خفيف. "**وصاياه ليست ثقيلة**" (**١يوحنا ٥:٣**). ليست وصايا يسوع من نوع العلاج الذي يسبب صدمة. **ان يسوع لا يطلب منا امرا دون ان يعطينا القوة على اتمامه. ولم تعمل وصاياه قط على اتلاف الحياة واهلاكها، بل تعمل دائما وابدا على تدعيمها وتقويتها وشفائها.** ومع ذلك يظل سؤال يحيرنا: دعوة الاتّباع هذه، ماذا تعني اليوم للعامل ولرجل الاعمال، وللخادم، وللجندي؟ الا يؤدي هذا الى خلل مريع وتناقض فظيع بين حياتنا كعمال في هذا العالم، وبين حياتنا كمسيحيين؟ ان كان معنى المسيحية اتباع المسيح أفليست اذن ديانة الاقلية الصغيرة، او الصفوة الروحية المختارة؟ الا ينطوي هذا على رفض الاغلبية الساحقة من جماهير المجتمع، وعلى احتقار شنيع للضعفاء والفقراء؟ ان موقفا كهذا هو بلا

شك مناقض تماما لرحمة يسوع المسيح المجيدة، ومخالف لروح ذاك الذي جاء للعشارين، والخطاة والضعفاء والفقراء والضالين واليائسين. هل الذين هم للمسيح قليلون، ام كثيرون؟ لقد مات على الصليب وحده، وقد تركه كل تلاميذه. وقد علق معه على الصليب اثنان، لا من اتباعه، بل اثنان قاتلان مجرمان. لكن عند صليبه وقف الجميع، الاعداء والمؤمنون، المشككون والجبناء، المجدفون والاتباع المخلصون. **وصلاته، "اغفر لهم يا ابتاه" كانت للجميع، ومن اجل خطايا الجميع. فان رحمة الله ومحبته، تعملان حتى في وسط اعدائه.** هو هو يسوع المسيح نفسه الذي يدعونا بنعمته ان نتبعه، والذي تخلص نعمته القاتل الذي يهزأ به على الصليب في ساعته الاخيرة.

اذا استجبنا دعوته للاتباع فالى اين تقودنا؟ اية قرارات نتخذها واية اعتزالات تتطلبها؟ لا نستطيع ان نجيب على هذه الاسئلة الا عندما نذهب اليه، فانه هو وحده الذي يعرف الجواب. **ان يسوع المسيح الذي يأمرنا ان نتبعه، هو وحده يعرف نهاية الطريق. لكننا نعلم انها ستكون طريق رحمة لا حدود لها. والاتباع يعني الفرح.**

في عالمنا المعاصر يبدو صعبا جدا ان نسلك بيقين تام في طريق الطاعة الكنسية الضيق، ونبقى مع ذلك في طريق محبة المسيح ورحابها المتسعة الشاملة، في طريق محبة الله ورحمته واحسانه وترفقه على الضعفاء والفجار. لكن علينا ان نربط بين الامرين معا بكيفية او بأخرى، والا فنحن نتبع طريق الناس. ليت الله يمنحنا الفرح ونحن نجاهد بكل غيرة وحماسة ان نتبع طريق التتلمذ. ليته يعطينا القدرة ان نقول "**لا**" للخطية، وان نقول "**نعم**" للخاطئ. ليتنا نقاوم اعداءنا، ومع ذلك نقدم لهم كلمة الانجيل التي تجتذب الناس وتخلص نفوسهم.

"تَعالَوْا إليَّ يا جَميع المُتعَبين والثَّقيلي الأَحْمَال، وأنا أُرِيحُكمْ. احْملُوا نيري علَيكمْ وتعلَّمُوا منّي، لأنّي وديعٌ ومُتوَاضع القَلب، فَتجِدُوا رَاحةً لِنفُوسَكمْ. لأنَّ نيري هَيِّنٌ وحِمْلي خَفيفٌ". (متى١١: ٢٨-٣٠).



الفصل الأول

النعمة المكلّفة

"**النعمة الرخيصة**" هي العدو المميت لكنائسنا. لذلك نجاهد اليوم في سبيل "**النعمة المكلّفة**".

"**النعمة الرخيصة**" تعني النعمة التي تباع في السوق، كبضائع البائع الطواف الرخيصة. وما ارخص ما تباع الفرائض المقدسة، ومغفرة الخطايا، وتعزيات الدين باثمان منخفضة. وكثيرا ما تمثل النعمة بانها خزينة الكنيسة التي لا تفرغ، والتي منها تنثر بركاتها بايادي سخية، دون ان تسأل احدا سؤالا، او تضع لتوزيعها حدودا. انها نعمة بدون ثمن، نعمة بدون كلفة. وجوهر النعمة، كما نعتقد، هو ان ثمنها قد دفع مقدما، وحيث انه دفع مقدما، فكل شيء يمكن الحصول عليه مجانا. وحيث ان الثمن كان غير محدود فامكانيات استخدام النعمة وانفاقها غير محدودة. فماذا تكون النعمة لو لم تكن "رخيصة"؟

"**النعمة الرخيصة**" تعني النعمة كتعليم او عقيدة او مبدأ او نظام. انها تعني غفران الخطايا، اذ ينادى به كحقيقة عامة، او محبة الله اذ تعلم باعتبارها "**الفكر**" المسيحي عن الله. ونظن ان قبول هذه الفكرة واعتناقها عقليا كاف في حد ذاته لنوال غفران الخطايا. والكنيسة التي تتمسك بالتعليم الصحيح عن النعمة، تظن انها تملك فعلا وحتما جزءا من تلك النعمة. ولذلك يجد العالم في كنيسة كهذه سترا رخيصا لخطاياه، فلا تطلب منه ندامة ولا حزنا، ولا رغبة حقيقية للنجاة من

الخطية. ان النعمة الرخيصة اذن، هي انكار لكلمة الله الحية، بل هي في الحقيقة انكار لتجسد ابن الله.

"**النعمة الرخيصة**" تعني تبرير الخطية بدون تبرير الخاطئ. فان الدعاة المروجين لها يقولون ان النعمة وحدها تفعل كل شئ، وبهذا يمكن ان يظل كل شيء كما هو بدون تغيير، فيظل العالم في طرقه القديمة عينها، ونظل نحن خطاة كما كنا "**حتى في افضل حياة**" كما قال لوثر. وبهذا يتشجع المسيحي ان يعيش كما يعيش باقي اهل العالم، ويكيف حياته حسب معايير العالم في كل دوائر العالم، ولا يطمح برغبته ان يحيا وهو تحت النعمة حياة تختلف عن حياته العتيقة وهو تحت الخطية، كما فعل الهراطقة والمتحمسون. بل يجب ان يحترس المسيحي من التمرد ضد النعمة المجانية غير المحدودة ومن الازدراء بها، وان لا يحاول انشاء ديانة جديدة، ديانة الحرف، بسعيه ان يحيا حياة الطاعة لوصايا يسوع المسيح. هم يقولون، لقد تبرر العالم بالنعمة، والمسيحي يعرف ذلك جيدا، ويقبله جديا. وهو يعلم انه يجب عليه ان لا يجاهد ضد هذه النعمة التي لا يستغنى عنها. لذلك فليحي كما يحيا اهل العالم. ويقولون بالطبع نحن نريد ان نفعل شيئا عظيما خارقا، لكن علينا ان نكف عن هذه المحاولة، مع ان ذلك يتطلب شيئا كثيرا من ضبط النفس، وان نقنع انفسنا بان نحيا كما يحيا اهل العالم فانه يحتم على المسيحي ان يمارس انكار ارادته هو. عليه ان يجعل النعمة هي النعمة وحدها، والا فانه يفسد ايمان العالم في هبة الله المجانية. لذا فليقنع المسيحي بحياته العالمية، ويرفض كل مقياس اعلى من مقاييس العالم. لانه اذا طلب مقياسا اعلى من مقاييس العالم، يفعل ذلك لاجل العالم، وليس لاجل النعمة. فليرفض ذلك، ويتشجع ويسترح متيقنا امتلاكه لهذه النعمة، لان النعمة وحدها تفعل كل شيء. وبدلا من

ان يسعى المسيحي لاتباع المسيح، عليه ان يتمتع ببركات النعمة وتعزياتها.

هذا ما نقصده بالنعمة الرخيصة، النعمة التي تعني تبرير الخطية بدون تبرير الخاطئ التائب، الذي يترك خطيته وخطيته تتركه. **ان النعمة الرخيصة ليست النعمة التي تغفر خطايانا وتحررنا من متاعبها، بل هي النعمة التي نسبغها نحن على انفسنا.**

هذه "**النعمة الرخيصة**" هي الكرازة بمغفرة بدون حاجة للتوبة، وبمعمودية بدون تأديب كنسي، وبشركة بدون اعتراف، وبمحو بدون ندامة. النعمة الرخيصة هي **نعمة بدون تتلمذ، نعمة بدون صليب، نعمة بدون يسوع المسيح الحي والمتجسد.**

اما "**النعمة المكلفة**" فهي الكنز المخفي في حقل، الذي من اجله يمضي الانسان فرحا ويبيع كل ما له. انها اللؤلؤة الكثيرة الثمن، التي من اجلها يبيع التاجر كل ما عنده. انها حكم المسيح الملكي، الذي من اجله يقلع الانسان عينه ان كانت تعثره. **انها دعوة يسوع المسيح، التي لاجلها يترك التلميذ شباكه ويتبعه.**

"**النعمة المكلفة**" هي الانجيل الذي يجب ان يطلب مرة بعد اخرى، والعطية التي يجب ان تسأل، والباب الذي يجب ان يقرع.

هذه النعمة "**مكلفة**" لانها تدعونا للاتباع، وهي "**نعمة**" لانها تدعونا الاتباع يسوع المسيح. انها **مكلفة**، لانها تكلف الانسان حياته، وهي **نعمة** لانها تعطي الانسان الحياة الحقيقية الوحيدة. انها **مكلفة** لانها تدين الخطية، وهي **نعمة** لانها تبرر الخاطئ. وفوق الكل، **انها مكلفة لانها** كلفت الله حياة ابنه: "قد اشتريتم بثمن" وهي نعمة،لان الله لم يحسب ابنه اعز من ان يقدمه ثمنا لحياتنا، بل اسلمه لاجلنا اجمعين. فالنعمة

المكلفة هي تجسد الله.

"**النعمة المكلفة**" هي قدس الله، فيجب ان تحرس من العالم، وان لا تطرح للكلاب. انها الكلمة الحية، كلمة الله، التي تكلم بها كما يشاء. هذه **النعمة المكلفة** تتحدانا كدعوة مجيدة ان نتبع المسيح، وهي تأتي الينا ككلمة الغفران، للروح المنكسرة، والقلب المنسحق. ان **النعمة مكلفة** لانها تلزم الانسان ان يحمل نير المسيح ويتبعه، وهي **نعمة** لان المسيح يقول "**نيري هين وحملي خفيف**".

في مناسبتين مختلفتين سمع بطرس الدعوة "**اتبعني**". وكانت هذه اول كلمة وآخر كلمة وجهها يسوع لتلميذه (مرقس ١:١٧ ويوحنا ٢١:٢٢). وبين هاتين الدعوتين تقوم حياة بجملتها. كانت المرة الاولى عند بحيرة جنيسارت، وعند ذلك ترك بطرس شباكه وعمله وتبع يسوع لما سمع كلمته. وفي المرة الثانية وجده الرب المقام يعود الى عمله القديم. وكانت هذه المرة الثانية ايضا عند بحيرة جنيسارت، ودعاه المسيح مرة اخرى قائلا له "**اتبعني**". بين هاتين الدعوتين قامت حياة بجملتها، حياة التتلمذ واتباع المسيح. وفي مرحلة متوسطة بينهما، جاء اعتراف بطرس، الذي فيه اعترف ان يسوع هو مسيح الله. ثلاث مرات اذن سمع بطرس نفس النداء بأن المسيح هو ربه والهه، في البداية وفي النهاية وفي قيصرية فيلبس، وفي كل مرة نجد نعمة المسيح نفسها تدعو بطرس ان يتبع المسيح وتعلن نفسها له في اعترافه.

هذه النعمة كانت بكل تأكيد من الخارج، ولم تكن من بطرس نفسه. كانت نعمة المسيح نفسه، تارة تسيطر على التلميذ وتجعله يترك كل شيء ويتبع المسيح، وتارة تعمل فيه فتنشئ ذلك الاعتراف الذي لابد انه

بدا للعالم كتجديف فظيع، وطورا تدعو بطرس الى شركة الاستشهاد السامية، ليقدم نفسه عن الرب الذي انكره، وتعلن بذلك انها سامحته بكل خطاياه. ونرى النعمة والاتباع في حياة بطرس توأمين غير منفصلين. فلقد نال نعمة مكلفة.

وبانتشار المسيحية، صارت الكنيسة اكثر دنيوية، وبدأ ادراك تكاليف النعمة يقل تدريجيا. لقد انتشرت المسيحية في العالم، وصارت النعمة ملكا مشاعا للجميع. وكان يسهل الحصول عليها بأرخص الاثمان. الا ان كنيسة رومه لم تفقد رؤياها الاولى فقدانا تاما. ومما تجدر ملاحظته بامعان في هذا الصدد ان الكنيسة كانت حاذقة وفطنة بدرجة كافية حتى اوجدت مجالا لحركة الرهبنة والاديرة، وحفظتها من الانزلاق الى الانشقاق والخروج عنها. ففي هذه الحركة حفظت الرؤيا القديمة، حية باقية على الهامش الخارجي. ففي الاديرة وجد اناس يذكرون ان النعمة تكلف، وان النعمة تعني اتباع المسيح. وهناك في الاديرة تركوا كل شيء لاجل المسيح، وبذلوا جهدهم كل يوم لممارسة وصايا المسيح الصعبة القاسية. بهذا اصبحت الرهبنة احتجاجا حيا صارخا ضد صبغ المسيحية بصبغة دنيوية، وضد جعل النعمة رخيصة بخسة القيمة. لكن الكنيسة كانت فطنة بدرجة كافية حتى سمحت ببقاء هذا الاحتجاج الصارخ، ومنعته من ان يتطور الى نتيجته المنطقية المحتومة. وقد نجحت في جعله ثانويا بل في استخدامه لتبرير حياتها الدنيوية. وقد صورت الرهبنة كحركة فردية شخصية، لا ينتظر من جمهور المسيحيين الاقتداء بها. انما عندما حددت الكنيسة تطبيق وصايا المسيح. على فئة معينة من الاختصاصيين، ارتكبت خطأ فتاكا، هو خطأ المقياس الازدواجي، الذي وضعت فيه مقياسا اعلى ومقياسا ادنى للطاعة المسيحية. وحينما اتّهمت

الكنيسة بانها دنيوية اكثر مما ينبغي لها، كانت تشير دائما الى الرهبنة، باعتبار انها فرصة للحياة الاسمى داخل الحظيرة، وبذلك كانت تبرر امكانية عيشة الاخرين حسب مستوى الحياة الادنى. وبهذا نجد في نتيجة الرهبنة لغزا غريبا. فاذ كانت رسالتها من ناحية حفظ الادراك المسيحي الاول في كنيسة رومه لتكاليف النعمة، نجدها من الناحية الاخرى، تقدم مبررا قاطعا للحياة الدنيوية في الكنيسة. واذا درسنا الرهبنة جملة وتفصيلا، نجد غلطتها القاتلة، لا في صرامتها وقسوتها (ولو انه يبدو في ذلك سوء فهم لحقيقة ارادة يسوع) انما كانت غلطتها الكبرى في مدى انحرافها عن المسيحية الاصلية الصادقة، بوضعها نفسها كبلوغ فردي شخصي من نصيب الصفوة المختارة، وبهذا ادعت لنفسها فضلا خاصا من امتيازها هي دون سواها.

فلما جاء الاصلاح، اقامت عناية الله مارتن لوثر ليعيد "**انجيل النعمة النقية الصافية المكلفة**". اجتاز لوثر حياة الدير، فكان راهبا، وكان كل ذلك جزءا من الخطة الالهية. وترك لوثر كل شيء ليتبع المسيح في طريق الطاعة التامة. لقد ترك العالم، حتى يحيا حياة المسيحية،. وقد تعلم الطاعة للمسيح ولكنيسته، **لان لا يستطيع ان يؤمن الا المطيع**. كانت دعوة لوثر الى حياة الدير تتطلب منه تسليم حياته تسليما تاما. لكن الله حطم كل آماله وامانيه. فقد أراه في الكتاب المقدس ان اتباع المسيح ليس عمل الصفوة المختارة او نصيبها وحدها، بل هو واجب مطلوب من كل مسيحي بدون فرق. ان الرهبنة قد حولت عمل التتلمذ المتواضع الى مجهود القديسين الاصفياء المستحقين، وقلبت انكار النفس الذي يتميز به التتلمذ، الى الغرور او الاعتداد بالنفس، تلك الحلة المفضوحة التي اقتصرت على "المتدينين". وقد زحف العالم بل دخل الى قلب حياة

الرهبنة ولبّها، فأجرى فيها الخراب والفساد مرة اخرى. ومحاولة الراهب للهروب من العالم تحولت الى صورة ماكرة من حب العالم. فلما انتزع لب الحياة الدينية، وضع لوثر يده على النعمة وتمسك بها. وفيما كان يرى الرهبنة بجملتها تتحطم وتنهار وتتناثر حواليه، رأى الله في المسيح يمد يده للخلاص. فمد لوثر يده بالايمان وامسك بيد الله واثقا انه "**لا قيمة لأي شيء نستطيع ان نعمله، مهما كانت الحياة التي نحياها صالحة.**" وكانت النعمة التي منحت ذاتها له نعمة مكلفة، فحطمت كيانه كله تحطيما تاما. وكان عليه مرة اخرى ان يترك شباكه ويتبع المسيح. لقد تبعه في المرة الاولى عندما دخل الدير، عندما ترك كل شيء خلفه، ما عدا نفسه التقية البارة. وفي هذه المرة كان عليه ان يتركها، بل قد اخذت منه. واطاع الدعوة، لا كأن طاعته كانت نتيجة صلاح ذاتي في نفسه، بل كانت فقط بنعمة الله. ولم يسمع لوثر القول "لقد اخطأت طبعاً، لكن الآن قد غفر كل شيء، فتستطيع ان تبقى كما انت، وتتمتع بتعزيات الغفران". بل كان على لوثر ان يترك الدير ويرجع الى العالم، ليس لان العالم صالح ومقدس في حد ذاته، بل لان الدير نفسه انما كان جزءا من العالم.

كان رجوع لوثر من الدير الى العالم اشد ضربة تلقاها العالم، منذ ايام المسيحية الاولى. وكان تركه كل شيء ضحى به اولا عندما صار راهبا مثل لعبة اطفال اذا ما قورن بما كان عليه ان يقوم به عندما رجع الى العالم. ها هو يأتي بذلك الى مقدمة الهجوم، والى جبهة الحرب الامامية. فان الطريقة الوحيدة لاتباع المسيح انما تتم بالعيشة في العالم. الى ذلك الوقت الحياة المسيحية عمل القلة المختارة، التي تعيش في الدير حياة الرهبنة، في ظروف مواتية جدا. والآن قد اصبحت هذه الحياة المسيحية واجب كل مسيحي في العالم. **فان وصايا يسوع يجب ان تطاع طاعة تامة**

في **الحياة اليومية والاعمال اليومية.** ولذلك وجد صراع دائم بين حياة المسيحي وحياة العالم في اشد صوره واشكاله. وكان صراعا دائما مريبا متواصلا بين المسيحي وبين العالم.

من الخطأ الفاحش ان نظن ان عمل لوثر، في اكتشافه "**انجيل النعمة النقية الصافية**"، قدّم حلا عاما يعفي الانسان من الطاعة لامر يسوع، او ان الاكتشاف العظيم الذي جاء به الاصلاح عن نعمة الله الغافرة، منح العالم بطريقة عفوية تلقائية، برا وقداسة. لا بل على نقيض ذلك، كان لوثر يعتقد **ان عمل المسيحي في العالم يتقدس بمقدار ما يسجله هذا العمل من احتجاج جذري نهائي ضد العالم.** فانه بمقدار ما يمارسه المسيحي في عمله ومهنته في العالم من اتّباع المسيح، بهذا المقدار عينه ينال المسيحي من الانجيل مسحه قدسية وتبريرا. فلم يكن "**تبرير الخطية**" هو ما اخرج لوثر من الدير الى العالم بل "**تبرير الخاطئ**". فقد كانت النعمة التي نالها **نعمة** مكلفة. لقد كانت نعمة كمياه مُروية لارض ناشفة، فيها عزاء في الضيق، وفيها حرية من عبودية اختارتها النفس لذاتها، وفيها غفران لكل خطاياه. وكانت نعمة **مكلفة**، لم تُعفِه من الاعمال الصالحة، بل دعته بالاحرى ان يأخذ دعوة الاتّباع بطريقة جدية اكثر من ذي قبل بما لا يقاس. **لقد كانت نعمة لانها كلفت اعظم كلفة، وكلفت اعظم كلفة لانها كانت نعمة. هذا هو سر انجيل الاصلاح — تبرير الخاطئ.**

الا ان نتيجة الاصلاح لم تكن نصرة فَهْم لوثر وادراكه للنعمة في كمال نقاوتها وفي كل تكاليفها، بل نصرة الغريزة الدينية في الانسان وتيقظها لمعرفة المكان الذي يمكن الحصول فيه على النعمة بأرخص ثمن. وكل ما يحتاج اليه لتحقيق هذا الهدف هو تغيير التشديد، بطريقة حكيمة

ماهرة. لقد علم لوثر ان **الانسان لا يستطيع ان يقف امام الله، مهما كانت طرقه واعماله الدينية، لانه في اعماقه يطلب دائما ما هو لنفسه.** وقد تمسك لوثر بالايمان، في عمق بؤسه وشقائه، وبغفران كل خطاياه، المقدم له مجانا بدون قيد ولا شرط. وقد علّمه الاختبار ان هذه النعمة كلّفته حياته نفسها، ولا بد من ان تكلفه هذا الثمن يوما بعد يوم. وبدلا من ان تعفيه هذه النعمة من تكاليف الاتّباع، جعلته تلميذا اكثر غيرة واشد حماسة. فلما كان لوثر يتكلم عن النعمة، كان دائما يعني ضمنا كنتيجة ملازمة، انها كلفته حياته، الحياة التي صارت الان لاول مرة خاضعة للطاعة التامة للمسيح. على هذا النحو فقط كان يتكلم عن النعمة. كان لوثر يقول ان النعمة وحدها تقدر ان تخلص. واخذ اتباعه عنه هذا التعليم، وصاروا يرددونه كلمة كلمة، ولكنهم تركوا النتيجة الملازمة، وهي التزامات الاتباع. وما كان عند لوثر حاجه ان يذكر دائما هذه النتيجة الملازمة باكثر ايضاح، فانه كان دائما يتكلم كشخص اقتادته النعمة الى اتباع المسيح بأدق ما تعنيه الكلمة من معنى. وقد كان تعليم اتباع لوثر منيعا لا يمكن مهاجمته، اذا ما قيس بمقياس تعليم لوثر نفسه، الا ان تعليمهم الارثوذكسي قضى على الاصلاح وافسد غايته التي ترمي الى اعلان نعمة الله المكلفة على الارض. فهبط تبرير الخاطئ في العالم، الى تبرير الخطية والعالم. وبذلك تحولت النعمة المكلفة الى نعمة رخيصة بدون الاتّباع.

قال لوثر: "**ان كل ما نستطيع ان نفعله لا يجدي شيئا، مهما كانت الحياة التي نحياها صالحة.**" وقال ايضا ان لا شيء ينفعنا في نظر الله سوى "**النعمة والرضى الالهي الذي يمنح غفران الخطية**". لكنه تكلم بذلك كشخص ادرك في اللحظة الحاسمة التي فيها اختبر النعمة، ان

عليه ان يترك مرة ثانية كل شيء ويتبع المسيح. فكان اعترافه بنعمة الله المجانية هو الترك النهائي لخطيته الكبرى، ولكنه لم يكن قط تبريرا لتلك الخطية. لانه اذ تمسك بغفران الله ترك حياته التي سيطرت عليها ارادته هو، تركها لكي يتبع المسيح اتباعا جديا. وكان ينظر الى نعمة الله الغافرة كجواب لعجز الانسان عن ادراك البر. اما اتباع لوثر فيما بعد فجعلوا هذا "الجواب" مبدأ اساسيا منه استنتجوا تعليما آخر. وهذا كان سر البلاء. **ان كانت النعمة جواب الله لمشكلة الانسان، وهي هبة الحياة المسيحية، فلا يمكننا ان نتأخر لحظة عن اتباع المسيح اتباعا تاما.** اما ان كانت النعمة مبدأ لحياتي المسيحية فمعناه اني احيا حياتي في العالم وكل خطاياي مبررة سلفا، واني استطيع ان امضي في طريقي واخطئ قدر ما اشاء، وان اعتمد على هذه النعمة التي تغفر لي مهما كان الامر، لان كل العالم مبرر بموجب هذا المبدأ. واستطيع ان اعيش بالمقياس الذي يعيش به عامة الناس وابقى، كما كنت من ذي قبل، متأكدا ان نعمة الله ستسترني. لقد جعل العالم "**مسيحيا**" تحت تأثير هذا التعليم الخطأ عن النعمة، لكن ذلك كان على حساب تحويل الديانة المسيحية الى دنيوية اكثر مما في اي وقت مضى. ولم يبق هناك فرق بين الحياة المسيحية والحياة العادية المحترمة، اذ ان الحياة المسيحية قد اصبحت تعني مجرد العيشة في العالم مثل حياة اهل العالم. بل ان هذا التعليم يمنع المسيحي ان تكون حياته مختلفة عن حياة العالم، وذلك لاجل النعمة لئلا يظن البعض ان التبرير هو بواسطة الاعمال التي تختلف عن اعمال العالم. ونتيجة لهذا التعليم صار كل واجبي كمسيحي ان اهرب من العالم نحو ساعة في صباح الاحد، وان اذهب الى الكنيسة لاتأكد ان كل خطاياي قد غفرت. لا حاجة بي ان اسعى لاتّباع المسيح، لان النعمة الرخيصة – وهي الدّ اعداء

كل اتّباع حقيقي - قد حررتني من ذلك. ان النعمة التي نتّخذها مبدأ اساسيا منه نستنتج تعاليمنا الاخرى هي نعمة رخيصة للغاية. **اما النعمة التي تُعتبر جواب الله لمشكلة الانسان وعجزه فهي نعمة مكلفة**. انه لمن المخيف جدا ان نرى الى اي حد يمكن ان يساء استعمال تعليم انجيلي سليم. فالصيغة في الحالتين واحدة وهي "**التبرير بالايمان وحده**" انما سوء استعمال هذه الصيغة يؤدي الى اضاعة جوهرها ضياعا تاما.

بعد ان انفق "فاوست" حياته كلها في طلب المعرفة اعترف وقال: "**الان أرى اننا لا نستطيع ان نعرف شيئا.**" هذا هو جواب لمشكلة، هذه هي نتيجة اختبار طويل. لكن الامر كما لاحظ "**كيركيغارد**" يختلف عن ذلك كل الاختلاف عندما يدخل طالب جديد الى الجامعة، ويستخدم هذه العبارة وهذه العاطفة ليبرر كسله وتراخيه. فاذا نظرنا الى التعبير اعلاه كنتيجة سعي جدّي نراه صوابا تاما. ولكن اذا نظرنا اليه باعتباره مبدا اساسيا وجدناه يحمل نوعا من خداع النفس وتضليلها. لان العلم المستوعب لا يمكن فصله عن الوجود الذي استوعب فيه ولا يحق لاحد ان يقول باستحالة المعرفة ما لم يكن قد بذل جهده في سبيل كسب المعرفة. والانسان الوحيد الذي له الحق ان يقول انه مبرر بالنعمة وحدها هو الانسان الذي ترك الكل في سبيل اتّباع المسيح. وهو الذي يعلم ان الدعوة للاتّباع هبة من النعمة، وان هذه الدعوة لا تنفصل عن النعمة. اما الذين يحاولون ان يستخدموا هذه النعمة للتنصل من اتّباع المسيح فانما يخدعون انفسهم.

ولكن نسأل: ألم يعرّض لوثر نفسه لخطر هذا التحريف في فهمه للنعمة؟ ماذا يعني قوله: "**اخطئ بجرأة لكن آمنْ وتهلّل بالمسيح بجراة اكثر**"؟ انك خاطئ على كل حال ولا تستطيع ان تفعل شيئا لاصلاح الحال.

فسواء كنت راهبا او رجلا من اهل العالم، سواء كنت متدينا او شريرا، لا يمكن ان تنجو من متاعب الحياة ومصاعبها. لهذا واجه الامر بشجاعة، لا سيما وانت تعتمد على عمل النعمة. أليس هذا الموقف مناداة صريحة بنعمة رخيصة و"**بطاقة بيضاء**" لارتكاب الخطية وقضاء مبرما على كل اتباع حقيقي للمسيح؟ أليس هذا تجديفا يشجع على ارتكاب الخطية بجرأة اعتمادا على النعمة التي اعطانا اياها الله؟ أليس قانون الايمان الكاثوليكي على حق في الحكم على هذا الموقف بانه تجديف على الروح القدس؟

يتوقف فهمنا لهذا القول الذي نطق به لوثر على تمييزنا بين النعمة كجواب الله لمشكلة الانسان والنعمة كمبدأ نستنتج منه تعاليمنا الاخرى. فاذا اعتبرنا قول لوثر مبدأ نستنتج منه تعليما نكون من المنادين بنعمة رخيصة. ولكن قول لوثر ينبغي ان يعتبر خاتمة ونتيجة وجوابا لمشكلة وعجز، بل فصل الخطاب والكلمة النهائية في الموضوع. واذا اعتبرنا كلمتي "اخطئ بجرأة" مبدأ عاما يصبح مبدأ اخلاقيا اي مبدأ نعمة يوازيه مبدأ "اخطئ بجرأة" ويعني هذا تبرير الخطية، الامر الذي يقلب قصد لوثر رأسا على عقب، اذ لا يمكن ان تكون عبارة "اخطئ بجرأة" بالنسبة الى لوثر الا نتيجة الاختبار الطويل والعزاء للشخص الذي علمته محاولاته في اتباع المسيح انه لا يمكن ان يكون بلا خطية، فييأس من نعمة الله خوفا من خطيته. في نظر لوثر لم يكن القول "اخطئ بجرأة" استسلاما جذريا لواقعية حياة عاصية، بل كان تصريحا بنعمة الله التي امامها نحن دائما خطاة في كل ظرف وفي كل حال. ومع ذلك فان تلك النعمة تفتش عنا وتبررنا. لذلك يقول لوثر: تشجع، اعترف بخطيتك، ولا تحاول ان تهرب منها، لكن تشجع اكثر فآمن. انت خاطئ فكن خاطئا

كما انت، ولا تحاول ان تكون غير نفسك او ان تتظاهر بما لست عليه. نعم تعال ولو كنت خاطئا مرة بعد اخرى كل يوم، وكن جريئا شجاعا في ذلك. وبديهي ان هذه الكلمات لا يمكن ان توجه لسوى الذين يتركون خطاياهم كل يوم من اعماق قلوبهم ويتخطون كل حاجز يمنعهم من اتباع المسيح، اولئك الذين مع كل ذلك تزعجهم خطاياهم وعدم امانتهم اليومية. من يستطيع ان يسمع هذا الكلام دون ان يعرّض ايمانه للخطر، الا الذي يسمعه فيقبله ويتعزى به كنداء متجدد لاتّباع المسيح؟ ان هذه العبارة التي قالها لوثر، اذا فسرت على هذا النحو، كانت شهادة على النعمة المكلفة، بل على كلفة النعمة، وهي النوع الوحيد الصحيح من النعمة.

اما اذا فسرت النعمة على انها مبدأ، وفسرت عبارة لوثر، "اخطئ بجرأة" على انها مبدأ، فتكون النعمة رخيصة بخسة الثمن، وتكون في نهاية المطاف، ناموسا جديدا، لا يحمل معه معونة ولا حرية. لكن اذا اخذنا النعمة على انها الكلمة الحية، فتكون عبارة، "اخطئ بجرأة" عزاءنا في الضيق، ودعوة لنا للاتباع، وتكون النعمة المكلفة هي النعمة الوحيدة النقية الصافية، التي تغفر الخطايا حقا، وتحرر الخاطئ حقا.

نحن الذين نتمسك بمبدأ الخلاص بالنعمة الرخيصة قد تجمعنا حولها تجمّع النسور حول الجيفة، وشربنا منها السم الذي قتل حياة الاتّباع الصحيحة. صحيح اننا اكرمنا بالطبع تعليم النعمة الصافية اكراما لا يباري في البلاد المسيحية بجملتها، ورفعنا هذا التعليم وعظمناه في الحقيقة الى مركز الله نفسه. وقد كررت صيغة لوثر ورددت مرارا في كل مكان، لكن حقها الاصيل قد حرّف الى خداع النفس وتضليلها. فكم قيل انه ما دامت كنيستنا تتمسك بتعليم التبرير الصحيح، فلا شك اطلاقا في انها كنيسة متبررة. هكذا قالوا، وهكذا زعموا، ظنا منهم انه

يجب ان نؤيد تراثنا بجعل هذه النعمة ميسورة للجميع بأرخص الشروط وابسطها. ان نتمسك بهذا المبدأ يعني انه يجب ان نترك اتّباع المسيح للناموسيين والكلفينيين والمتحمسين – وكل هذا لاجل النعمة. لقد بررنا العالم، وحكمنا على الذين يجتهدون ان يتبعوا المسيح بأنهم هراطقة. وكانت النتيجة اننا غدونا كنيسة انجيلية اسمية وبلادنا مسيحية ولوثرية، ولكن على حساب الاتّباع الحقيقي. كان الثمن المطلوب ارخص جدا مما ينبغي. وقد ربحت "النعمة الرخيصة" الصفقة.

لكن هل ادركنا ان هذه "النعمة الرخيصة" ترجع علينا بمفعولها؟ والنتيجة التي وصلنا اليها من تدهور في الدين المنظم هي النتيجة الوحيدة الحتمية لسياستنا العقيمة، في تقديم نعمة رخيصة جدا بأبخس الاثمان للجميع. لقد قدمنا الرسالة والفرائض بالجملة، وعمّدنا وثبّتنا، وحللنا امة بجملتها، دون ان نسأل احدا اسئلة محرجة، ودون ان نضع على احد شروطا قاسية. لقد قادتنا عاطفتنا الانسانية الخيرية ان نعطي القدس للمستهزئين وغير المؤمنين. لقد قدمنا للناس انهارا لا نهاية لها من النعمة، لكننا لم نُسمعهم معها دعوة تذكر لاتّباع المسيح. اين تلك الحقائق التي حدت بالكنيسة الاولى ان تنشئ نظاما وتهيئ دروسا لتعليم طالبي العماد والانضمام الى الكنيسة، والتي مكنّت الكنيسة من اقامة حراسة منيعة لتحفظ الحدود الفاصلة بينها وبين العالم، ولتقدم وسائل الحماية الكافية للنعمة المكلفة؟ ماذا حدث لكل التحذيرات التي قدمها لوثر ضد الكرازة بالانجيل بطريقة تجعل الناس يطمئنون الى حياتهم الشريرة؟ هل هناك مثال على تدهور المسيحية، وجعل العالم مسيحيا اسميا، افظع واسوأ من هذه الطريقة؟ أية مقارنة بين قتل تشارلمان ثلاثة آلاف سكسوني، وبين قتل الملايين روحيا في بلادنا اليوم؟ لقد ثبت لنا

بأصدق دليل افتقاد ذنوب الاباء في الابناء في الجيل الثالث والرابع. لقد برهنت النعمة الرخيصة انها قاسية جدا، ولا رحمة فيها اطلاقا على كنائسنا الانجيلية.

ولم تكن "النعمة الرخيصة" اقل اتلافا لحياتنا الروحية شخصيا. فانها بدلا من ان تفتح الطريق للمسيح اقفلتها. وبدلا من ان تدعونا لاتّباع المسيح قست قلوبنا في اطاعته. ربما سمعنا مرة الدعوة المجيدة لاتباعه، وربما اتخذنا الخطوات الاولى القليلة في سبيل التتلمذ، واذا بنا نجد انفسنا امام رسالة النعمة الرخيصة. ألم يكن هذا قاسيا، ولا رحمة فيه؟ ولم يكن من تأثير لهذه الرسالة سوى انها اقفلت امامنا سبيل التقدم، وخدعتنا حتى نكتفي بمستوى العالم الحقير، واطفأت من نفوسنا شعلة الفرح بالاتباع، اذ اخبرتنا ان سلوكنا في طريق الاتباع هو اتباع طريق اخترناه لانفسنا، وانفاق قوتنا في تدريب انفسنا تدريبا باطلا، وكل هذا ليس فقط عبثا وبلا جدوى، بل هو خطر بالغ الخطورة، اذ ان خلاصنا سبق ان تم بنعمة الله. فبهذا تكون الفتيلة المدخنة قد اطفئت بلا رحمة ولا شفقة. ولم يكن من الاحسان في شيء ان نكلم الناس بهذه الصورة، لان هذه النعمة الرخيصة انما تتركهم متحيرين ومضطربين، وتبعدهم عن السير في الطريق الذي دعاهم اليه المسيح. فاذا تمسكوا بالنعمة الرخيصة منعوا الى الابد من معرفة النعمة المكلفة. وبهذا ضعف الناس وخدعوا وشعروا انهم اقوياء بحصولهم على هذه النعمة الرخيصة، مع انهم في الحقيقة فقدوا القوة التي بها يحيون حياة الاتباع والطاعة. **ان كلمة النعمة الرخيصة كانت سببا في خراب عدد من المسيحيين اكثر كثيرا من ايه وصية من وصايا الاعمال.**

وسنحاول في الفصول التالية ان نجد رسالة للذين تزعجهم هذه

المشكلة وللذين فقدت كلمة النعمة معناها عندهم. ويجب ان نفعل هذا باسم الحق، ولاجل اولئك الذين يسلمون بان النعمة الرخيصة قد اضلتهم واعاقتهم عن اتباع المسيح وحرمتهم من معرفة النعمة المكلفة. ومع اننا نعترف ان كنيستنا قويمة مستقيمة في تعليمها عن النعمة، الا اننا لا نجزم اننا اعضاء كنيسة تتبع ربها تماما. لذلك يجب ان نبذل جهدنا لنعيد الفهم الصحيح للعلاقة المتبادلة بين النعمة والاتباع. وهذا امر لا مفر منه. فان المشكلة التي تزداد وضوحا وجلاء كل يوم، المشكلة الملحّة التي تجابه الكنيسة هي هذه: كيف نستطيع ان نحيا الحياة المسيحية في العالم المعاصر؟

ما اسعد الذين وصلوا الى نهاية الطريق التي نسعى الان ان نخطو فيها. اولئك الذين اكتشفوا الحق الواضح جليا للعيان، وهو ان النعمة مكلفة لانها نعمة الله في المسيح يسوع. **ما اسعد اتباع المسيح البسطاء الذين غلبتهم نعمته، والذين يستطيعون ان ينشدوا تسابيح نعمة المسيح الكافية كل الكفاية، والتي تقود القلب الى الاتضاع.** ما اسعد الذين بسبب معرفتهم تلك النعمة، يستطيعون ان يعيشوا في العالم دون ان يكونوا من العالم، الذين باتباعهم المسيح يتأكدون من رعويتهم السماوية، لدرجة معها يستطيعون ان يتمتعوا بحرية كاملة في ان يحيوا حياتهم في هذا العالم. ما اسعد الذين يعرفون ان اتباع المسيح انما يعني الحياة النابعة من النعمة، وان النعمة تعني الاتباع. ما اسعد الذين صاروا مسيحيين بهذا المعنى، **لان كلمة "النعمة" قد اصبحت نبع رحمة لهم.**

الفصل الثاني

الدعوة للاتّباع

"وفيما هُو مُجتازٌ رأى لاويَ بْن حلْفى جالسًا عنْد مكَان الجِبَاية، فقَال لهُ: "اتْبعنِي". فقَام وتبِعَهُ" (مرقس ٢: ١٤).

تقدمت الدعوة، فوجدت في الحال جوابا بالطاعة. وكان الجواب، على ما نلاحظ، عمل طاعة، لا اعتراف ايمان. ترى كيف اثارت الدعوة طاعة في الحال؟ لقد كانت هذه القصة حجر عثرة للعقل الطبيعي، فلا عجب ان نجد مجهودات تبذل للتفريق بين الدعوة والطاعة، والفصل بينهما. ويحاول الناس قهرا وقسرا ان يوجدوا جسرا بينهما. ويقولون لا بد ان يكون شيء قد حدث بين الامرين – كأن يكون حدث شيء نفساني، او تاريخي – ويحتمون بطريقة غبية ان العشار لا بد ان يكون قد عرف المسيح، اي لا بد من معرفة سابقة بينهما تعلل طاعته واستعداده لسماع دعوة السيد. ولسوء الحظ نجد آيتنا تصمت صمتا مطبقا من هذه الناحية، بل هي تعتبر في الحقيقة ان النتيجة السريعة للدعوة كانت امرا على اكبر جانب من الاهمية. ولا تظهر اقل اهتمام في الاسباب النفسانية للقرارات الدينية التي يقررها الانسان. لماذا؟ لسبب بسيط، وهو ان السبب الكامن وراء الطاعة السريعة، هو يسوع المسيح نفسه. ان الذي يدعو هو يسوع، ولانه يسوع يتبعه لاوي في الحال. **هذه المقابلة هي شهادة لسلطان يسوع المطلق المباشر الفائق. فلا حاجه الى مقدمات ولا الى تمهيد، بل لا تنتظر نتيجة اخرى للدعوة سوى الطاعة.** ولان يسوع هو

المسيح، لذلك له سلطان ان يدعو، وان يتطلب الطاعة لكلمته. يسوع يدعو الناس لاتّباعه، لا كمعلم، ولا كنموذج للحياة الصالحة، بل كالمسيح، ابن الله. ولم تقدم كلمة مدح او ثناء للتلميذ لاطاعة الدعوة. ولا ينتظر منا ان نتأمل في التلميذ، ونحوّل انتباهنا اليه، بل ان نحوّل انتباهنا الى المسيح وحده الذي يدعو، والى سلطانه المطلق. **وآيتنا تبين انه لا يوجد طريق آخر للايمان او الاتباع سوى الطاعة لدعوة يسوع.**

ماذا تخبرنا الاية عن مضمون الاتباع؟ اتبعني. اركض ورائي. هذا كل شيء. اتباع خطواته امر مجرد عن كل مضمون ومحتويات. لا برنامج معين لطريق الحياة، ولا هدف، ولا مثل اعلى نسعى اليه. وهو ليس قضية من القضايا التي يحسبها البشر جديرة بولائنا، وبتكريس نفوسنا. ماذا حدث؟ ترك لاوي كل شيء عندما سمع الدعوة – لا لكونه يظن انه سيفعل امرا جديرا، لكنه فعل ذلك فقط لاجل الدعوة. ولولا ذلك ما كان يستطيع ان يتبع خطوات يسوع. **وهذا العمل الذي قام به لاوي، ليست له ادنى قيمة في ذاته، بل هو امر مجرد من كل اهمية، ولا يستحق اي اعتبار. والتلميذ يهدم الجسر وراءه، ويسير الى الامام.** لقد دعى ان يخرج، فاضطر ان يترك حياته العتيقة، حتى يتسنى له ان "**يوجد**" بأدق معنى لكلمة الوجود. لقد ترك الحياة العتيقة خلفه، وسلم التسليم التام. ترك حياته الامنة الموافقة المؤاتية، الى حياة لا امان فيها ولا ضمان مطلقا. خرج من حياة يمكن ملاحظتها ويمكن عدها وحسبانها، الى حياة كل شيء فيها لا يلاحظ ولا يعد ولا يحسب، هي حياة اتفاقية، عرضية. خرج من دائرة المحدوديات، الى دائرة الامكانيات غير المحدودة. وهنا نلاحظ مرة اخرى ان الحياة الجديدة ليست ناموسا، ولا مجموعة مبادئ، ولا برنامجا، ولا مثلا اعلى. ان الاتّباع معناه يسوع

المسيح، وهو وحده. ولا يمكن ان يحتوي على اي شيء اكثر من ذلك.

عندما ندعي لاتباع المسيح، ندعى للتعلق التام بشخصه. ان نعمة دعوته تتخطى كل حدود الطقوس والشكليات. انها دعوة ووصية مجيدتان تسموان على الفرق بين الناموس والانجيل. والمسيح يدعو والتلميذ يتبع. هذه هي النعمة والوصية في امر واحد "**وأتمَشّى في رحْبٍ، لأنّي طلبْتُ وصَاياكَ**" (**مزمور ١١٩: ٤٥**).

ان الاتباع معناه الالتصاق بالمسيح. وجود المسيح يعني ضرورة الاتباع. ان العلم النظري عن المسيح، او اللاهوت النظامي او المعرفة الدينية العامة في موضوع النعمة او غفران الخطايا، تجعل الاتباع امرا سطحيا، بل تنفي فكرة التتلمذ، وتناقض فكرة اتباع المسيح بجملتها. **انه من الميسور ان نحصل على معرفة شكلية بمجرد فكر مبهم، وان نتحمس لهذه المعرفة، وقد نضعها موضع التطبيق، لكن لا يمكن تطبيقها بطاعة شخصية. ان المسيحية بدون المسيح هي حتما مسيحية بدون اتباع. ومسيحية بدون اتباع هي دائما مسيحية بدون مسيح.** وتظل فكرا مبهما غامضا، واسطورة فيها مكان لابوة الله، لكنها تحذف المسيح ابنه الحي. ومسيحية من هذا النوع لا تعني اكثر ولا اقل من نهاية الاتباع. وفي ديانة كهذه توجد ثقة في الله، لكن لا يوجد اتباع المسيح. ولان ابن الله قد صار انسانا، ولانه هو الوسيط، لهذا السبب وحده، فالعلاقة الوحيدة التي يمكن ان تكون لنا معه هي ان نتبعه. ان الاتّباع مرتبط بالمسيح كوسيط، وحيث يفهم الاتّباع فهما صحيحا، فان ذلك يعني بالضرورة الايمان في ابن الله كوسيط. هذا الوسيط وحده، هذا الاله الانسان وحده، هو الذي يستطيع ان يدعو الناس لاتّباعه.

ان الاتّباع بدون يسوع المسيح، هو طريق صنعناه، واخترناه لانفسنا. وقد تكون هذه طريقة مثلى، وقد تقود الى الاستشهاد. لكنها مجردة من كل وعد ويسوع يرفضها حتما.

"وفيمَا همْ سائرُونَ في الطَّريق قال لهُ واحدٌ: يا سيّد، أتْبعُك أيْنما تمْضي. فقال لهُ يسُوع: للثّعالب أوْجرةٌ، ولطيُور السَّماء أوْكارٌ، وأمّا ابْن الإنسان فليسَ لهُ أيْن يسْند رأسهُ. وقال لآخر: اتْبعني. فقال: يا سيّد، ائْذَن لي أنْ أمضيَ أوّلاً وأدْفن أبي. فقال لهُ يسُوع: دَع الموْتى يدْفنون موْتاهُم، وأمَّا أنْت فاذهَب وناد بملكوت الله. وقال آخرُ أيْضًا: أتْبعُكَ يا سيّد، ولكن ائْذَن لي أوّلاً أنْ أودّع الّذينَ في بيْتي. فقال لهُ يسُوع: ليْس أحدٌ يضعُ يدهُ على المحْراثِ وينْظرُ إلى الوراءِ يصْلحُ لملكوت الله". (لوقا ٩: ٥٧-٦٢).

التلميذ الاول يعرض على يسوع ان يتبعه، دون ان ينتظر دعوة. لكن يسوع يخمد حماسته بتحذيره بانه لا يعلم ماذا يفعل، او انه في الحقيقة غير قادر ان يعرف. هذا معنى جواب يسوع، وهو يبين للتلميذ المزعوم ما تعنيه الحياة معه. **وفي جواب يسوع نسمع كلام من هو في طريقه الى الصليب**، من تتلخّص حياته في كلمة "**تألم**" كما في قانون الايمان. ولا يستطيع احد ان يختار لنفسه مصيرا كهذا المصير. فالهوة عظيمة وواضحة بين عرض تطوعي عفوي للاتّباع، وبين الاتّباع الحقيقي الصادق.

ولكن حيثما يدعو يسوع، يقيم جسرا فوق اوسع هوة. نلاحظ ذلك في الثاني الذي اراد ان يكون تلميذا. هذا التلميذ يريد ان يدفن اباه قبل ان يبدأ باتّباع يسوع. انه يرى نفسه مربوطا بعراقيل الشريعة. هو يعرف ما يريده، وما يجب عليه ان يفعله. فأراد اولا ان يتمم الشريعة، ثم بعد

ذلك يتبع المسيح. لقد وجد فرضا شرعيا يمنعه، ويقيم حاجزا بينه وبين يسوع الذي دعاه. لكن دعوة يسوع اقوى من الحاجز. **وفي هذه اللحظة الحاسمة يجب ان لا يسمح لاي شيء، مهما كان مقدسا، ان يقف حائلا بين يسوع وبين الانسان الذي يدعوه يسوع،** حتى ولو كان الناموس نفسه او الشريعة نفسها. والان يجب ان تكسر الشريعة لاجل يسوع، فانها تنقض كل حقوقها ومبررات وجودها، ان هي وقفت حائلا وعائقا في سبيل اتباع المسيح. لذلك يبرز يسوع عند هذه النقطة كخصم للشريعة، ويأمر الانسان ان يتبعه. ولا يستطيع احد ان يتكلم بهذه الصورة سوى المسيح، فهو وحده صاحب الكلمة النهائية القاطعة. ولا يستطيع من يريد ان يكون تابعا له ان يرفس مناخس هذه الدعوة، بل هذه النعمة لا تقاوم.

اما الثالث الذي يريد ان يكون تلميذا، فيظن كما يظن الاول، انه يجب ان يقدم هو العرض بنفسه، وان يتخذ المبادأة، كما لو كان اتباع المسيح امرا قد رسمه هو لنفسه. طبعا هناك فرق بين التلميذ المزعوم الاول، والتلميذ المزعوم الثالث، لان التلميذ الثالث يتجاسر ان يتقدم ويملي شروطه. لكنه لسوء الحظ يضع نفسه في مناقضة بائسة، لانه ولو كان مستعدا ان يضع مصيره في يد يسوع، لكنه وضع حاجزا بين نفسه وبين يسوع. فقال "**ائذن لي اولا**". هو يريد ان يتبع، لكنه يصمم ان يضع شروطه. ويبدو الاتّباع امامه شيئا ميسورا يمكن تحقيقه فقط على اساس شروط معينة. وهذا تخفيض للاتّباع الى مستوى الفهم البشري. فهو اولا يجب ان يفعل هذا، ثم يجب عليه بعد ذلك ان يفعل ذاك. وهو يرى ان لكل شيء وقته المناسب. لذلك يضع هذا الاتباع نفسه تحت تصرف السيد، لكنه في نفس الوقت يحتفظ بحقه في املاء شروطه الخاصة. **في هذه الحالة لا يكون الاتّباع اتّباعا بمعناه الصحيح، لكنه يكون برنامجا من**

ترتيبنا نحن، خططناه بانفسنا ليلائم رغباتنا، ونقيسه بمقاييسنا العقلية والادبية. الصعوبة مع هذا التلميذ الثالث، هي انه في نفس اللحظة التي يعبرّ فيها عن رغبته في الاتّباع، يكف عن الاتّباع، فهو اذ يقدم عرضه مشروطا بشروطه الخاصة، يغير الموقف كله، لان الاتّباع لا يقبل شروطا تحول بين يسوع وبين طاعتنا له. لهذا يجد التلميذ الثالث نفسه متناقضا لا مع يسوع فقط بل مع نفسه ايضا. فان رغائبه لا تتناقض فقط مع ما يطلبه يسوع، بل تتناقض ايضا مع ما يطلبه هو. فهو يحكم على نفسه، ويقرر ضد نفسه، بقوله "**ائذن لي اولا**". ويجيب يسوع بأسلوب حيّ قائلا "**ليس احد يضع يده على المحراث وينظر الى الوراء يصلح لملكوت الله**".

ان اردنا ان نتبع يسوع، يجب ان نتخذ خطوات معينة محدودة. واول خطوة هي قطع الصلة بماضينا. ان الدعوة لاتباعه تُنتج موقفا جديدا في الحال. لاوي يجب ان يترك مكان الجباية، وبطرس يجب ان يترك شباكه. كان الواحد يظن انه يجب ان لا يحدث تغيير جوهري جذري لهذه الدرجة في المرحلة الاولى. ويتساءل الانسان: اما كان يسوع يستطيع ان يجعلهم يختبرون اختبارا دينيا جديدا، تاركا اياهم كما كانوا؟ كان يمكن ان يفعل ذلك لو لم يكن هو ابن الله المتجسد. لكن حيث انه هو المسيح، فلا بد ان يوضح لاول وهلة ان كلمته ليست تعليما مجردا، بل هي خلق جديد لحياة الانسان كلها. والطريق الوحيد الصائب هو السير مع المسيح واقعيا. **ان الدعوة للاتّباع تدل على ان الاتّباع هو الطريق الوحيد للايمان بيسوع المسيح، وان هذا الاتّباع يتم بترك كل شيء والسير مع ابن الله المتجسد.**

ان الخطوة الاولى تضع التلميذ في الموضع الذي يمكن فيه الايمان. فان

رفض ان يتبع وتخلف، لا يتعلم كيف يؤمن. لكن هذه الخطوة ليست اول مرحلة في مهمة التلميذ. ان المبرر الوحيد لها هو كونها تأتي بالتلميذ الى الشركة مع المسيح. وما دام لاوي يجلس في مكان الجباية، ويبقى بطرس عند شباكه، يستطيع كل منهما ان يتابع عمله في مهنته بأمانة واخلاص، وقد يتمتع كل منهما باختبار ديني، قديم او جديد. لكن **ان اراد كل منهما ان يؤمن بالله، فالطريق الوحيد لذلك هو ان يتبع ابن الله المتجسد.**

الى ذلك اليوم كان كل شيء يختلف عما صار اليه فيما بعد. كان لهم قبل ذلك ان يبقوا نكرات لا يعرف بهم احد، وان يتابعوا عملهم الهادئ في البلاد، وان يحفظوا الشريعة، وان ينتظروا مجيء المسيا. اما الان فقد جاء المسيح، وتقدمت دعوته، فلا يستطيع الايمان ان يعني الجلوس في اماكنهم جامدين خامدين، بل على المؤمنين ان ينهضوا ويتبعوا المسيح. **والدعوة تفكّهم من كل الربط الارضية، وتربطهم بيسوع وحده. عليهم ان يحرقوا سفنهم وراهم، وان يلقوا بانفسهم في حالة مخاطرة تامة، لا امان فيها ولا ضمان، حتى يتعلموا امر المسيح وعطيته.** لو بقى لاوي في مكان عمله، كان يمكن ان يكون يسوع عونه في الضيق، لكنه لا يكون رب حياته. بمعنى آخر، ما كان لاوي تعلم ان يؤمن. فكان لا بد اذن من خلق ظرف جديد، فيه يمكن الايمان بيسوع كالله المتجسد. **وهو الظرف المستحيل الذي فيه يخاطر الانسان بكل شيء.** في سبيل كلمة يسوع وحدها. كان على بطرس ان يترك سفينته ويخاطر بحياته في البحر حتى يتعلم ان يختبر ضعفه وقوة سيده القادر على كل شيء. ولو لم يقم بطرس بهذه المجازفة، ما تعلم معنى الايمان. لانه قبل ان يستطيع ان يؤمن، كان عليه ان يقوم بالمستحيل، وان يواجه الموقف الخطير، ويمشي على الامواج. **ان طريق الايمان تمر بالطاعة لدعوة يسوع.** وما لم تُطالب

بخطوة معينة للطاعة، تضيع الدعوة في الهواء. واذا تصور الناس انهم يستطيعون ان يتبعوا المسيح بدون اتخاذ هذه الخطوة، فانما يخدعون انفسهم، كما يفعل المتطرّفون.

انه اجراء بالغ الخطورة ان نميز بين موقف يمكن فيه الايمان، وموقف لا يمكن فيه. ويجب ان ندرك **اولا**: وقبل كل شيء، انه لا يوجد شيء في الموقف ذاته يخبرنا من اي نوع هو. انما دعوة يسوع وحدها هي التي تجعل الموقف موقفا يمكن فيه الايمان. ويجب ان ندرك **ثانيا**: ان الموقف الذي يمكن فيه الايمان، لا يمكن اظهاره او عرضه من الجانب البشري. **فالاتّباع ليس عرضا يقدمه الانسان للمسيح.** انما الدعوة وحدها هي التي تخلق الموقف. ويجب ان ندرك **ثالثا**: ان هذا الموقف في ذاته لا يحوي قيمة اصلية جديرة، بل ليس له ما يبرره الا في الدعوة نفسها. **واخيرا**، ان الموقف الذي يمكن فيه الايمان لا يمكن الا بواسطة الايمان.

يمكن ان يوصف هذا الموقف بأمرين يتعادلان في الصواب والاهمية: **الذي يؤمن هو وحده الذي يطيع. والذي يطيع هو وحده الذي يؤمن.**

لا يتفق مع الكتاب المقدس ان يتمسك الواحد بقول دون الاخر. نظن اننا نفهم تعليم الكتاب حين نسمع احدا يقول ان الطاعة ممكنة حيث يوجد ايمان. الا تنتج الطاعة من الايمان، كما ينتج الثمر الجيد من الشجرة الجيدة؟ لذلك نقول الايمان اولا ثم الطاعة. ان كنا نعني بذلك ان الايمان هو الذي يبرر، وليس عمل الطاعة، فهذا صحيح ولا غبار عليه، لانه مبدأ ضروري ثابت لا استثناء فيه، كأساس سابق لكل ما يتبعه. لكن ان كنا نعني بذلك ان نوجد فرقا تاريخيا بين الايمان والطاعة، ونجعل الطاعة تأتي تابعة لاحقة للايمان، فاننا بذلك نفصل الواحد عن الاخر.

يقودنا هذا الى سؤال عمليّ: متى يجب ان تبدأ الطاعة؟ من وجهة نظر التبرير، يلزم ان نفرّق بينهما، لكن يجب ان لا نتجاهل وحدتهما الاساسية. **لان الايمان لا يكون ايمانا حقا الا حيث توجد الطاعة**، ولا يمكن ان يكون بدونها، والايمان انما يصير ايمانا بعمل الطاعة.

وحيث اننا لا نستطيع ان نقول تماما ان الطاعة هي نتيجة تابعة للايمان، وحيث اننا يجب ان لا ننسى الوحدة القائمة بين الطاعة والايمان، تلك الوحدة التي لا تقبل الانفصال، لهذا يجب ان نضع القول الثاني جنبا الى جنب مع الاول. فليس اولئك الذين يؤمنون هم وحدهم يطيعون، بل ايضا اولئك الذين يطيعون يؤمنون. في احدى الحالتين الايمان هو شرط الطاعة، وفي الحالة الاخرى الطاعة هي شرط الايمان.

ان كنا نؤمن فلابد ان نطيع وصية صريحة واضحة. وبدون خطوة الطاعة التمهيدية هذه، يكون ايماننا تدجيلا وخداعا، ويقودنا الى نعمة غير مكلفة. كل شيء يتوقف على الخطوة الاولى اذ لها خاصية ذاتية فريدة. ان الخطوة الاولى، خطوة الطاعة، تجعل بطرس يترك شباكه، وتجعله بعد ذلك يخرج من السفينة، وتدعو الشاب الغني ان يترك غناه. **هذا الوجود الجديد الذي تخلقه الطاعة هو وحده الذي يجعل الايمان ممكنا.**

هذه الخطوة الاولى يجب ان تعتبر عملا خارجيا بادئ ذي بدء، وهذا العمل الخارجي يؤثر في الانتقال من وجود الى آخر. وهي خطوة في طاقة كل انسان، لانها تدخل ضمن نطاق حدود الحرية البشرية. انها عمل داخل نطاق القانون الطبيعي، والانسان حر في هذا النطاق. فمع ان بطرس لا يستطيع ان يقوم بتجديد نفسه، الا انه يستطيع ان

يترك شباك ابيه. **ونجد في الانجيل ان اول خطوة على الانسان ان يخطوها، هي الخطوة التي تغير وجوده كله تغييرا جذريا.** لقد طلبت كنيسة رومه هذه الخطوة كشيء خارق جدا لا يستطيع ان يقوم به سوى الرهبان. اما بقية المؤمنين فيكفيهم الخضوع بدون قيد ولا شرط للكنيسة وفرائضها. والاعترافات في الكنيسة اللوثرية تبين هي ايضا اهمية هذه الخطوة الاولى. وبعد ان عالج اللوثريون اخطار بدعة بلاجيوس علاجا قاطعا، وجدوا انه من الممكن، بل من الضروري، ان يعترفوا بضرورة عمل خارجي اولى كتمهيد اساسي للايمان وذلك بخطوة تأخذ صورة دعوة للحضور في اجتماع الكنيسة، حيث ينادى بكلمة الخلاص. واتخاذ هذه الخطوة لا يعني بالضرورة تسليم حرية الانسان. فعندما يقال لك: تعال الى الكنيسة، تستطيع ان تجيب الدعوة بمطلق حريتك. تستطيع ان تترك بيتك في صباح الاحد وتأتي لتسمع عظة. فان لم تأت، تحرم نفسك بمطلق حريتك من المكان الذي يصبح فيه الايمان ممكنا. وبذلك تبين الاعترافات اللوثرية انها تدرك ان هناك ظرفا يمكن فيه الايمان، وظرفا لا يمكن فيه. ومن المسلم به ان اللوثريين صاروا يخففون من ادراكهم هذا، كأنهم يخجلون منه. لكنه موجود على كل حال. وذلك يبين انهم يدركون كما يدرك العهد الجديد، اهمية هذه الخطوة الخارجية الاولى.

اذا تأكدنا من هذه النقطة، يجب ان نضيف ان هذه الخطوة ليست، ولا يمكن ان تكون، سوى عمل خارجي محض وعمل من اعمال الناموس الميتة التي لا تستطيع من ذاتها ان تأتي بنفس الى المسيح. هذا الوجود الجديد كعمل خارجي ليس افضل من العتيق في شيء. فانه في اسمى حالاته، لا يستطيع ان يأتي الا بقانون جديد للحياة وطريقة جديدة للحياة تختلف عن الحياة الجديدة في المسيح اختلاف القطبين. فمثلا ان قطع السكير

عهدا بالامتناع عن المسكرات، او وزّع غني كل امواله، فقد تحرر كل منهما من عبوديته للمسكر وللمال، ولكنه لم يتحرر من عبوديته لنفسه. ولا يزال كل منهما يدور في فلكه، ربما اكثر من ذي قبل. ولا يزال كل منهما خاضعا لوصية الاعمال، غارقا ميتا في حياته العتيقة كما كان من قبل. طبعا يجب ان يتم العمل، لكن العمل لا يستطيع بذاته ان ينجي من الموت، ولا من العصيان، ولا من الفجور. فاذا كنا نظن ان خطوتنا الاولى هي شرط سابق للايمان والنعمة، وضعنا انفسنا تحت حكم اعمالنا، وحرمنا انفسنا كليا من النعمة. ولهذا فان عبارة "**العمل الخارجي**" تشمل كل شيء تعودنا ان ندعوه "**استعدادا**" او "**ميلا**" او "**نية صالحة**" او كل شيء تعنيه الكنيسة الرومانية عندما تشير الى العمل نفسه. فاذا اخذنا الخطوة الاولى بقصد متعمد ان نضع انفسنا في الظرف الذي يصبح فيه الايمان ممكنا، فان امكانية الايمان نفسها تصبح مجرد عمل. وتظل الحياة الجديدة التي فتحها الظرف لنا ويسّرها، تظل حياة داخل نطاق وجودنا العتيق، وبذلك تصير سوء فهم تام لطبيعة الحياة الجديدة على حقيقتها. ونظل نحن في حالة عدم الايمان.

مع كل هذا يجب ان يتم العمل الخارجي، لاننا ما نزال في حاجة الى ان نوجد في ظرف يكون فيه الايمان ممكنا. يجب ان نتخذ خطوة معينة محدودة. ما معنى ذلك؟ **معناه اننا لا نستطيع ان نتخذ هذه الخطوة على وجه صائب الا اذا ثبتنا انظارنا، لا على العمل الذي نقوم به، بل على الكلمة التي بها يدعونا المسيح للقيام به.** لقد كان بطرس يعلم انه لا يستطيع ان يخرج من السفينة ويمشي على البحر بقوته. ان اول خطوة يقوم بها كانت تعني هلاكه. لذلك صرخ قائلا "**يارب مرني ان آتي اليك على الماء**" **واجابه يسوع** "**تعال**". ان المسيح يجب ان يدعوه اولا، لان

الخطوة لا يمكن ان تتم الا بناء على كلمته. لكن عندما يدعوه المسيح، لا يبقى قدامه اي بديل اخر – عليه ان يترك السفينة وياتي اليه. ان اول خطوة في الطاعة تبرهن في النهاية على انها عمل من اعمال الايمان بكلمة المسيح. ولكننا نسيء فهم طبيعة النعمة تماما اذا ظننا ان لا حاجة بنا ان نتخذ هذه الخطوة، لان الايمان كان موجودا من قبل. يجب ان نعلن بعكس ذلك ان خطوة الطاعة ضرورية، قبل ان يصبح الايمان ممكنا. فما لم يطع الانسان، لا يستطيع ان يؤمن.

هل ترتبك وتقلق لانك تجده صعبا عليك ان تؤمن؟ يجب ان لا يندهش احد من صعوبة الايمان، اذا كانت هناك ناحية في حياته يدرك واعيا انها تقاوم امر يسوع او تعصاه. هل هناك ناحية في حياتك تأبى ان تسلمها لارادته، او هناك ميل شرير، او حقد، او رجاء، او طمع، او عقل لا تريد ان تخضعه له؟ ان كان الامر كذلك، فلا غرابة ان تعرف انك لم تقبل الروح القدس، وان الصلاة صعبة عليك، وان طلبتك ان تنال ايمانا لا تستجاب. اذهب اولا واصطلح مع اخيك. اترك خطيتك التي تتمسك بها، فتستعيد ايمانك. ان رفضت كلمة الله وامره، لا يمكن ان تقبل كلمة نعمته. كيف يمكن ان تأمل ان تدخل في شركة مع الله، وانت تتخذ في حياتك موقف الهرب منه؟ ان الشخص الذي يعصي لا يستطيع ان يؤمن. لان الذي يطيع هو وحده الذي يستطيع ان يؤمن.

ان دعوة المسيح المنعمة تتحول الان الى امر صارم. افعل هذا! اترك ذاك! اترك السفينة وتعال اليّ! عندما يقول انسان انه لا يستطيع ان يطيع دعوة المسيح، لانه يؤمن او لانه لا يؤمن، يقول يسوع: "**أولا أطعْ، تمم العمل الخارجي، تخلّ عن ارتباطاتك، اترك العقبات التي تفصلك عن ارادة الله. لا تقل ليس عندي ايمان. لن يكون عندك ايمان ما دمت في**

عصيانك وما دمت تأبى ان تأخذ الخطوة الاولى. بينما انت تتظاهر بأنك رجل ايمان متواضع، انت تصير في حقيقة الامر غير مؤمن متقسيا." ان المجادلة على هذه الصورة خدعة شريرة، وعلامة اكيدة على عدم الايمان، تقود في دورها الى عدم الطاعة. هذا هو عصيان "المؤمنين"، اذ عندما يطلب اليهم ان يطيعوا، يكتفون بان يعترفوا بعدم ايمانهم، ويتركون الامر عند هذا الحد (مرقس ٩:٢٤). **ان كنت تؤمن فاخطُ الخطوة الاولى، وهي تقودك الى يسوع المسيح. وان كنت لا تؤمن، فخذ الخطوة الاولى ايضا، لانك أُمرت ان تأخذها. فلا يريد احد ان يعرف عن ايمانك او عدم ايمانك. انما الاوامر الصادرة لك هي ان تنفذ الطاعة في الحال. عند ذلك تجد نفسك في الظرف الذي يمكن فيه الايمان، بل الظرف الذي يوجد فيه الايمان بأصدق معنى الكلمة.**

هذا الظرف اذن ليس نتيجة طاعتنا، بل هو عطية ذاك الذي يأمرنا بالطاعة. فما لم نستعد ان ندخل في هذا الظرف لا يكون ايماننا حقيقيا، بل نخدع انفسنا. اننا لا نستطيع ان نتجنب هذا الظرف، لان اهتمامنا الاعظم هو الايمان الصحيح بيسوع المسيح. وهدفنا، الان ودائما، هو الايمان، والايمان وحده ("**بايمان لايمان**" **رومية ١:١٧**). فاذا تقدم احد وتحدى هذه النقطة، بغيرة بروتستانتية زائدة، فليسأل نفسه هل هو ينادي بالنعمة الرخيصة؟ والحقيقة هي اننا ما دمنا نتمسك بجانبي هذا القول كليهما معا، لا نجد فيهما شيئا يتناقض مع التعليم القويم، لكن حالما ينفصل احدهما عن الاخر، يصير حجر عثرة. "**اولئك الذين يؤمنون هم وحدهم يطيعون**"، هذا ما نقوله لتلك الناحية التي تطيع من نفس المؤمن، "**اولئك الذين يطيعون هم وحدهم يؤمنون**"، هذا ما نقوله لتلك الناحية التي تؤمن من نفس المطيع. اذا تمسك المؤمن

بالنصف الاول فقط من القول، تعرض لخطر "**النعمة الرخيصة**"، وهي كلمة مرادفة "**للهلاك**". واذا تمسك بالنصف الثاني فقط، تعّرض لخطر "**الخلاص بالاعمال**"، وهي كلمة اخرى مرادفة "**للهلاك**".

يمكننا هنا ان نوجّه بعض الملاحظات الى الرعاة. في التعامل مع النفوس، من الضروري جدا ان يضع الراعي نصب عينيه كلا الجانبين معا لهذا الرأي. فعندما يشكو الناس، مثلا، انهم يجدون الامر صعبا عليهم ان يؤمنوا، فهذه علامة على وجود عصيان متعمد او غير متعمد عندهم. **وما اسهل ان نتغاضى عن هذا العصيان بتقديم علاج النعمة الرخيصة.** وهذا العلاج انما يترك المرض على ما كان عليه من قبل، ويجعل كلمة النعمة نوعًا من العزاء التافه الذي تقدّمه النفس، او الحل الذي تمنحه النفس. انما عندما يحدث هذا، لا يجد الانسان المسكين عزاء في كلمات الغفران لانه قد امسى اصم لكلمة الله. ولو كان يحل نفسه من خطاياه الف مرة، لا يجد فائدة، فانه قد فقد كل طاقة للايمان بالمغفرة الحقيقية، لانه لم يعرفها على حقيقتها قط. ان عدم الايمان يقتات على النعمة الرخيصة، لانه دائب على الاستمرار في العصيان. والرعاة كثيرا ما يصادفون حالات من هذا النوع في هذه الايام. وتكون النتيجة عادة ان الحل الذي تمنحه النفس من تلقاء ذاتها يقوّي الانسان على الاستمرار في عصيانه، وتجعله يشكو من الجهل لاحسان الله ووصية الله. وتجعله يشكو ايضا من ان وصية الله متقلقلة، وخاضعة لتأويلات كثيرة مختلفة. لقد كان في بادئ الامر يُدرك عصيانه، ويعي الى درجة كافية انه لا يطيع، لكنه اذ يتقسى قلبه بشكل متزايد، يضعف ادراكه ووعيه لعصيانه، ويصبح في النهاية مرتبكا واقعا في فخاخ وحبائل يفقد معها كل مقدرة على سماع الكلمة، ويصبح الايمان مستحيلا تمامًا عنده.

ويستطيع الواحد ان يسمعه وهو يقول لراعيه "**لقد فقدت الايمان الذي كان لي مرة.**" فيقول له الراعي "**يجب ان تسمع الكلام الذي نقوله لك في العظة.**" فيجيب الرجل ويقول "**اني اسمع. ولكني لا استطيع ان استفيد منه. انه يقع على اذن صماء عندي.**" يقول له الراعي: "**المصيبة، انك لا تريد حقا ان تسمع.**" فيجيب قائلا: "**على العكس، اني اريد ان اسمع.**" وينتهي الحديث عادة عند هذا الحد، لان الراعي لا يعرف ماذا يقول بعد ذلك، فهو انما يتذكر نصف القول وهو "**اولئك الذين يؤمنون هم وحدهم يطيعون.**" لكن هذا لا يساعد ذلك الانسان بالذات لانه يجد الايمان مستحيلا بالنسبة له. ويشعر الراعي نفسه انه مجابه باللغز النهائي، لغز القدر او التعيين السابق، ويقول في نفسه ان اللّه يمنح الايمان لبعض الناس، ويحرم البعض الاخر من الايمان. وبهذا ينهي الراعي الامر، ويترك الرجل المسكين لقضائه وقدره. الا ان هذه النقطة يجب ان تكون نقطة التحوّل في الحديث. يجب على الراعي ان يكف عن المناقشة والمجادلة عند هذه النقطة، وان يكف عن الاهتمام بصعوباته جديا، فهذه الصعوبات هي في الحقيقة لصالح الرجل نفسه، وهو يحاول فقط ان يخفي نفسه وراءها. هذه النقطة هي اهم لحظة فيها يمسك الراعي بصلب الموضوع ويقول "**اولئك الذين يطيعون هم وحدهم الذين يؤمنون**". هنا يمكن ان يتوقف تدفق الحديث، ويستأنف الراعي كلامه ويقول: "**انت عاص، لا تطيع المسيح. انت تحاول ان تُبقي جزءًا من حياتك غير خاضع لسلطة المسيح. هذا ما يمنعك من الاصغاء للمسيح والايمان بنعمته. انت لا تستطيع ان تسمع للمسيح لانك تَعْصيه عمدًا. يوجد شيء في قلبك يرفض الاصغاء لدعوته.**" هنا يدخل المسيح في الميدان مرة اخرى، ويشتبك مع ابليس الذي كان،

حتى الان، يخفي نفسه تحت شعار النعمة الرخيصة. ومن المهم جدا ان يكون الراعي مستعدا من الناحيتين المتلازمتين في القول الواحد: "**اولئك الذين يطيعون هم وحدهم الذين يؤمنون. واولئك الذين يؤمنون هم وحدهم الذين يطيعون.**" وباسم المسيح يجب ان يُحضّ الرجل على الطاعة والعمل واتخاذ الخطوة الاولى. يجب ان يقول له: "**انتزع نفسك من كل الارتباطات الاخرى واتبعه.**" لان الخطوة الاولى هي اهم شيء في هذه المرحلة. ان النقطة المهمة التي ظل يشغلها الخاطئ المتمرد العنيد الى الان يجب ان تُهاجَم بعنف، و يجب ان يُسحب الخامل الكسول من مخبئه. بهذا فقط يقدر هذا الخاطئ المتمرد الكسول ان يستعيد حريته في ان يبصر ويسمع ويؤمن. **ومع ان الخطوة الاولى التي يتخذها، هي خطوة عملية، الا انها لا تنطوي على استحقاق ذاتي في نظر المسيح، ولا يمكن اعتبارها سوي عمل من الاعمال الميتة. ومع هذا كان على بطرس ان يخرج من السفينة حتى يتسطيع ان يؤمن.**

وبالاختصار هذا هو الموقف. ان الخاطئ الذي نتعامل معه قد خدّر نفسه بالنعمة الرخيصة، النعمة السهلة، بقبوله الفكرة التي تقول ان اولئك الذين يؤمنون هم وحدهم الذين يستطيعون الطاعة. وهو يتمادى في عصيانه، ويسعى الى تعزية نفسه بحل نفسه بنفسه. وهذا يؤدي به الى ان يصم اذنيه عن كلمة الله. **اننا لا نستطيع ان نهاجم حصنه بنجاح، ما دمنا نكتفي بترديد الفكر الذي يهيئ له الدفاع عن نفسه.** لهذا ينبغي ان نهيئ له نقطة تحوّل، بدون اضاعة وقت اكثر بلا جدوى، ونحضه على الطاعة. فان اولئك الذين يطيعون هم وحدهم الذين يستطيعون الايمان.

هل هذا يضله، ويشجعه على الثقة في اعماله؟ حاشا. بل، على العكس من ذلك، سيدرك بسهولة اكثر ان ايمانه لم يكن ايمانا صادقا اطلاقا.

وسيخلص مما تعلق به من قبل وعاقه، اذا ما اضطر ان يتخذ قرارا معينا وتصميما محدودا. وبهذا تفتح اذناه مرة اخرى لدعوة يسوع للايمان والاتّباع.

هذا يأتي بنا الى قصة الشاب الغني:

"وإذَا واحدٌ تقدَّم وقال لهُ: أيُّها المُعلِّم الصَّالح، أيّ صلاح أعمَلُ لتَكُون لي الحيَاة الأبديَّة؟ فقال لهُ: لمَاذَا تدْعُوني صالحًا؟ ليْسَ أحَدٌ صالحا إلاّ واحدٌ وهوَ الله. ولكنْ إنْ أردْتَ أنْ تَدخُل الحيَاة فاحْفظ الوَصايا. قال لهُ: أيَّة الوَصايا؟ فقال يسُوع: لا تَقتُل. لا تزْن. لا تسْرق. لا تَشهَد بالزُّور. أكرمْ أبَاك وأُمَّك، وأَحبَّ قريبك كنفْسك. قال لهُ الشَّاب: هذه كلُّها حفظْتهَا منْذ حدَاثَتي. فمَاذا يعْوزُني بعْد؟ قال لهُ يسُوع: إنْ أرَدْت أنْ تكُون كاملاً فاذْهَب وَبعْ أمْلاكَك وأَعط الفُقراء، فيكُون لكَ كنزٌ في السَّماء، وتَعال اتبَعْني. فلمَّا سمعَ الشَّاب الكَلمَةَ مضَى حزينًا، لأنَّه كانَ ذا أموَال كثيرَة." (متى ١٩: ١٦-٢٢).

ان سؤال الشاب عن الحياة الابدية هو سؤال عن الخلاص، وهو السؤال الاساسي الخطير في العالم. وليس من السهل صياغة هذا السؤال في التعبير الصحيح. ويبدو ذلك من الطريقة التي يظهر جليا ان الشاب اراد ان يصوغ سؤاله بها، واذا به يسأل فعلا سؤالا آخر. وهو اذ يفعل هذا يتجنب المشكلة الحقيقية، لانه يوجه سؤاله الى "المعلم الصالح". فهو اذن يريد ان يسمع راي "المعلم الصالح"، ويقبل نصيحته. يريد مشورة المعلم الصالح في مشكلة معينة. وهو بهذا يكشف عن خطأين. **الاول**: انه يشعر ان هذا سؤال هامّ، لدرجة ان يسوع يجب ان يكون لديه شيء خطير يقوله عن هذا السؤال. **والثاني**: انه ينتظر من **"المعلم الصالح"**، المعلم العظيم،

نطقا جليلا خطيرا، لكنه لا ينتظر بالتاكيد توجيها من الله، يدعوه بكيفية جازمة الى طاعته. ان الحياة الابدية عنده مشكلة علمية، تستحق البحث والدرس مع "**معلم صالح**". لذلك لا نعجب ان شكّلت اول عبارة قالها له يسوع صدمة قاسية له: "**لماذا تدعوني صالحا؟ ليس احد صالحا الا واحد وهو الله.**" **ها هو الان بدأ يدرك انه لا يتكلم مع معلم صالح بل مع الله نفسه**، ولهذا فالجواب الوحيد الذي يتلقاه من ابن الله هو توجيه صريح صحيح الى وصية الله الواحد. ان المسيح لم يعطه جواب "**معلم صالح**"، أي رأيا شخصيا يضاف الى ارادة الله المعلنة. ويكشفه المسيح كشاب يحاول ان يتجنب ارادة الله المعلنة، التي كان كل الوقت يعلمها من قبل. لماذا اذن يتظاهر بأنه كان يجهل الجواب زمنا طويلا؟ لماذا يتهم الله بانه تركه طوال هذه المدة يجهل هذه المشكلة الاساسية في الحياة؟ **ها نحن اذن نرى الشاب يُمْسَك ويُقاد الى كرسي دينونة الله. نرى المسيح يتحداه ان يترك السؤال العلمي، ويذكّره بضرورة الطاعة البسيطة الصريحة لارادة الله المعلنة.**

مرة اخرى يحاول الشاب ان يتخلص من المشكلة بتوجيه سؤال آخر: "اية الوصايا"؟ ان الشيطان نفسه يكمن وراء هذا السؤال. لقد رأى الشاب انه قد وقع في الفخ، فحاول ان يتخلص من الفخ بهذا السؤال. كان بالطبع يعرف الوصايا. ومرة اخرى يوجه كل اهتمامه الى نفسه والى مشاكله الروحية. ولكنه يُغفل وصية الله الصريحة الواضحة في سبيل اهتمامه البشري المحض بصعوباته الاخلاقية الخاصة. ولم تكن غلطته في ادراكه تلك الصعوبات، بل كانت في محاولته اظهارها بشكل ضد وصايا الله. وكان الغرض الاساسي لهذه الوصايا في الحقيقة، هو حل هذه المشاكل. لقد حوّل يسوع نظر الشاب عن نفسه الى الله، الذي هو وحده صالح.

وفي هذا اثبت المسيح انه ابن الله الكامل في الطاعة. ان الصعوبات الاخلاقية كانت اول نتائج السقوط، وهي ذاتها نتيجة "**الانسان المتمرد**" على الله. ولقد وضعت الحية في الجنة هذه الصعوبات الاخلاقية في فكر الانسان عندما سألته: "**أحقا قال الله؟**" الى ذلك الوقت كانت وصية الله تبدو للانسان واضحة كل الوضوح، وكان الانسان يتممها بطاعة تامة كالطفل. لكن هذا انتهى، ودخلت الى عقل الانسان الشكوك والصعوبات الاخلاقية. واقترحت الحية ان وصية الله في حاجه الى ايضاح وتفسير. "**أحقا قال الله؟**". كأنها تقول ان الانسان يجب ان يقرر لنفسه ما هو خير، وان يستعمل ضميره في معرفة الخير والشر، وان الوصية يمكن ان تفسر بطرق مختلفة، وان ارادة الله هي ان تفسر الوصية وتوضّح، لان الله اعطى الانسان ارادة حرة ان يقرر ما يشاء.

لكن هذا يعني العصيان من البداية. **وها هو الشك والتردد يأخذان مكان الطاعة الفورية**. والرجل الراشد يفاخر بحرية ضميره ويتباهى على الطفل الذي يطيع فوريا. لكنه قد نال حرية التمتع بالمتاعب الاخلاقية، على حساب الطاعة. وكان هذا بالاختصار تراجعا عن حقيقة الله الى تخمينات الانسان، ومن الايمان الى الشك. وسؤال الشاب الغني يظهره على حقيقته، كانسان تحت الخطية. وقد كشفه بالاكثر وفضحه جواب يسوع تماما. ان يسوع اقتبس فقط وصايا الله كما اعلنت في الكتاب المقدس. وبهذا اعاد التأكيد مرة اخرى انها وصايا الله. وقد وقع الشاب في الفخ مرة اخرى. كان يرجو ان ينجو من ان يلزم نفسه بأي التزام ادبي محدود، و ذلك بأن يُلزم يسوع ان يبحث معه مشاكله الروحية. كان يرجو ان يقدم له يسوع حلا لصعوباته الاخلاقية. لكنه وجد المسيح يهاجمه هو شخصيا، عوضا عن ان يجابه سؤاله. والجواب الوحيد الذي قدمه المسيح

لسؤاله وصعوباته، هو وصية الله نفسها الوصية التي تتحداه ان يتخلى عن بحثه العلمي، وان يقوم بواجب الطاعة. **لا جواب عند احد لصعوباتنا الاخلاقية، سوى الشيطان الذي يقول لنا:** "**داوم على وضع الاسئلة المحّيرة والمشاكل العويصة، وانت تنجو من ضرورة الطاعة.**" لكن يسوع لم يهتم بمشاكل الشاب، بل اهتم بالشاب نفسه. وقد رفض ان يهتم بهذه الصعوبات اهتمام الشاب بها. وليس امام المسيح سوى امر جدّي واحد، وها قد حان الوقت للشاب ان يبدأ بسماع وصية الله واطاعتها. اما كل صعوباته فهي شريرة وطائشة، وهي برهان على عصيانه الواضح. اي ان الشيء الواحد المهم هو الطاعة العملية التي تحل مشاكله وتجعله ونحن جميعا احرارا في ان نصير اولاد الله. هذا هو وصف الله لصعوبات الانسان الاخلاقية.

لقد اتى المسيح بالشاب الغني وجها لوجه مع حق كلمة الله مرتين، فلم يبق له مجال للتهرب من وصية الله. وواضح كل الوضوح انه لم يبق امامه سوى اطاعتها. لكنه لا يزال غير راض ولا قانع بذلك، فتراه يقول، "هذه كلها حفظتها منذ حداثتي فماذا يعوزني بعد؟" ولا شك انه كان مقتنعا باخلاصه هذه المرة، كما كان من قبل. لكن تحديه للمسيح هنا بلغ اقصاه. فهو يعرف الوصايا، وقد حفظها، والان اصبح يظن ان ذلك لا يمكن ان يكون كل ما يطلبه الله منه. بل لابد من شيء آخر، شيء فريد وخارق، وذلك هو ما يريد ان يتممه. كأنه يقول ان وصية الله المعلنة ناقصة، وها هو يقوم باخر محاولة للاحتفاظ باستقلاله، وليقرر بنفسه ما هو الخير وما هو الشر. هو يثبّت الوصية من ناحية، ولكنه من الناحية الاخرى يوجه اليها اشد الهجوم، اذ قال "هذه كلها حفظتها منذ حداثتي" ويضيف البشير مرقس عند هذه النقطة القول، "فَنَظرَ إليْه يسُوع وأحبَّه"

(مرقس ١٠:٢١). ان يسوع يرى كيف اغلق هذا الشاب عقله حتى لا يقبل كلمة الله الحية، و كيف فعل ذلك بكل جد ونشاط وغيرة، وكيف ثار بكل قلبه ضد الوصية الحية وواجب الطاعة الفورية لها. واراد يسوع ان يساعد هذا الشاب لانه احبه. لذلك قدم له عندئذ كلمته الاخيرة: "**ان اردت ان تكون كاملا فاذهب وبع املاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني.**" **نلاحظ هنا ثلاث نقاط.**

اولا: ان يسوع هو الذي يقدم الوصية بنفسه. يسوع نفسه الذي حوّل اولا فكر الشاب الغني عن المعلم الى الله الذي هو وحده صالح، نراه الان يقدم دعواه وسلطانه الالهي ويقول الكلمة الاخيرة. لا بد للشاب ان يدرك انه يقف وجها لوجه امام الله نفسه. فهو كابن الله، ولو لم يعرف الشاب ذلك، حوّل فكر الشاب عن الابن الى الاب، الذي كان هو معه في وحدة تامة. والان مرة اخرى نرى يسوع كالابن ينطق بوصية الله نفسه. كان يسوع يرى انه يجعل الوصية واضحة بكل جلاء في اللحظة التي يدعو فيها الشاب لاتباعه. **وهذا هو مجمل كل الوصايا، ان نحيا في شركة مع المسيح.** وها هو المسيح يتحدى الشاب بدعوته، فلا يستطيع الشاب ان يتهرب ويحتمي في عالم صعوباته الاخلاقية الصغيرة. ان الوصية صريحة ومباشرة ومستقيمة – "**اتبعني**".

ثانيا: قد يساء فهم هذه الوصية، ولذلك يلزم ايضاحها. كان الشاب معرضا ان يقع في غلطته الاصلية الاولى، ويعتبر الوصية فرصة لمجازفة اخلاقية، ولطريقة رائعة في الحياة، لكنها طريقة يمكن هجرها اذا دعت الحاجه الى ذلك. وكان من الخطا البيّن ان يعتبر الشاب الاتّباع نتيجة منطقية لبحثه عن الحق الذي كان يسعى اليه، بل ان يعتبرها اضافة، او توضيحا او تكميلا لحياته العتيقة. فاراد يسوع ان يجنّب الشاب كل سوء

فهم لدعوته، ولذلك خلق موقفا لا يمكن فيه الرجوع ولا التقهقر. فأمره ان يختار فقرا طوعيا. هذا هو الجانب "**الوجودي**"، الجانب الرعوي للمشكلة. وهو يهدف الى ان يمكّن الشاب من الوصول الى الفهم الكامل للطريق الحقيقي للطاعة. وهو طريق نابع من محبة يسوع للشاب، ويمثل الصلة الوحيدة بين الحياة العتيقة والحياة الجديدة. انما يجب ان نلاحظ ان تلك الصلة ليست هي الحياة الجديدة نفسها، ولا هي الخطوة الاولى في الاتجاه الصحيح، ولو ان عمل الطاعة تمهيد ضروري. فان الشاب كان عليه ان يذهب اولا ويبيع كل ما له ويعطي للفقراء، ثم يأتي ويتبع. **ان الاتّباع هو الغاية، اما الفقر الطوعي فهو الوسيلة.**

ثالثا: يجب ان نلاحظ انه عندما يسأل الشاب "**ماذا يعوزني بعد؟**" يجيب يسوع "**ان أردت ان تكون كاملا...**" وقد يبدو لاول وهلة ان يسوع يفكر في اضافة شيء جديد الى حياة الشاب السابقة. **لكنها في الحقيقة اضافة تتطلب ترك كل تعلق سابق وكل ارتباط قديم.** لقد كان الكمال الى الان بعيد المنال. وكان فهمه للوصية وممارسته لها مشوبين بالنقص والقصور. انما صار له الان، والان فقط، باتباعه المسيح، ان يفهم الوصية ويمارسها بشكل صائب سليم. وتيسَّرت له هذه الفرصة الان، لان يسوع المسيح هو الذي يدعو. لقد سأل عن طريق الحياة الابدية، فاجابه يسوع: "**انا ادعوك، وهذا كل شيء.**"

ان الجواب لمشكلة الشاب هو يسوع المسيح. كان الشاب يرجو ان يسمع كلمة المعلم الصالح، لكنه الان ادرك ان هذه الكلمة هي الانسان نفسه الذي يوجه اليه سؤاله. وهو يقف وجها لوجه امام يسوع ابن الله. وهذه هي المقابلة النهائية الفاصلة. وصارت المسأله الان: نعم او لا، طاعة او عصيان. لقد اجاب بالنفي، وقال لا، فمضى حزينا، خائبا، وتبددت كل

احلامه، لانه لم يستطع ان يقطع صلته بماضيه. كان ذا اموال كثيرة. كانت الدعوة تعني له، كما كانت تعني من قبل، الالتصاق بشخص يسوع المسيح، والشركة معه. **ان حياة الاتّباع ليست عبادة بطولة نقدمها لمعلم صالح، بل طاعة لابن الله.**

ان قصة الشاب الغني اشبه بمقدمة مثل السامري الصالح. "**وإذَا نامُوسِيٌّ قام يُجرّبه قائلاً: يا مُعلّم، ماذَا أعمَلُ لأرثَ الحَياةَ الأبديَّة؟ فقال لَهُ: ما هو مكْتوبٌ في النَّاموس. كيْف تقرأُ؟ فَأجَاب وقَالَ: تحبُّ الرَّب إلهَك من كلِّ قَلبكَ، ومن كلّ نفسك، ومن كلّ قُدرتكَ، ومن كلِّ فكْركَ، وقَريبَك مثلَ نفسكَ. فقال لهُ: بالصَّواب أجبتَ. افعَل هذا فتَحيَا. وأمَّا هو فإذْ أرادَ أنْ يبَرّر نفسه، قال ليسُوع: ومنْ هو قَريبي؟**" **(لوقا ١٠: ٢٥-٢٩).**

ان سؤال الناموسي هو نفس سؤال الشاب الغني. والفرق الوحيد هو اننا في حالة الناموسي نقرأ صريحا انه اراد ان يجرب يسوع. لقد عرف الناموسي طريقه، وصمم في فكره على حل لمشكلته، لكنه اراد ان يضع يسوع في مأزق ضيق يتعلق بمشكلاته وشكوكه الاخلاقية. وقد اجابه يسوع تقريبا بنفس الكلام الذي اجاب الشاب الغني، لان سؤال الناموسي كان مثل سؤال الشاب الغني، يكشف عن رغبة في تجنب اطاعة وصية الله. فكان الجواب الوحيد الذي اعطاه المسيح له: "انت تعرف واجبك من قبل. افعله فتحيا".

وقد رأى الناموسي انه خسر الجولة الاولى، فحاول محاولة اخرى. وفعل كما فعل الشاب الغني، فأراد ان يتهرب من واجبه باثارة صعوباته الاخلاقية وسأل"من هو قريبي؟" كم سال الناس هذا السؤال، منذ

ذلك الحين، وسأله الكثيرون بحسن ايمان مقرون بجهل حقيقي. انه سؤال معقول سليم، وكل باحث غيور على الحق يمكن ان يسأله. غير ان الناموسي لم يسأله بهذا الشكل. **لكن يسوع صد السؤال كتجربة من الشيطان يجب ان يتجنبها**، وهذه في الحقيقة هي النقطة التي يتلخّص فيها مثل السامري الصالح بجملته. وهو سؤال من النوع الذي يمكن ان تظل تسأله دون ان تتلقى جوابا. وهو سؤال نابع من منازعات أناس فسدت أذهانهم وعميت أبصارهم عن الحق ولا ينتج منه سوى "**الحسَد والْخصَام والافتِرَاءُ والظنُون الرَّديَّة**" (**١ تيموثاوس ٦:٤**). هو سؤال أناس اشبه باولئك النساء اللواتي "**يتعلَّمنَ في كلِّ حينٍ، ولا يسْتطعْن أنْ يقبلْن إلى معْرفة الحَقّ أبَدًا**" (**٢ تيموثاوس ٣:٧**)، اناس "**لهُم صُورة التَّقوى، ولكنَّهمْ مُنكرُون قوَّتها**" (**٢ تيموثاوس ٣:٥**). هم لا يستطيعون ان يؤمنوا، ويظلون يسألون هذا السؤال "**في ريَاء أقْوَال كاذبة، موسُومةً ضمَائرهمْ**" (**١ تيموثاوس ٤:٢**) لانهم يرفضون ان يطيعوا كلمة الله. من هو قريبي؟ هل من جواب لهذا السؤال؟ هل هو قريبي؟ هل هو مواطني؟ هل هو اخي المسيحي؟ ام هو عدوي؟ يوجد شيء من الحقيقة والبهتان في كل جواب من هذه الاجوبة .. هذا السؤال بجملته يقودنا الى الشك والعصيان، وهو تمرد صريح على وصية الله. كأن الانسان يقول: "**بالطبع انا اريد ان افعل اراداته، لكنه لا يخبرني كيف اقوم بذلك. ان الوصية لا تقدم لي توجيها واضحا. ولا تعمل اي شيء يحل مشاكلي**". **ان السؤال الذي القاه الناموسي "ماذا افعل؟" كان اول محاولة لذر الرماد في العيون وفي عيني صاحبه بالذات.** و كان جواب المسيح "انت تعرف الوصايا. اليس كذلك؟ فمارسها اذن عمليا، ولا تضيّع مجهودك في الاسئلة. تمم العمل". وكان سؤاله الاخير "من هو قريبي؟" اخر سهم

اطلقه يائسا (او وهو واثق من نفسه)، "انت هو القريب. فاذهب وجرب ان تكون مطيعا، وذلك بمحبتك للاخرين." **ان القرابة ليست صفة في الاخرين. انها فقط مطلبهم منا وحقهم علينا.** هناك ما يتحدانا للعمل والطاعة في كل لحظة وفي كل ظرف. وليس لنا وقت عمليا وحرفيا فيه نجلس ونسأل انفسنا: هل فلان قريبي ام لا؟ بل علينا ان نعمل وان نطيع. **علينا ان نتصرف كقريب لهذا وذاك.** قد يكون في هذا القول ما يصدمك. ربما لا تزال تفكر انه يجب عليك ان تفكر مقدما وتعرف ما يجب ان تفعل. هناك جواب واحد لذلك: انك تستطيع ان تعرف وان تفكر، وذلك بان تفعل وتتمم الامر عمليا. **فانت تستطيع ان تتعلم الطاعة بطريقة واحدة، وهي ان تطيع. فلا فائدة من القاء الاسئلة، لان الطريق الوحيد لمعرفة الحق هو طريق الطاعة.**

ان المسيح، وهو يعلم ان ضمائرنا مشتتة بالخطية، يجابهنا ويتحدانا بوجوب الطاعة الفورية. وبينما نرى الشاب الغني يُدعى الى نعمة الاتّباع، نرى الناموسي، الذي اراد ان يجرب المسيح، يرده المسيح الى الوصية "اذهب انت واصنع هكذا".



الفصل الثالث

طاعَة تامة

لما دعا يسوع الشاب الغني وتحدّاه ان يقبل حياة الفقر طائعا مختارا، عرف الشاب انه ليس امامه الا ان يختار اما الطاعة او العصيان. ولما دعا لاوي من مكان الجباية وبطرس من شباك الصيد لم يكن عند اي منهما شك في ان المسيح يعني امراً جدياً خطيراً. فكان على كل منهما ان يترك كل شيء ويتبعه. وفي مرة اخرى عندما دعا المسيح بطرس ان يمشي على الماء الهائج، كان عليه ان يتقدم ويخاطر بحياته. **كان المطلوب من كل منهم امرا واحدا فقط، وهو ان يتكلوا على كلمة المسيح، ويتمسكوا بها، واثقين انها تقدم ضمانا اعظم من كل ضمان في العالم.** وكانت القوات التي تحاول ان تزج بنفسها بين كلمة المسيح وبين استجابة الطاعة لها، هائلة وفظيعة في ذلك الوقت كما هي الان. فقد كان العقل والضمير، والمسؤولية والتدين، كانت كلها تقف حائلا دون الطاعة. بل الشريعة نفسها "والسلطة الكتابية" كانتا في حد ذاتهما عقبات، تظاهرت كأنها سياج يحرسها من طرفي النقيضين، طرف عدم الناموس، وطرف التحمس له. لكن دعوة يسوع تخطت كل هذه الحواجز، وخلقت منها سبيلا للطاعة. ولا عجب فان تلك الدعوة كانت كلمة الله نفسه، وكل ما كانت تتطلبه هو الطاعة التامة المخلصة.

ان كنا في هذه الايام نسمع يسوع يكلمنا بهذه الطريقة. ونحن نقرأ الكتاب المقدس، ترانا غالبا نحاور انفسنا ونحاول ان نصدها عن الطاعة

بقول كهذا: "صحيح ان مطلب يسوع محدد بصورة كافية، لكن علينا ان نذكر انه لا ينتظر منا مطلقا ان ننفذ اوامره حرفيا. ما يطلبه مني حقا هو ان يكون لي ايمان، لكن ايماني لا يرتبط بالضرورة بالغنى او الفقر من اى نوع كان. فقد يكون لنا الفقر والغنى في الروح معا. وليس مهمّاً ان اكون مُعدَماً مجردا عن المال او الممتلكات، لكن ان كان عندى مال او ممتلكات، فيجب ان احتفظ بها كما لو لم يكن عندي شيء منها. بمعنى آخر يجب ان اربي في نفسي روح الاعتزال الداخلي، بحيث لا يكون قلبي في ما امتلك". كأننا بذلك نقول ان يسوع عندما قال "بع املاكك" كان يقصد ان يقول "لا تهتم بان يكون لك اموال وممتلكات ورخاء خارجي، بل احتفظ باملاكك بطريقة هادئة داخليا، وامتلكها كما لو كنت لا تملكها. لا تجعل قلبك في املاكك." **نحن بذلك نعتذر عن الطاعة التامة الخالصة لامر يسوع متذرّعين بالطقسية والشرعية والافضلية المزعومة لطاعة في الايمان.** والفرق بيننا وبين الشاب الغني انه لم يسمح لنفسه ان يخفف من حزنه بالقول: "ما لي وما يقوله يسوع، فاني استطيع ان احتفظ بغناي، انما بروح الاعتزال الداخلي. وبالرغم من عدم اهليتي وعدم كفاءتي، فاني اجد عزائي في الفكر بان الله غفر لي خطاياى، واستطيع ان اتمتع بشركة المسيح بالايمان". لكنه لم يفعل ذلك، بل مضى حزينا. ولانه لم يرضَ ان يطيع، لم يستطع ان يؤمن. وقد كان الشاب مخلصا في ذلك وصادقا جدا. ومضى بعيدا عن يسوع، **وفي الحقيقة ان صراحته في رفض الاتّباع افضل من ادعاء الاتباع المقرون بالعصيان.**

ولقد ادرك يسوع ان سر البلاء في هذا الشاب **كان عجزه ان يحيا حياة الاعتزال الداخلي عن الغنى.** لقد كان يطلب الكمال ويسعى اليه بكل نشاط وغيرة، وحاول على الأرجح الف مرة ومرة، وقد اخفق فيها

جميعا، كما ظهر من رفضه ان يطيع كلمة يسوع لما جاء الوقت الذى كان عليه فيه ان يتخذ قراراً. هنا فقط كان الشاب صادقا كل الصدق. لكن نحن في سفسطتنا نختلف اختلافا تاما عن اولئك الذين سمعوا كلمة يسوع، الذين يتكلم عنهم الكتاب المقدس. **لو قال يسوع لاحدهم "اترك كل شيء واتبعني. اترك وظيفتك، وعائلتك، وشعبك، وبيت آبائك" لعرف انه لا يوجد لهذه الدعوة الا جواب واحد- وهو جواب الطاعة التامة المخلصة**. والوعد بالشركة مع يسوع انما يُعطى لهذه الطاعة التامة المخلصة. لكن لو كنا مكان ذلك الشاب، كنا على الارجح نناقش انفسنا ونحاورها على هذا النحو: "طبعا يطلب منا ان نأخذ دعوة يسوع بمنتهى "**الجد الصارم**" لكن الطريق الوحيد للطاعة، هو ان نستمر في اعمالنا الحاضرة، وان نبقى مع عائلاتنا، وان نخدمه بروح الاعتزال الداخلي الحقيقي. كأنما يسوع عندما يتحدانا بأمره قائلا "اخرجوا منها" يعني ان يقول "ابقوا حيث انتم، انما تدربوا على الاعتزال الداخلي." وايضا عندما يقول لنا "لا تهتموا، لا تقلقوا" فهو يعني ان يقول "طبعا من الخطأ ان نهتم وان نقلق. ولكن علينا ان نعمل لنعول انفسنا وعائلاتنا، فاذا لم نقم بذلك نتخلى عن مسؤولياتنا. ولكن علينا ان نتحرر في كل حين من كل قلق". كان المسيح يريد ان يقول لنا "من ضربك على خدك الايمن فحول له الاخر ايضا" ونحن نظن انه كان يريد ان يقول: "ان السبيل الذى به تحب عدوك حقا هو ان تحاربه بقوة، وترد له الضربة بمثلها". كان يسوع يقول: "اطلبوا اولا ملكوت الله" ونحن نفسرها فنقول "نحن بالطبع نطلب كل شيء آخر اولا، والا فكيف نعيش؟ واما ما قصده المسيح حقا فهو ان نكون مستعدين في النهاية ان نخاطر بكل شيء في سبيل ملكوت الله". **وهكذا نجد انفسنا نحاول على طول الخط ان نجنّب انفسنا الطاعة التامة المخلصة.**

ما هذه السخرية؟ ماذا حدث حتى تحقّر كلمة يسوع هذا التحقير، وينظر اليها بهذه التفاهة والاستهانة، وتترك لهزء العالم وسخريته؟ عندما تصدر الاوامر في شتى نواحي الحياة لا يخامرنا شك في معناها. فاذا امر الاب ابنه ان ينام، يعرف الولد في الحال ما يعنيه امر الاب. لكن لو افترضنا ان الولد اخذ يجادل اباه على نمط التعليم اللاهوتي المزيف، كأن يقول له شيئا كهذا: "ان ابي يقول لي ان اذهب وانام، لكنه في الحقيقة يعني اني متعب. وهو لا يريدني ان اكون متعبا، لذلك سأحاول ان اتغلب على تعبي بطريقة اخرى، فسأذهب والعب. ومع ان ابي يقول لي اذهب ونم، فهو في الحقيقة يقصد ان يقول لي اذهب والعب". لو جادل ابنٌ اباه، او مواطنٌ حكومَتَهُ، على هذه الصورة، لوجد كل منهما جوابا لن ينساه او يجهل معناه. ذلك الجواب هو العقاب. فهل نعامل وصايا يسوع واوامره بصورة تختلف عن كل ما تتطلبه الاوامر الاخرى من طاعة تامة مُخلِصة، ونحوّلها الى عصيان صريح؟ كيف يمكن ان يكون ذلك؟

ذلك ممكن لانه يوجد عنصر من الحقيقة تنطوي عليه هذه السفسطة. **عندما يدعو يسوع الشاب ان يدخل الى ظرف يتيسر فيه الايمان، يفعل ذلك لغرض واحد فقط، وهو ان يجعل لذلك الانسان ايمانا فيه، أي انه يدعوه للشركة معه. والشيء المهم في النهاية ليس ما يفعله الانسان، بل ايمانه بيسوع المسيح ابن الله والوسيط الوحيد. وفي كل الاحوال والظروف، يتوقف الامر لا على فقر الانسان او غناه، ولا على زواجه او عزوبيته، ولا على مهنته او عدمها، بل يتوقف الامر على الايمان وحده.** اذن نحن على صواب الى هذا الحد. فمن الميسور ان يملك الانسان ثروة واملاكا من متاع هذا العالم، ويكون مؤمناً بالمسيح، بحيث يملك هذه الاشياء ويكون كمن لا يملكها. انما هذه هي امكانية

المسيحية في حالتها النهائية المطلقة، في حالة انتظارنا بشوق ولهفة مجيء المسيح سريعا. وتلك ليست ابسط امكانية ولا اول امكانية للحياة المسيحية باى حال. **وفهم وصايا يسوع فهما مجازيا له ما يبرره في الاختبار المسيحي، ولكن يجب ألاّ يؤدّي مطلقا الى تجريد هذه الوصايا من معناها الحرفي. ولا يحق لأحد ان يلجأ الى المعنى المجازي ما لم يطبّق اولا المعنى الحرفي**، اي لا يحق ذلك الا لمن يحيا مع المسيح كتلميذ له. وهذا اصعب بما لا يقاس، بل يكاد يكون مستحيلا بحسب البشر، فهو لذلك اعسر من تفسير دعوة يسوع بصورة مجازية. والعنصر المجازي هو الذى يعرّض دعوته للخطر الدائم، خطر انقلابها الى ضدها، ويجعل منها سبيلا للتنصل من واجب الطاعة العملية المجسمة. فكل شخص لا يشعر انه يكون اسعد جدا لو أتيح له فقط بان يفهم وصايا يسوع ويطيعها طاعة تامة سريعة حرفية، اى ان يسلم كل امواله واملاكه طوعا لامره، بدلا من التعلق والتمسك بها، كل شخص لا يشعر بذلك فلا حق له في ان يقدم هذا التفسير المجازي. وعلينا ان نتمسك بالامرين معا دائما وابدا.

لدعوة يسوع الحقيقية، واطاعتها طاعة تامة مخلصة، اهمية. فانه بها يدعو الناس الى موقف فعلي يتيسر فيه الايمان. لهذا السبب فان دعوته دعوة فعلية، وهو يريدها ان تُفهم، لانه يعلم **انه عن طريق الطاعة الفعلية وحدها يستطيع الانسان ان يتحرر ليؤمن.**

ان عدم اطاعة المسيح طاعة حرفية بسيطة، بناء على سبب مبدئي، هو ناحية اخرى من نواحي تحريف "**النعمة المكلفة**" لدعوة يسوع وتحويلها الى "**نعمة رخيصة**"، هي نعمة تبرير النفس. تلك النعمة الرخيصة التي يتم بها وضع شريعة كاذبة تصم آذان النفس عن دعوة يسوع العملية المجسّمة. وهذه الشريعة الكاذبة هي شريعة العالم التي تناقض شريعة

النعمة وتناهضها. و"العالم" هنا لا يعني العالم الذى انتصر عليه المسيح، والذى تتم النصرة عليه مجددا كل يوم بالشركة مع المسيح، بل يعني العالم وقد تقسى جدا وتحجر فصار مبدأ شرعيا. وعندما يحدث هذا، لا تبقى النعمة عطية الله الحي التي بها ننجو من العالم ونوضع في موضع الطاعة للمسيح، بل تكون بالاحرى شريعة عامة ومبدأ إلهيا لا يحتاج الا الى التطبيق على حالات خاصة. ونحن اذ نبدأ نكافح ونجاهد ضد ناموسية الطاعة البسيطة، نجد انفسنا في النهاية قد وضعنا اخطر ناموس، ناموس العالم وناموس النعمة. فاذ نحاول ان نكافح الناموسية او الشرعية، نضع انفسنا في اردى نوع من الشرعية. ولا سبيل للانتصار على هذه الشرعية الا بالطاعة الحقيقية للمسيح، فعندما يدعو نتبعه. لان في المسيح وحده تتم الشريعة وتبطل دفعة واحدة.

اذا حذفنا الطاعة الحرفية البسيطة في سبيل مبدأ تعليمي، ننحرف بذلك الى تفسير الكتاب المقدس تفسيرا غير انجيلي. فاننا بذلك نفتح الكتاب المقدس مفترضين ان بيدنا المفتاح لتفسيره. لكن المفتاح الذى نستخدمه ليس المسيح الحي، الديان والمخلص، واستخدامنا لهذا المفتاح لم يعد يتوقف فقط على ارادة الروح القدس الحي، بل نستخدم مفتاح تعليم النعمة العامة الذى نطبقه كما نشاء. وعند ذلك تضاف الى مشكلة اتّباع المسيح مشكلة تفسير وتأويل. وان كان تفسيرنا انجيليا حقيقيا ادركنا اننا لا نستطيع ان نضع انفسنا تماما في صف الذين دعاهم يسوع، لانهم هم انفسهم جزء لا يتجزأ من كلمة الله في الكتاب المقدس، وهم لذلك جزء من الرسالة. فنسمع ليس الجواب الذى وجهه يسوع الى الشاب بل سؤال الشاب ايضا وهو سؤالنا نحن. وكلا السؤال والجواب جزء من الكتاب المقدس، وجزء من الرسالة. وكذلك تعتبر الطاعة الحرفية

البسيطة تفسيرا مخطئا ان كنا نتصرف في اتباعنا كما لو كنا معاصرين للناس الذين دعاهم يسوع. **اما المسيح الذى تعلنه الكتب المقدسة فهو في كل الكتاب شخص يمنح ايمانا للذين يطيعونه طاعة حرفية بسيطة، دون سواهم.** والذين يفسرون الكتاب المقدس بموجب مبدأ تعليمي، ولو كان مبدأ النعمة، انما يجعلون الكتاب المقدس ناموسا جديدا يستعيضون به عن المسيح الذى يدعونا الكتاب المقدس لاتباعه.

علينا اذن ان نحترس ان يكون كل تفسير مجازى لوصايا يسوع يشتمل دائما على التفسير الحرفي، لسبب واحد وهو ان غرضنا ليس وضع شريعة بل ان ننادي بالمسيح. بقيت كلمة اخيرة لابد من ذكرها هنا، وهي كلمة خاصة بالشكوك التي تساور البعض بان الطاعة البسيطة الحرفية تنطوى على استحقاق بشري، اذ انها تشدد على شروط مبدئية تمهيدية قبل ان يصبح الايمان ميسورا. **والحقيقة هي ان الطاعة لدعوة يسوع ليست في قوتنا الذاتية.** فمثلا ان اعطينا كل اموالنا، فهذا العمل ليس في حد ذاته الطاعة التي يتطلبها المسيح. بل قد تكون هذه الخطوة في الحقيقة وواقع الامر، ضدا نقيضا لاطاعة يسوع، لاننا قد نختار بها طريقا للحياة خاصا بانفسنا، او مثلا مسيحيا اعلى يستهوينا، او نوعا من الزهد والفقر. **وفي الحقيقة يستطيع الانسان، في نفس عملية اعطاء امواله، ان يقدم ولاءه لنفسه او لمثل اعلى، وليس لامر يسوع. لا يكون الانسان بذلك قد تحرّر من نفسه بل اصبح اكثر استعبادا لها.** والخطوة الى الموقف الذى يصبح فيه الايمان ميسورا ليست تقدمة منا نمنحها نحن ليسوع، بل هي تقدمة كريمة من يسوع يمنحها هو لنا. ولا تكون هذه الخطوة مقبولة الا بهذه الروح. ولكن لا نستطيع ان نتكلم في هذه الحالة عن حرية الاختيار من جانبنا.

"فقال يسُوع لتلاَميذه: «الحقَّ أقُول لكمْ: إنَّه يعْسُر أنْ يدْخُل غنيٌّ إلى ملكوت السَّماوات! وأقُول لكمْ أيْضًا: إنَّ مرُور جَمل من ثقب إبرَة أيسَر من أنْ يدْخلَ غنيٌّ إلى ملكوت الله!». فلمَّا سمع تلاَميذُه بهتوا جدًّا قائلينَ: «إذًا منْ يَستَطيعُ أنْ يخْلصَ؟» فنَظَر إلَيْهم يسُوع وقال لهمْ: هذَا عنْد النَّاس غيرُ مسْتطَاعٍ، ولكنْ عنْد الله كلّ شيءٍ مسْتَطاعٌ" (متى١٩: ٢٣-٢٦).

إن سؤال التلاميذ: "اذن من يستطيع ان يخلص؟" هذا السؤال الذى هزهم هزا عنيفا، يظهر انه يدل على ان التلاميذ اعتبروا حالة الشاب الغني حالة رمزية تمثل الجميع، لا حالة شاذة خاصة به، لانهم لم يسألوا قائلين "اى رجل غني؟" بل سألوا سؤالا عاما: "اذن من يستطيع ان يخلص؟" لان كل انسان، حتى التلاميذ انفسهم، ينتمون الى اولئك الاغنياء الذين يعسر دخولهم الى ملكوت السموات. والجواب الذى قدمه يسوع اظهر ان التلاميذ فهموا قصده جيدا. **فالخلاص عن طريق اتّباع يسوع ليس شيئا نستطيع نحن ان نحصل عليه لانفسنا، بل هو شيء يقدمه لنا الله، وعند الله كل شيء مستطاع.**



الفصل الرابع

الاتّباع والصليب

"وابتَدأ يُعلِّمهمْ أنّ ابنَ الإنسانِ يَنْبغي أنْ يتألَّم كثيرًا، وَيرفضَ منَ الشُّيوخ ورُؤسَاء الكَهنة والكَتبةِ، ويُقتلَ، وبعْد ثَلاثَة أيَّام يقُوم. وقَال القول علاَنيةً. فأخذَه بُطرس إليْه وَابتَدأ يَنتهرُه. فَالتفت وَأبْصرَ تلاميذَه، فانْتهر بُطرس قائلاً: اذْهب عَنّي يا شَيطان! لأنَّك لا تَهْتَمُّ بمَا لله لكنْ بمَا للنَّاس.

ودَعا الجَمع مع تلاميذه وقال لهُمْ: "منْ أَراد أنْ يَأْتيَ ورَائي فَلينكر نَفسه ويَحمل صَليبهُ ويتبَعْني. فإنَّ منْ أراد أنْ يُخَلّص نَفْسَه يهلكُهَا، ومَنْ يهلك نَفْسَه منْ أجْلي ومنْ أجْلِ الإنْجيل فهُو يُخلّصهَا. لأنَّه ماذَا يَنتَفع الإنسان لو رَبح العالمَ كلَّه وخَسر نَفْسَه؟ أو ماذَا يعطي الإنسَان فداءً عنْ نَفْسه؟ لأنَّ من اسْتَحَى بي وبكَلاَمي في هذَا الجيل الفَاسق الخَاطئ، فإنَّ ابنَ الإنسانِ يَستَحي به متَى جَاء بمجْد أبيه مع المْلائكة القدّيسينَ". (مرقس٨: ٣١-٣٨)

الدعوة المقدمة هنا لاتباع المسيح تتصل بتوقعه آلامه وموته. ان يسوع المسيح ينبغي ان يتألم كثيرا ويرفض، هذه الكلمة "ينبغي" المحتمة قائمة اصلا في وعد الله. ويوجد فرق هنا بين الالم والرفض. فلو كان المسيح قد تألم فقط، كان من الجائز ان يقبل ويرحب به كالمسيا. وكان كل عطف العالم واعجابه يتركز حول آلامه. وكان ينظر الى آلامه كمأساة

لها قيمتها وشرفها وكرامتها الذاتية. لكن رفضه ازال من المه هالة المجد التي تحيط به. **كان ينبغي ان تكون آلامه بدون شرف ولا كرامة. ففي الالم والرفض يتلخص كل صليب المسيح.** الموت على الصليب معناه الموت محتقرا ومرذولا من الناس. وقد وضع الالم والرفض على يسوع كضرورة حتمية الهية. وكل محاولة لمنعها هي عمل الشيطان، لا سيما عندما تأتي من تلاميذه، لانها في الحقيقة محاولة منع المسيح من ان يكون المسيح. وبطرس صخرة الكنيسة هو الذى يرتكب هذه الخطية، وذلك فور اعترافه ان يسوع المسيا، وتعيين المسيح له في مكان الاولوية. هذا يبين ان فكرة مسيا متألم كانت مرذولة عند الكنيسة في اول ايامها. فليس هذا هو الرب الذى تريده، وهي ككنيسة المسيح لا تحب ان يفرض عليها قانون الالم من سيدها. ان احتجاج بطرس يبين عدم رغبته الشخصية في ان يتألم، وهذا يبين ان الشيطان قد دخل الى الكنيسة ويحاول ان يبعدها عن صليب ربها.

لهذا اراد المسيح ان يوضح بكل جلاء، وبطريقة تمنع كل شك، بان "يَنْبغي" المحتمة للالم، تنطبق على تلاميذه كما تنطبق عليه تماما. **وكما ان المسيح هو المسيح بفضل آلامه ورفضه، هكذا التلميذ هو تلميذ فقط على قدر مشاركته لربه في الالم والرفض والصلب.** ان الاتّباع معناه الالتصاق بشخص يسوع، وهو لذلك يعني الخضوع لناموس المسيح، او بمعنى آخر يعني الصليب.

ومن المدهش ان يسوع لما بدأ يعلن لتلاميذه هذا الحق الذى لا مفر منه، ترك لهم منتهى الحرية في ان يقبلوه او يرفضوه. فنجده يقول "**ان اراد احد ان يأتي ورائي.**" فلا يمكن ان يلزم احد، ولا ان يرغم ان يأتي اليه، حتى ولو كان من تلاميذه. بل، على عكس ذلك، يقول المسيح "ان اراد

احد» كأنه يقول: "هل يوجد احد مستعد ان يرفض كل العروض الاخرى التي تأتي في طريقه في سبيل ان يتبعني؟" ومرة اخرى يترك كل شيء للفرد حتى يقرر بنفسه. لقد وصل التلاميذ الى منتصف طريق الاتّباع، وها هم يصلون الى مفترق طرق، ويُتركون مرة اخرى احرارا يختارون لانفسهم ما يشاءون. لا ينتظر منهم شيء معين، ولا يُفرَض عليهم شيء معين. وكان مطلب الساعة مطلبا مُلِحّاً حاسماً، اقتضى ان يترك التلاميذ احرارا، ليختاروا بمحض ارادتهم قبل ان يوضع امامهم قانون الاتّباع.

"**ان اراد احد ان يأتي ورائي فلينكر نفسه**". يجب ان ينكر التلميذ نفسه ويقول عنها نفس ما قاله بطرس عن المسيح عندما انكره "لست اعرف هذا الانسان". ان انكار النفس ليس سلسلة من اعمال منفصلة عن الصلب والاماتة والتقشف. وليس انتحارا، لان فيه عنصرا من عناصر الارادة الشخصية العنيدة الباقية حتى في ذلك الانكار. **لكن انكار النفس يعني فقط معرفة المسيح والكف عن معرفة انفسنا. يعني ان نراه وحده ولا نرى الطريق التي هي صعبة جدا جدا علينا.** مرة اخرى، كل ما يمكن ان يقوله انكار النفس هو هذا: "يسوع يقود في الطريق، فداوم بالقرب منه."

"... **ويَحمِل صَلِيبهُ.**" لقد مهد المسيح السبيل لهذه العبارة بشكل مجيد، باشارته اولا الى انكار النفس. فاننا لا نكون مستعدين لحمل الصليب لاجله الا عندما ننسى النفس نسيانا تاما. **ان كنا في النهاية نعرفه هو وحده، واصبحنا لا نلاحظ آلام صليبنا، نكون حقا ناظرين اليه هو وحده.** ولو لم يمهد المسيح لنا السبيل لهذه الكلمة بهذا الشكل المجيد لوجدناها غير محتملة. ولكن اذ أعَدَّنا لها، جعلنا نستطيع ان

نقبلها مع صعوبتها ككلمة نعمة. ونرحب بها وهي تأتي الينا بفرح الاتّباع، وتعطينا قوة على المثابرة.

ان حمل الصليب ليس مأساة. انه الالم الذى هو ثمرة الالتصاق التام بيسوع المسيح. وعندما يأتي، لا يأتي كطارىء عارض، بل كضرورة محتمة. وهو ليس من نوع الالم الطبيعي الملازم للحياة الفانية كجزء لا يتجزأ منها، لكنه الالم الذى يعتبر جزءا اساسيا جوهريا من الحياة المسيحية بالذات. انه ليس الما في ذاته لكنه الم ورفض. وليس رفضا بسبب قضية من قضايانا او اقتناع نقتنع به، لكنه رفض لاجل المسيح. **ان كانت مسيحيتنا لم تعد تأخذ الاتّباع على محمل الجد، فمعناه اننا قد انزلنا الانجيل وخفضناه الى منعش عاطفي بلا مطلب مكلف**، ولا نعود نميز بين الحياة الطبيعية والحياة المسيحية. في هذه الحالة لا نعتبر الصليب سوى مصيبة عادية من مصائب الحياة اليومية، او تجربة من تجارب الحياة وضيقاتها المتنوعة. كان صاحب المزامير يشكو دائما انه محتقر ومرذول من الناس، وهذه صفة اساسية من آلام الصليب. لكن هذه الصفة، بل هذه الفكرة لم تعد مفهومة لدى مسيحية لم تعد ترى فرقا بين حياة تنعم بالاحترام والاكرام، وبين الحياة المسيحية الحقة. ان السبيل الوحيد للوقوف تحت الصليب بكل جد هو اتّباع المسيح والتعلق به.

"**... ويَحمِل صَلِيبهُ.**" ان الصليب موجود من قبل وينتظر المسيحي قبل ان يبدأ اول خطوة في حياته المسيحية. ولا حاجة به ان يخرج ويفتش عن صليب لنفسه. لا حاجة به ان يركض عمدا وراء الالم. يسوع يقول: **ان لكل مسيحي صليبا ينتظره، صليبا مقدرا ومعينا من الله. وكل واحد عليه ان يحمل نصيبه المعين من الالم والرفض.** لكن لكل واحد نصيبا يختلف عن نصيب الاخر. فالبعض يعتبرهم الله اهلا لاصعب صورة من

صور الالم، فيمنحهم نعمة الاستشهاد، بينما غيرهم لا يسمح لهم ان يجربوا فوق ما يستطيعون. لكنه صليب واحد بعينه في كل حالة، سواء قاد للاستشهاد ام لم يقد.

ان الصليب يوضع على كل مسيحي. انه يبدأ بالدعوة لترك الاتصالات بالعالم. انه موت الانسان العتيق، نتيجة للاتصال بالمسيح. فعندما نباشر اتّباع المسيح، نسلم للمسيح انفسنا في اتحاد بموته، اى اننا نسلم انفسنا للموت. وحيث ان هذا يحدث في بدء الحياة المسيحية، فالصليب لا يمكن ان يكون مجرد نهاية اليمة لحياة دينية سعيدة. **اذ عندما يدعو المسيح انسانا، يدعوه ان يأتي اليه ويموت.** قد يكون مثل موت التلاميذ الاولين الذين كان عليهم ان يتركوا بيوتهم واهلهم وعملهم ويتبعوه، او قد يكون مثل موت لوثر الذى كان عليه ان يترك الدير ويخرج الى العالم، لكنه هو الموت بعينه في كل حال، الموت في يسوع المسيح، الموت عن الانسان العتيق عند دعوة يسوع المسيح. لهذا السبب رفض الشاب الغني ان يتبع المسيح، لان اتباعه كان يكلفه موت ارادته. اذ لا يقدر ان يتبع المسيح الا ذلك الرجل الذى قد مات لارادته هو. وفي حقيقة الامر، كل وصية من يسوع هي دعوة للموت عن كل رغباتنا وشهواتنا. لكننا لا نريد ان نموت. لهذا فان يسوع المسيح ودعوته، هما حتما موتنا وحياتنا. فدعوة المسيح والمعمودية باسمه يعنيان الموت والحياة في آن واحد. والمسيحي يقبل عند دعوته، وفي المعمودية، ان يسلم حياته لحرب يومية طاحنة ضد الخطية والشيطان. وهو يواجه كل يوم تجارب جديدة، ويتألم كل يوم بآلام جديدة لاجل يسوع المسيح. والجروح والسمات التي يتلقاها في حربه هي علامات حية على مشاركته في صليب ربه. وهناك نوع آخر من الالم والعار لا ينجو منه المسيحيى. صحيح ان آلام المسيح وحدها هي وسيلة الفداء، ولكن

بما ان المسيح قاساها وحملها لاجل خطايا العالم اجمع وهو يشارك تلاميذه في اثمار آلامه، فعلى المسيحي ايضا ان يحتمل التجربة وان يحمل ذنوب الاخرين، وان يحمل عارهم، ويطرد مثل "تيس عزازيل" فيتألم خارج الباب. لكنه يتحطم حتما لولا معونة مخلّصه الذى حمل خطايا الجميع. ان آلام المسيح تقوّيه حتى يغلب خطايا الاخرين بمسامحتهم، ويصبح حامل اثقال الاخرين. "**احملُوا بَعضُكُمْ أثقالَ بعض، وهكَذا تَمّمُوا نَامُوس المسيحِ**" (**غلاطية٦:٢**). كما حمل المسيح اثقالنا، علينا ان يحمل بعضنا اثقال بعض. ان ناموس المسيح الذى علينا ان نتممه، هو حمل الصليب. وحمل اخي الذى علينا ان نحمله ليس فقط نصيبه الخارجي، وخاصياته ومواهبه الطبيعية، بل هو ايضا خطاياه فعلا. والطريقة الوحيدة لحمل خطاياه، هي بمسامحته، وذلك في قوة صليب المسيح. **لذلك فالدعوة لاتّباع المسيح هي دائما دعوة للمشاركة في عملية غفران خطايا الاخرين. ان الغفران هو الالم الشبيه بألم المسيح، وهو واجب على المسيحي ان يحمله.**

لكن كيف يعرف المسيحي اى نوع من الصليب معين له؟ سيعرف ذلك حتما حالما يبدأ يتبع ربه ويشاركه حياته.

اذن الالم هو شعار المسيحي الحقيقي. فليس التلميذ افضل من معلمه. ان اتّباع المسيح معناه تحمل الالم. فنحن نتألم لانه يجب ان نتألم. لهذا السبب اعتبر لوثر الالم من علامات الكنيسة الحقيقية. ومن المذكرات الباقية التي تخلفت من اعداد قانون اعتراف اوغسبرج، عبارة تصف الكنيسة بأنها جماعة تتكون من "**المضطهدين المستشهدين في سبيل الانجيل**". فاذا رفضنا ان نحمل صليبنا وان نقاسي الالم والرفض على أيدى الناس، نقطع شركتنا مع المسيح ونكف عن اتباعه. ولكن ان اضعنا

حياتنا وحملنا صليبنا، نجدها مرة اخرى. وعكس الاتّباع هو ان نستحي بالمسيح وصليبه، وبكل العثرة التي يسببها حمل الصليب.

الاتّباع معناه الولاء للالام المسيح، اذن فليس غريبا اطلاقا ان يدعى المسيحي للالم. بل في الحقيقة ان الالم فرح وامتياز للمسيحي، وعلامة النعمة الموهوبة له. ان اعمال الشهداء المسيحيين الاوائل مليئة بالادلة القاطعة التي تبين ان المسيح **يظهر مجده في من هم له، في ساعة آلامهم الطاحنة، وذلك بمنحه اياهم يقينا اكيدا بحضوره معهم**. وفي اقسى ساعات الالم والتعذيب المرير لاجله يمنحهم شركة الفرح الكامل والغبطة الكلية معه. وحمل الصليب يبين انه الطريقة الوحيدة للنصرة على الالم. وهذا يصدق على كل تابعي المسيح، كما صدق على المسيح.

"ثمّ تقدّم قليلاً وخرَّ على وَجهِه، وكان يُصلّي قائلاً: يا أبَتَاه، إنْ أمكَن فلتَعبُر عنّي هذه الكأس، ولكنْ ليسَ كمَا أرِيدُ أنا بل كمَا تُريد أنتَ. ثمّ جاءَ إلى التّلاميذ فوَجدهمْ نيامًا، فقال لبطْرس: أهكَذا ما قدرتُم أنْ تَسهرُوا معي ساعةً واحدةً؟ اسهَروا وصَلُّوا لئلاّ تدخُلوا في تَجربة. أمّا الرّوح فنشيطٌ وأمّا الجسدُ فَضعيفٌ. فمضَى أيْضًا ثانيةً وصلَّى قائلاً: يا أبَتَاه، إنْ لمْ يُمكن أنْ تَعبُر عنّي هذه الكَأسُ إلاّ أنْ أشْربها، فلتَكنْ مشيئتُكَ". (متى٢٦: ٣٩، ٤٢).

يصلي يسوع طالبا من ابيه ان تعبر عنه الكأس. ويسمع ابوه صلاته. لان كأس الالم تعبر حقا بطريقة واحدة وهي بشربها. هذا هو اليقين الذى حصل عليه المسيح وهو راكع على ركبتيه للمرة الثالثة في بستان جثسيماني. هذا هو الطريق الوحيد للنصرة. الصليب هو نصرته على الالم.

ان الالم في اعمق معانيه هو ان يكون الانسان مفصولا عن الله. فالذين يعيشون في شركة معه لا يمكن ان يتألموا حقا. لقد عاد المسيح فأكد هذا التعليم الذى عبر عنه العهد القديم. ولهذا اذ يأخذ المسيح على عاتقه آلام كل العالم ويحتملها يثبت نصرته على الالم. لقد احتمل كل ثقل انفصال الانسان عن الله، وفي شربه كأس الالم هذا عبرت الكأس عنه. لقد صمم ان ينتصر على الم العالم، لذلك كان عليه ان يشرب الكأس حتى الثمالة. اذن، وان كان حقا ان الالم معناه الانفصال عن الله، **الا ان يسوع المسيح، بمشاركته آلام العالم وذلك يحملها في نفسه، قد انتصر على الالم عن طريق الالم وجعل الالم سبيل الشركة مع الله.**

يجب احتمال الالم، حتى يعبر. وعلى العالم اما ان ينحني تحت كل الثقل ويحمله فيتحطم او ان يعتمد على المسيح فينتصر هو على العالم. لذلك نرى المسيح يتألم ككفّارة نيابية عن العالم. وآلامه هي الالام الوحيدة التي لها قيمة كفارية فدائية. لكن الكنيسة تعلم ان العالم لا يزال يبحث عمّن يحمل آلامه، وهي اذ تتبع المسيح، يصبح الالم من نصيبها ايضا. فهي اذ تتبع المسيح تحت الصليب تقف امام الله كممثلة للعالم.

ان الله هو الاله الذى يحمل. لقد حمل ابن الله جسدنا، وحمل الصليب، وحمل خطايانا، وبذلك كفّر عنا. واتباعه مدعوون ان يحملوا كما حمل هو. وهذا معنى المسيحي بالضبط. وكما ان المسيح حفظ شركته مع الاب باحتماله، **هكذا يستطيع اتباعه ان يحفظوا شركتهم مع المسيح باحتمالهم. في مقدورنا بالطبع ان نطرح عنا الحمل الذى نحمله، لكننا بذلك نجد ان علينا ان نحمل حملا اثقل واقسى، وهو نير نختاره نحن، نير انفسنا.** لكن يسوع يدعو كل المتعبين والثقيلي الاحمال ان يطرحوا نيرهم ويحملوا نيره عليهم، لان نيره هين وحمله خفيف. ونير

المسيح وحمله هما الصليب.

وكأن المسيح يقول:

"ان الاتّباع ليس قاصرا على ما تفهمه، فانه يفوق فهم الانسان وادراكه. اغطس في المياه العميقة التي تفوق فهمك، دعني اساعدك حتى تفهمه كما افهمه انا. ان الحيرة هي الادراك الحقيقي. فان كنت لا تعرف اين تذهب، فهذه هي المعرفة الصحيحة. ان فهمي يفوق فهمك. لقد ترك ابراهيم اباه وخرج من ارضه، وهو لا يعلم الى اين يمضي. لقد وثق في معرفتي، ولم يبال بمعرفته هو، وبذلك سلك الطريق الصواب، ووصل الى نهاية سفرته. هذه هي طريق الصليب. ولا تستطيع ان تجدها بنفسك، لذلك دعني اقودك فيها، كما لو كنت اعمى. لذلك ارشدك انا، ولا اتركك لذاتك، ولا لأيّ انسان، ولا لأيّ مخلوق، بل ارشدك انا بنفسي، بكلمتي وبروحي، واعلّمك الطريق التي تسلكها. ولا اريدك ان تقوم بالعمل الذى تختاره، ولا ان تحمل الالم الذى تريده، بل ان تسلك طريقا مناقضا تماما لما كان يمكن ان تختاره او تسعى اليه او ترغب فيه. هذا هو الطريق الذي يجب ان تسلكه. اني ادعوك لهذا الطريق، وفي هذا الطريق يجب ان تكون تلميذى. ان فعلت ذلك، تجد ان الوقت وقت مقبول، وتجد سيدك وقد اتى اليك" **(لوثر)**.

الفصل الخامس

الاتّباع والفرد

"إنْ كانَ أحَد يأْتي إليَّ ولا يُبغض أبَاه وأمَّه وامرأتَه وأولاده وإخوَتهُ وأخوَاته، حتَّى نفْسه أيْضًا، فلا يقْدر أنْ يكُون لي تلميذًا" (لوقا١٤ :٢٦)

يصير الناس افرادا مستقلين بواسطة دعوة يسوع. وعليهم ان يقرروا افرادا اجابتهم لهذه الدعوة. وهم وحدهم يستطيعون الاجابة... وهم افراد مستقلون، لا باختيارهم، بل بدعوة يسوع لهم. فكل منهم مدعو فرديا وشخصيا، وعليه وحده ان يتبع مستقلا بذاته. لكن الناس يخشون الوحدة والانفراد. يحاولون ان يهربوا من هذه الوحدة باندماجهم في المجتمع مع رفاقهم وزجّ انفسهم في بيئتهم المادية. ثم يرتبكون في مسؤولياتهم وواجباتهم نحو الغير، ولا يريدون التخلي عنها. انما كل هذا مجرد ستار ليحميهم من اتخاذ قرار. انهم يكرهون ان يقفوا وحدهم امام يسوع، وان يضطروا لاتخاذ قرار شخصي وعيونهم مثبتة في يسوع وحده. **لكن لا يستطيع اب ولا ام، ولا زوجة ولا ولد، ولا شعب ولا تراث، ان يحمي الانسان في اللحظة الحاسمة التي توجه فيها الدعوة اليه.** فان ارادة المسيح تحتّم ان الانسان كفرد يسمع الدعوة، وان يركز عينيه على المسيح وحده.

في هذه اللحظة التي يقدّم فيها المسيح دعوته، يرى الناس انهم قد قطعوا كل صلة طبيعية بالحياة. وهذا ليس عملهم، بل هو عمل ذاك الذي

يدعوهم. لان المسيح قد انقذهم من كل صلة مباشرة مع العالم، وجعلهم في صلة مباشرة معه. ولا نستطيع ان نتبع المسيح ما لم نكن مستعدين ان نعتبر تخلّينا عن علاقاتنا أمرا منتهيا. فهذا الاختيار ليس بمحض ارادة التلميذ، بل من المسيح نفسه، الذى يدعوه ويلزمه ان يقطع صلته بالماضي.

تُرى لماذا هذا ضروري؟ لماذا لا يكون الخلاص عملية نمو دائم، تدريجي، وانتقال متّزن رائع من حياتنا في هذا العالم، بما فيه من اناس واشياء، الى نمو متزايد في الشركة الفائقة الطبيعة مع المسيح؟ ما هذه القوة التي تأتي للانسان بشدة وقسوة، وتدخل بين الانسان وحياته الطبيعية، التي سُرّ الله ان يضعه فيها؟ أليس قطع صلة الانسان بالماضي على هذه الصورة اشبه باسلوب ناموسي يتبعه البيوريتان، باحتقارهم السقيم لعطايا الله الصالحة، اى انه اسلوب بعيد كل البعد عن "حرية المسيحي"؟ علينا ان نجابه هذه الحقيقة بصراحة، وهي ان دعوة المسيح تقيم فاصلا حاجزا بين الانسان وحياته الطبيعية. لكن هذا الفاصل ليس احتقارا سقيما للحياة، ولا هو مجرد اسلوب ديني بل هو الحياة، الحياة الحقيقية. هو الانجيل. هو شخص يسوع المسيح نفسه. فهو بفضل تجسده، قد توسط بين الانسان وحياته الطبيعية. فليس هناك مجال للرجوع، لان المسيح قد سد الطريق. فهو اذ يدعونا اليه يقطع كل صلة مباشرة لنا باشياء العالم. وقد شاءت ارادته ان يكون الامر كذلك. والان فان ما يحدث انما يحدث بواسطته هو وحده. فهو بيننا وبين الله. ولهذا السبب عينه يتوسط بيننا وبين كل انسان آخر وكل شيء آخر. هو الوسيط ليس بين الله والانسان فقط، بل ايضا بين الانسان والحقيقة. وبما ان كل العالم خُلق به وله (يوحنا١: ٣ و١كورنثوس٨: ٦ وعبرانيين١: ٢) فهو الوسيط الوحيد في العالم. ومنذ مجيئه لا يتمتع الانسان بصلة مباشرة مع

العالم، لان ارادة المسيح هي ان يكون هو الوسيط الوحيد. بالطبع يوجد آلهه كثيرة تقدم للناس اتصالا مباشرا بها، ويستخدم العالم بالطبع كل وسيلة يتيسر له استخدامها ليحتفظ بصلته المباشرة مع الناس، ولهذا السبب عينه يقاوم العالم المسيح الوسيط مقاومة مريرة.

هذا التخلي عن العلاقات المباشرة المتّصلة بالعالم يتفق اتفاقا تاما مع الاعتراف بالمسيح كابن الله الوسيط. وليس هذا عملا عمديا ان نتخلى عن كل اتصال بالعالم لاجل مثال او آخر، كأننا نستبدل مثلا ادنى بمثل اعلى. فان مثل هذا العمل يعد نوعا من التحمس والتمسك بارادتنا، ويتركنا بعد في صلتنا المباشرة مع العالم. انما يمكن ان يتم هذا فقط بادراك العمل المتمم اى حقيقة المسيح الوسيط، فهذا وحده الكفيل بان يفصل التلميذ عن عالم الناس والاشياء. **اى ان دعوة يسوع، لا باعتبارها مثلا اعلى، بل باعتبارها كلمة الوسيط، هي التي تقودنا الى هذا الانفصال الكامل عن العالم.** فلو كان الموضوع موازنة بين مثل اعلى ومثل اعلى سواه، كنا نتلهف طبعا لعمل مساومة بينهما. وفي هذه الحالة قد يحتل المثل المسيحي الاعلى مركز الصدارة والذروة، لكن دعواه لن تكون نهائية ومطلقة. فلو كنا نُعنى فقط بالمُثُل العليا، ولو كنا نعطي الاعتبار اللائق لالتزاماتنا الطبيعية، ما كان لنا وجه حق يبررنا في اعطاء المثال المسيحي الاعلى اسبقيه او اولية على مقاييس الحياة الطبيعية. بل على نقيض ذلك كان يمكن تبرير التقدير العكسي، حتى من وجهة نظر مثالية مسيحية، او من وجهة نظر ادب المسيحي في الواجب والضمير. لكننا لا نُعنى بمُثُل عليا، او واجبات، او قيم، بل بادراك عمل قد تم، اي عمل شخص الوسيط نفسه الذي وقف بيننا وبين العالم. لذلك يُحتَّم التخلي التام عن كل العلاقات المباشرة بالحياة، فان دعوة المسيح تأتي

بنا افرادا وجها لوجه مع الوسيط.

ان دعوة يسوع تعلّمنا ان علاقتنا بالعالم قد بنيت على وهم وخداع. لقد ظننا دائما اننا ننعم بصلة مباشرة مع الناس والاشياء. وهذا هو الذى منعنا عن الايمان والطاعة. والان نعلم انه في اقرب علاقات الحياة واوثقها، في علاقاتنا مع الاب والام والاخوة والاخوات، في محبتنا لزوجاتنا وفي واجبنا نحو المجتمع، صارت الصلات المباشرة مستحيلة. منذ جاء المسيح، صار من المتعذر على تابعيهِ ان ينعموا بصلة مباشرة مع اي من هؤلاء، سواء كانوا في التاريخ او في الطبيعة او في الاختبار. فان بين الاب والابن، بين الزوج والزوجة، بين الفرد والمجتمع يقف المسيح الوسيط. فلا نستطيع ان ننشىء علاقة مباشرة مع جارنا الا في المسيح وبواسطة كلمته وفي طريق اتباعنا له. وان افتكرنا شيئا بخلاف ذلك نُضلّ انفسنا.

لكن بما اننا ملتزمون ان نرفض كل خداع يخبىء الحق ويخفيه عن عيوننا، لذلك يجب علينا ان نرفض حتما كل علاقة مباشرة بأمور هذا العالم، وذلك لاجل المسيح. **فكل ارتباط يظهر انه يقدم لنا هذه العلاقة المباشرة يجب علينا ان نرذله ونرفضه لاجل خاطر المسيح.** لان كل علاقة مباشرة، سواء ادركناها ام لم ندركها، تعني اننا نبغض المسيح. وينطبق هذا بنوع خاص على العلاقات التي تدعي لنفسها قدسية المبادىء المسيحية.

هناك غلطة لاهوتية خطيرة جدا، وهي استغلال تعليم المسيح كوسيط لتبرير التمتع بعلاقات مباشرة مع امور هذا العالم. ويقال احيانا انه بما ان المسيح هو الوسيط، فقد حمل كل الخطية التي تنطوي عليها علاقاتنا مع العالم، وبذلك برر اتصالنا بها. ففي استطاعتنا، على

حد ما يزعمون، ان نعود الى العالم وان نتمتع بعلاقاتنا المباشرة معه بضمير صالح، ولو ان العالم هو نفس العالم الذى صلب المسيح. وهذا معناه معادلة محبة المسيح بمحبة العالم. بذلك يكون قطع الصلة بأمور العالم قد انحراف الى سوء تفسير شرعي لنعمة الله يهدف الى ان يجنّبنا ضرورة قطع هذه الصلة. وبهذا يحوّل الانسان كلام المسيح عن بغضه لاقرب علاقاته وقراباته الى تأكيد التمتع بالاشياء التي اعطانا اياها الله في هذا العالم. ويصير تبرير الخاطىء مرة اخرى تبريرا للخطية.

ان الاشياء الحقيقية التي اعطاها الله للمسيحي، هي الاشياء التي يأخذها المسيحي من المسيح. وما يعطى عن غير طريق ابن الله المتجسد، ليس معطى لنا من الله. عندما نقدم شكرنا لاجل عطايا الخليقة، يجب ان نفعل ذلك بيسوع المسيح، وعندما نصلي طالبين حفظ هذه الحياة بنعمة الله، يجب ان نقدم صلاتنا لاجل المسيح. فان كنت لا استطيع ان اشكر الله اكراما للمسيح، اذن فلا يمكن ان اشكره اطلاقا، لان شكرا كهذا خطية. وهكذا الحال مع جارى او قريبي الذى اعطاني اياه الله، فان هذه العطية منحني اياها الله في المسيح. والا فان علاقتي معه تكون على اساس خاطىء تماما، وتكون كل محاولاتنا لاقامة جسر فوق الهوّة التي تفصل بيننا وبين جيراننا، عن طريق قرابة طبيعية او مشابهة روحية، مقضيا عليها بالفشل. وستبقى هذه الهوّة غير متصلة، وسيبقى هناك فاصل بل تبقى هناك غرابة بيننا. فالانسان لا يستطيع بطريقة يصفها هو ذاته ان يلتقي بآخر. فمهما حاولنا ان نظهر من الحب والعطف، ومهما كانت سيكولوجيّتنا سليمة، ومهما كان سلوكنا صريحا ومكشوفا، لا نستطيع ان نخترق الى ذلك الجانب المتنكر المختفي في الشخص الاخر. لانه لا توجد علاقات مباشرة بين انسان وانسان، بل بين نفس ونفس. فان

المسيح يقف بيننا، ويتوسطنا، ولا نستطيع ان نتصل بجارنا او بقريبنا الا بواسطته. لهذا فان افضل طريق مرجو للوصول الى قريبنا هو طريق التشفع، والصلاة الجماعية المقدمة باسم المسيح. **هذه انقى صورة للشركة.**

لا نستطيع ان نعرف عطايا الله ما لم نعرف الوسيط الذى لاجله وحده ولا سواه منحت لنا هذه العطايا. ولا يمكن ان يكون هناك شكر حقيقي صادق على بركة الامة، والعائلة، والتاريخ، والطبيعة، بدون توبة قلبية تطلب مجد المسيح وحده فوق كل شيء. ولا يمكن ان يتم اتصال صحيح بعطايا الخليقة، او اداء واجب حقيقي صادق للعالم، ما لم ندرك عمق الهوة التي كانت من قبل تفصلنا عن هذه العطايا وعن هذه الواجبات. **لا يمكن ان نحب العالم حبا نقيا، ما لم نحبه بالمحبة التي بها احبنا الله في المسيح.** لقد قيل "**لا تحبُّوا العَالم**" (**١يوحنا٢: ١٥**) وهذا صحيح، ولكن علينا ان نتذكر انه قيل ايضا "**لأنَّه هكَذا أَحبَّ الله العَالم حتَّى بَذل ابْنَه الوحِيد، لكَيْ لا يهْلك كلّ منْ يؤْمِن به، بَل تَكُون لهُ الحَياة الأبديَّة**" (**يوحنا٣: ١٦**)

ان قطع العلاقات المباشرة امر لا مفر منه. قد يتخذ صورة قطع الصلات الخارجية مع الاسرة او الامة، فنُدعى في هذه الحالة الى ان نحمل عار المسيح بطريقة منظورة. وقد يتخذ صورة خفية سرية، لكن حتى في مثل هذه الحالة، علينا ان نكون مستعدين دائما لمواجهة ذلك نهارا جهارا. وفي آخر الامر، لا فرق في ان يكون قطع الصلات سرا او جهرا. ان ابرهيم يُعتبر مثلا واضحا للامرين، فقد كان عليه ان يترك اصحابه وبيت ابيه، لان المسيح توسط بينه وبين اهله. وفي هذه الحالة كان قطع الصلات علنا جهارا. وصار ابرهيم غريبا ونزيلا حتى ينال

ارض الموعد. هذه كانت دعوته الاولى. لكن الله دعاه بعد ذلك ان يقدم ابنه اسحق ذبيحة. لقد توسط المسيح بين ابي الايمان وابن الموعد. وفي **هذه المرة كانت العلاقة المباشرة التي يجب ان تتحطم، لا علاقة اللحم والدم فقط، بل ايضا علاقة الروح. كان على ابراهيم ان يتعلم ان الوعد لا يتوقف على اسحق، بل على الله وحده.** ولهذا لم يسمع احد غير ابرهيم دعوة الله له، حتى عبيده الذين رافقوه الى جبل المريا لم يسمعوا الدعوة. وقد صار ابرهيم مرة اخرى شخصا وحيدا فريدا منعزلا، كما كان عند دعوته ان يترك بيت ابيه. وقد قبل الدعوة كما جاءت، فلم يتملص منها، ولم يلجأ الى تفسير مجازى. لقد اخذ الله بكلمته، وكان مستعدا تماما لاطاعته. فانه تحدى كل العلاقات المباشرة، طبيعية كانت ام ادبية ام دينية، في سبيل اطاعة كلمة الله. واظهر برغبته في تقديم اسحق، استعداده على ان يعلن قطع الصلات التي كان قد قطعها سرا من قبل، وان يفعل ذلك لاجل الوسيط. وفي هذه اللحظة عينها اعاد اليه الله كل ما ضحى به وسلّمه له. لقد اراه الله ذبيحة افضل يقدمها عوضا عن ابنه اسحق. لقد تغير الامر تماما، واستردّ ابرهيم ابنه اسحق، انما على ان يكون ابنه من ذلك الحين فصاعدا بشكل جديد، وذلك عن طريق الوسيط، ولاجل الوسيط وحده ولا سواه. وحيث انه قد اظهر استعداده التام لاطاعة الله اطاعة كاملة، لذلك يسمح له الان ان يمتلك اسحق، كما لو لم يكن ابنه من قبل، اى ان يمتلكه عن طريق يسوع المسيح. ولم يعرف احد ما حدث، وها هو ابرهيم ينزل من الجبل مع اسحق كما صعد، ولكن الموقف قد تغير كله تغيرا تاما. لقد ترك ابرهيم كل شيء وتبع المسيح. وما دام يتبعه، فمسموح له ان يعود الى العالم، وان يعيش في العالم كما كان يعيش من قبل. **قد تبدو الصورة كما هي من الخارج بدون تغيير،**

انما في الحقيقة، الاشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل قد صار جديدا. كل شيء كان يجب ان يجتاز في المسيح.

هذه هي الطريقة الثانية التي بها يصير الانسان فردا مستقلا ، وهي **ان يكون تابعا للمسيح في وسط المجتمع اى بين اهلنا وذوينا، وفي تمتعنا بكل ثروتنا العالمية.** لكن لاحظ ان الذى يدعى لهذا النوع من الحياة هو ابرهيم، الذى سبق فاختبر فعليا قطع الصلة مع الماضي بشكل بارز، ابرهيم الذى يقدمه العهد الجديد كمثال للايمان. ما اسعدنا لو صار اختبار ابرهيم اختبارا نموذجيا وامكننا ان نطبقه مباشرة على انفسنا. ما اسعدنا لو كانت هذه هي الحياة التي دعينا ان نحياها- اى ان نتبع المسيح ونحتفظ في نفس الوقت بثروتنا العالمية. هذه بحسب رأينا هي الطريقة التي نحتفظ بها بفرديتنا وشخصيتنا. مع ذلك فان قطع الصلة ظاهريا هو بكل يقين ايسر من قطعها داخليا بطريقة خفية. واذا لم نتعلم هذا من الكتاب المقدس ومن اختبارنا ، فاننا في الحقيقة نخدع انفسنا ، ونرتد ونتقهقر رجوعاً الى علاقاتنا العالمية المباشرة، ونفقد شركتنا مع المسيح.

وليس لنا ان نختار الطريق الذى نتبعه، فان ذلك يتوقف على ارادة المسيح. ولكننا نستطيع ان نتأكد هذا على الاقل، **وهو انه لابد ان يترك كل منا العلاقة المباشرة بالعالم لكي يحصل على فرديته بطريقة او بأخرى، سراً او جهراً.**

لكن هذا الوسيط الذى يجعلنا افرادا مستقلين، هو نفسه مؤسس شركة جديدة. هو يقف في المركز متوسطا بين قريبي ونفسي. انه يفصل، لكنه ايضا يوحّد. فمع ان الطريق المباشر بيني وبين قريبي مسدودة، الا

اننا نجد ان الطريق الجديدة الوحيدة الحقيقية الى قريبنا هي التي تمر بالوسيط.

"وابْتَدَأ بطْرس يقُول له: ها نحْن قدْ تركْنَا كلّ شيْءٍ وتبعْناك. فأجاب يسُوع وقال: الحقّ أقُول لكمْ: ليْس أحدٌ ترك بيْتًا أو إخْوةً أو أخَواتٍ أو أبًا أو أمًّا أو امرأةً أو أولادًا أو حُقولاً، لأجْلي ولأجلِ الإنجيلِ، إلاّ ويأْخُذ مئة ضعف الآن في هذا الزَّمان، بيُوتًا وإخوةً وأخواتٍ وأمّهاتٍ وأولادًا وحقُولاً، مع اضْطهادات، وفي الدّهر الآتي الحياةَ الأبديَّة. ولكنْ كثيرُون أوّلونَ يَكونُونَ آخرينَ، والآخرُون أوّلين". (مرقس ١٠: ٢٨-٣١).

ان يسوع يخاطب هنا اناسا صاروا افرادا مستقلين لاجله، وتركوا كل شيء عند دعوته، واستطاعوا ان يقولوا "ها نحْن قدْ تركْنَا كلّ شيءٍ وتَبعْناكَ". وها هم يقبلون وعدا بشركة جديدة. وحسب كلام يسوع سينالون في هذا الدهر مائة ضعف عن كل شيء تركوه، ويشير يسوع بهذا الى كنيسته التي تجد نفسها فيه. فمن ترك اباه لاجل يسوع سيجد بكل تأكيد أباً واماً واخوة واخوات، حتى بيوتاً وحقولاً. فانه وان كان يتحتّم علينا ان نبدأ الاتّباع كأفراد الا اننا لن نبقى افراداً منعزلين. فان قبلنا كلمة المسيح وصدقناها، وتركنا الكل في سبيل اتباعه، نحظى بمكافأة هي شركة الكنيسة. وهي الاخوة المنظورة، التي تعوض مائة ضعف عن كل ما فقدناه. مائة ضعف؟ نعم، لانه قد صار لنا كل شيء في الوسيط، انما مع هذا الشرط **"مع اضطهادات"**. مائة ضعف مع اضطهادات.. **هذه هي النعمة التي منحت للكنيسة التي تتبع سيدها تحت الصليب. هذا هو الموعد المقدم لتابعي المسيح- سيكونون اعضاء جماعة الصليب، شعب الوسيط، الشعب السائر تحت الصليب.**

"وكَانُوا فِي الطّريق صَاعدِينَ إلى أورُشليم ويتقدّمهمْ يسُوع، وكانُوا يتحيَّرون. وفِيما همْ يتبعُونَ كانُوا يخَافُون. فأخذَ الاثنَي عَشر أيْضًا وابتَدأ يقُول لهمْ عمَّا سيحدُث له" (مرقس١٠: ٢٣)

فكأنما اراد يسوع ان يريهم ان دعوته خطيرة جدية. وانه مستحيل عليهم ان يتبعوه بقوتهم الذاتية. وكأنما اراد ان يؤكد لهم ان اتباعه يعني الالام والاضطهادات. لهذا نراه يتقدمهم الى اورشليم، والى الصليب، فامتلاءوا خوفا وحيرة في الطريق التي دعاهم ان يتبعوه فيها.



الجزء الثاني

الموَعظة عَلى الجبل

الفصل الأول

التطويبات

"ولمَّا رأى الجمُوع صَعد إلى الجَبل، فلمَّا جَلسَ تقدَّم إليه تلاميذه. ففتحَ فاهُ وعلّمهمْ قائلاً: طُوبَى للمسَاكين بالرُّوح، لأنَّ لهَمْ ملكوتَ السَّماوات. طُوبَى للحَزانى، لأنَّهمْ يتعزَّونَ. طُوبَى للوُدعَاء، لأنَّهمْ يرثُون الأَرض. طُوبَى للجِيَاع والعطَاش إلى البرّ، لأنَّهمْ يُشبَعون. طُوبَى للرُّحماء، لأنَّهمْ يُرحَمون. طُوبَى للأَنْقيَاء القَلب، لأنَّهمْ يُعاينون الله. طُوبَى لصَانعي السَّلام، لأنَّهمْ أبْنَاء الله يُدعَون. طُوبَى للمَطْرودِين مِن أَجْل البرّ، لأَنَّ لهمْ ملكوتَ السَّماوات. طُوبَى لكمْ إذا عيَّروكمْ وطردُوكمْ وقَالوا عليكمْ كلَّ كلمة شرِّيرة، من أَجْلي، كاذبين. افرَحُوا وتهلَّلوا، لأنَّ أجرَكُمْ عَظيمٌ في السَّماواتِ، فإنَّهمْ هكذا طردُوا الأنْبيَاء الَّذين قبْلَكُم."

(متى ٥: ١-١٢)

لنتصور المشهد: يسوع فوق الجبل، والجماهير والتلاميذ حوله. والشعب يشاهد يسوع مع تلاميذه وقد احاطوا به. كان التلاميذ الى عهد قريب جدا مثل جمهور الشعب، يشبهونه في كل شيء. فأتت اليهم دعوة يسوع، ففي الحال تركوا كل شيء وتبعوه. منذ ذلك الحين صاروا له، جسدا ونفسا. اصبحوا يسيرون معه، ويعيشون معه، ويتبعونه حيثما قادهم. لقد حدث لهم شيء فذٌ فريد. وتلك الحقيقة المربكة الكريهة في اعين الناس تجابههم مباشرة. اما التلاميذ فكانوا ينظرون الى الشعب الذي من بينه قد جاءوا، والذي يمثل الخراف الضالة من شعب الله. فلما

جاءت دعوة يسوع للتلاميذ تختارهم من بين الشعب، علموا ما كان الامر الوحيد الطبيعي المحتم على خراف ضالة ان تفعله، تبعوا صوت الراعي الصالح لانهم عرفوا صوته. لذلك فان التحاقهم نفسه به كتلاميذ يثبت انهم اعضاء شعبه الحقيقي، وانهم سيعيشون بين الشعب، ويسيرون في وسطه، ويكرزون بدعوة يسوع ومجد الاتّباع. لكن ماذا ستكون النهاية؟ يسوع ينظر الى تلاميذه الذين تركوا الجماهير جهارا نهارا ليرتبطوا به. **لقد دعاهم، ووصلت دعوته الى كل منهم، فتركوا كل شيء عند دعوته وصاروا يعيشون عيشة الفاقة والعزلة، صاروا افقر الفقراء، واذلّ الاذلّاء، واشد الجياع جوعا. لم يكن لهم سواه. ولم يكن لهم معه شيء. اجل لم يكن لهم شيء في العالم، ولكن كان لهم كل شيء مع الله وفي الله.** هم قطيع صغير، وكان يتطلع الى الشعب يطلب منهم قطيعا كبيرا. لقد كان التلاميذ والشعب ينتمون بعضهم لبعض، ويخصون بعضهم بعضا. سيكون التلاميذ رسله، وسيجدون هنا وهناك بين الشعب اناسا يسمعون رسالتهم ويؤمنون بها. مع ذلك ستقوم بينهم عداوة تظل تشتعل الى النهاية المريرة. وسينصبّ كل غضب شعب الله الموجه اليه والى كلمته على تلاميذه. وكل ما لقيه من رفض سيلقونه هم. ها هو الصليب يُلقي ظله. وها هوِ المسيح والتلاميذ والشعب، هنا نرى المسرح لالام المسيح وكنيسته قد أُعدّ.

لهذا يطوّب يسوع تلاميذه ويدعوهم سعداء، قائلا لهم طوباكم (انظر الى لوقا ٦: ٢٠ وما يليه). ها هو يكلم رجالا سبق لهم ان استجابوا لقوة دعوته. **وتلك كانت الدعوة التي جعلتهم مساكين ومذلين، وجائعين. وهو يدعوهم مطوبين، لا بسبب فاقتهم وعزلتهم، ولا بسبب تركهم كل شيء، لانهم لم يُغبَطوا ويطوّبوا لشيء في ذاتهم.** لكن ما يبرز ذلك

التطويب وتلك الغبطة انما كان دعوة المسيح ووعده اللذين لاجلهما كان التلاميذ مستعدين ان يقاسوا الفقر وترك كل شيء. لا ننكر ان يسوع كان يتكلم احيانا عن العزلة والحرمان، واحيانا عن ترك كل شيء طوعا واختيارا، كما لو كان في ذلك ما يشير اليه الى فضائل خاصة في التلاميذ. ولكن، ليس هذا ما كان يشير اليه في "متى" ولا في "لوقا" في هذا الضدد. **فان اساس الحرمان الخارجي والترك الشخصي واحد، وهو دعوة يسوع ووعده. وليس في الحرمان ولا في الترك ايه قيمة ذاتية تستحق الذكر والثناء.**

ان يسوع يدعو تلاميذه مطوبين سعداء وسط دهشة الجمهور الذى يدعى ليكون شاهدًا على ذلك. ها هو التراث الذي وعد الله به شعبه قديما ينسب هنا الى القطيع الصغير، قطيع التلاميذ الذين اختارهم يسوع "فان لهم ملكوت السموات". لكن التلاميذ والشعب هم واحد، لانهم جميعا اعضاء الكنيسة المدعوة من الله. فيكون غرض هذه التطويبة هو حمل جميع الذين يسمعونه الى التصميم على اتخاذ قرار، والى نوال الخلاص. **فالجميع مدعوون الى ان يكونوا كما ارادهم الله ان يكونوا اصلا في الحقيقة.** فالتلاميذ يدعون مطوبين لانهم اطاعوا دعوة يسوع، والشعب بجملته يدعى مطوّبا لانه وارث الموعد. لكن له الان ان يطالب بميراثه بواسطة الايمان بيسوع وكلمته. فهل يؤمن الشعب بيسوع فيأخذ الميراث ام يرفضه ويقاومه؟ هذا هو السؤال الذى لا يزال يحتاج الى جواب.

"**طُوبَى للمسَاكِينِ بالرُّوح، لأَنَّ لَهمْ ملكوتَ السَّماواتِ**". الحرمان هو نصيب التلاميذ في كل دائرة من دوائر حياتهم. هم "**مساكين**" (لوقا ٦: ٢٠) لا ضمان لهم، ولا ممتلكات يدّعونها لانفسهم، ولا شبر من ارض

يدعونه مسكنهم، ولا مجتمع ارضي يدينون له بالولاء التام، بل لا قوة روحية، او اختبار، او معرفة، يلجأون اليها للعزاء او الامان. **فانهم لاجله قد تركوا كل شيء. وفي اتّباعه فقدوا حتى انفسهم، وفقدوا كل شيء يمكن ان يغنيهم. والان قد اصبحوا فقراء مساكين، جهلاء عديمي الخبرة الى درجة لم يبقَ لهم اي رجاء الا في الذي دعاهم.** ويسوع يعرف كل شيء عن الاخرين ايضا، اولئك الذين كانوا ممثلي الديانة الوطنية وكارزيها، الذين ينعمون بالشهرة والصيت الحسن، الذين يتمتعون بمراكز قوية في الارض، والذين تأصلوا في ثقافة الشعب وتوطدوا في تقواه وتكيفوا بروح العصر. مع ذلك فلم تكن الطوبى لهم، بل للتلاميذ الذين "**لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ**". وها قد بزغ فجر الملكوت على هذه الفئة القليلة من الناس الذين يعيشون حياة الحرمان والفقر لاجل يسوع. وهم في ذلك الفقر عينه ورثة الملكوت. ان كنزهم في الخفاء يجدونه على الصليب. ولهم وعد ان يتمتعوا يوما ما بمجد الملكوت الذى يتحقق مبدئيا في الفقر الكامل، فقر الصليب.

هذه التطويبة تختلف اختلافا تاما عن الصور الكاريكاتورية التي تظهر في الاعلانات والنشرات السياسية والاجتماعية. ان ضدّ المسيح هو ايضا يدعو الفقراء سعداء، لكن لسبب آخر غير الصليب الذي يرحّب بكل فقر ويحوّله الى نبعٍ للبركة. وهو يحارب الصليب بعقائد سياسية واجتماعية.

"**طُوبَى للحَزانَى، لأَنَّهمْ يتعزَّونَ.**" مع كل تطويبة تتّسع الهوة بين التلاميذ والشعب، وتصبح دعوتهم للخروج من الشعب اشد وضوحا وجلاء. وبالطبع يعني يسوع "**بالحزن**" ان يستغني تلاميذه عما يسميه العالم سلاما ورخاء. انه يعني رفض الانسجام مع العالم، او تكييف

الانسان نفسه بحسب مقاييس العالم. فهؤلاء التلاميذ وامثالهم يحزنون على العالم، وعلى شره، وعلى مسيره ومصيره. ويقفون بمعزل عن اعياده واجازاته، ويحزنون بينما العالم يغني قائلا "اجمع الزهور ما استطعت". فهم يرون ان السفينة ستغرق، مع كل ما يجرى على سطحها من طرب ومرح. يظل العالم يحلمّ بالتقدم والقوة والمستقبل الزاهر، اما التلاميذ فيتأملون في النهاية، في يوم الدين، وفي مجيء الملكوت. **وهذه مرتفعات سامية لا يستطيع العالم ان يصل اليها، لهذا فان التلاميذ غرباء في العالم، ضيوف لا يرحّب بهم احد، فهم يزعجون سلام العالم.** فلا عجب ان يرذلهم العالم. يتساءل الناس، ايتحتم على الكنيسة في اغلب الاحيان ان تطل من الخارج، عندما تُحيي الامة اعيادها؟ ألا يفهم اعضاء الكنيسة رفاقهم من بني البشر ويشتركون معهم، ويعطفون عليهم؟ هل صاروا يبغضون الناس؟ في الحقيقة لا يوجد من يحب رفاقه من بني البشر افضل مما يحبهم تلميذ المسيح، ولا يوجد من يفهمهم افضل مما يفهمهم اعضاء الاخوة المسيحية. وهذه المحبة عينها تلزمهم ان يقفوا على جانب وان يحزنوا. لقد كان لوثر على حق عندما ترجم الكلمة اليونانية هنا بمعنى "**حمل الحزن**" والتشديد ينصّب على كلمة "**حمل**" في عبارة "**حمل الحزن**". فان جماعة التلاميذ لا تنفض غبار الحزن، كأمر لا يعنيها، لكنها تحمله بسرور وعن طيب خاطر. وبهذا يبين للتلاميذ مقدار شدة الروابط الوثيقة التي تربطهم بسائر البشر. لكنهم في الوقت نفسه لا يخرجون عن طريقهم باحثين عن الالم، ولا يحاولون ان يجلبوا لانفسهم الما او يرتبطوا به بدون مبرر، باتخاذهم موقف الاحتقار تجاه العالم والازدراء به. انما يحملون الالم الذى يصادفهم في طريقهم، وهم يحاولون ان يتبعوا يسوع المسيح، فهم يحملونه لاجل المسيح. ان

الحزن لا يستطيع ان يُضنيهم او يُفنيهم. انه لا يستطيع ان يغيظهم او يحطمهم تحت ضغطه القاسي، لانهم يحملون حزنهم بقوة ذاك الذي يحملهم، الذي حمل كل احزان العالم على الصليب. انهم يقفون حاملي الحزن في شركة مع المصلوب. **يقفون كغرباء في العالم بقوة ذاك الذي كان غريبا عن العالم حتى صلبه العالم.** وهذا عزاؤهم، بل الافضل ان نقول ان هذا الانسان هو عزاؤهم، فهو المعزيّ (انظر لوقا٢: ٢٥). لذلك يجد هؤلاء الغرباء عزاءهم في الصليب، فهم يتعزون اذ يلقي بهم العالم في المكان الذى فيه ينتظرهم المعزى. اذن، يجدون موطنهم الحقيقي مع ربهم المصلوب هنا وفي الابدية.

"**طُوبَى للوُدعَاء، لأَنَّهمْ يرِثُون الأرضَ.**" هذه الجماعة المكونة من غرباء لا تملك في ذاتها حقا يحمي اعضاءها في العالم، وليس لهم ان يدّعوا حقا مثل هذا، لانهم ودعاء، يتركون كل حق لذواتهم، ويحيون لاجل المسيح يسوع. اذا عُيّروا سكتوا، واذا عوملوا بعنف احتملوا صابرين، واذا طردهم الناس من امام وجوههم تركوا مكانهم راضين... لا يذهبون الى المحاكم ليدافعوا عن حقوقهم، ولا يلفتون نظر الناس اليهم اذا تألموا ظلما، ولا يصرّون على المطالبة بحقوقهم المشروعة. لقد صمموا ان يتركوا حقوقهم في يَدَي الله وحده، ولا يسعون للانتقام لانفسهم. ان حقهم هو في ارادة سيدهم، ولا شيء غير ذلك. وتراهم يظهرون بكل كلمة من كلامهم وحركة من حركاتهم انهم ليسوا من هذه الارض. لذلك يقول عنهم العالم بنغمة الرثاء والسخرية: اتركوا السماء لهم فهم ينتمون اليها (كتب الامبراطور جوليان رسالة هزأ فيها بالمسيحيين قائلا انه انما استولى على اموالهم لكي يجعلهم فقراء جدا بحيث يتمكنون من ان يدخلوا ملكوت السموات- المترجم). لكن يسوع يقول "**انهم يرثون**

الارض". هؤلاء الذين لا حول ولا طول لهم، هؤلاء المحرومون من كل الامتيازات، لهم الارض نفسها. فان اولئك الذين يملكونها الان ظلما واغتصابا سيفقدونها، اما اولئك الذين رفضوها نهائيا، اولئك الودعاء الى درجة تحمّل الصليب، فسيملكون الارض الجديدة. ويجب ان لا نفسر هذا بأنه اشارة الى عقاب قضائي يجريه الله داخل العالم، كما يقول "**كلفين**" فان معناه هو انه عندما ينزل ملكوت السموات، سيتجدد وجه الارض، وتصبح الارض ملكا لقطيع المسيح. ان الله لا يترك الارض، فقد صنعها وارسل ابنه اليها، وعليها بنى كنيسته. وهكذا نرى بداية قد حدثت على الارض في هذا العصر الحاضر، واعطيت علامة لذلك، فها هم هؤلاء الضعفاء الذين لا حول ولا طول لهم، قد فازوا بقطعة ارض على خريطة العالم، اذ صارت لهم الكنيسة وشركتها وخيراتها، واخوتها، واخواتها، وسط اضطهادات مريرة تمتد الى الصليب. **ان تجديد الارض يبدأ في الجلجثة، حيث مات الشخص الوديع، ومن هناك سينتشر ويمتد.** وعندما يأتي الملكوت اخيرا سيملك الودعاء الارض.

"**طُوبَى للْجيَاع والعطَاش إلى البرّ، لأَنَّهمْ يُشبَعُون.**" ان اتباع المسيح لا يتركون حقوقهم فقط، بل يتركون ايضا برهم الخاص. فهم لا يحصلون على مديح او ثناء لقاء اعمالهم او تضحياتهم. **ولا يمكن ان يكون لهم بر الا بجوعهم وعطشهم للبر** (وهذا ينطبق على برهم الخاص كما ينطبق على بر الله على الارض)، وهم يتطلعون دائما الى الامام الى بر الله القادم، لكنهم لا يستطيعون ان يثبتوه لانفسهم. ان الذين يتبعون المسيح يظلون يجوعون ويعطشون في الطريق، وبعد ان ينالوا غفران كل الخطايا وجِدَّةَ الحياة لا يزالون يتوقون الى تجديد العالم وبر الله الكامل. اجل انهم لا يزالون متورّطين في لعنة العالم، ومتأثرين بخطيته.

ان ذاك الذى يتبعونه، كان عليه ان يموت موت اللعنة على الصليب، وعلى شفتيه صرخة مريرة للبر "الهي الهي لماذا تركتني؟" لكن ليس التلميذ افضل من معلمه، فعليه اذن ان يتبع خطواته. فما اسعد الذين لهم الوعد بأنهم سيشبعون، لان البر الذى سينالونه لن يكون وعدا فارغا، بل شبعا حقيقيا. انهم سيأكلون خبز الحياة، في الوليمة المسيحية. انهم سعداء لانهم يتمتعون بهذا الخبز ، هنا والان، لانه لا شيء يسندهم في جوعهم سوى خبز الحياة الذى هو غبطة الخطاة.

"**طُوبَى للرُّحماءِ، لأنَّهمْ يُرحَمُون.**" هؤلاء الناس الذين لا يملكون مالا، ولا قوة، هؤلاء الغرباء على الارض، هؤلاء الخطاة، اتباع يسوع، قد تركوا ونبذوا من حياتهم كرامتهم الشخصية، فهم يُرحَمون. هم يحملون في انفسهم ضيقات الاخرين وحقارتهم ومذلتهم، كما لو كانت احتياجاتهم وضيقاتهم غير كافية لهم. ان حبهم للمذلّين، والمرضى، والبؤساء، والمظلومين، والمنبوذين، وكل من يضنيهم القلق والهمّ، حب دافق لا يقاوم، فتراهم يذهبون ويفتشون عمن اربكتهم عذابات الخطية والذنوب. فلا ضيق افظع، ولا خطية اشنع من ان تستدرّ عطفهم. فان سقط احدهم في عار او فضيحة، يضحي هؤلاء الرحماء بكرامتهم ليحموه ويستروه ويحملوا عاره في انفسهم. وتراهم يختلطون بالعشارين والخطاة، لا يعبأون بالعار الذى يلحقهم من جراء ذلك. وهم في سبيل عطفهم ورحمتهم على الاخرين يضحون بأعظم كنز وانفس ذخر يعتز به الانسان، أعني شرفهم وكرامتهم الشخصية. فان الكرامة الاسمى، بل الشرف الاوحد الذى يعرفونه هو رحمة ربهم الخاصة، التي يدينون لها وحدها بحياتهم. ولم يستح السيد بتلاميذه، بل قد صار اخا للبشر، وحمل عارهم حتى الموت موت الصليب. بهذا كان يسوع المصلوب رحيما.

فاتباعه يدينون بحياتهم لتلك الرحمة التي تجعلهم ينسون شرفهم وكرامتهم، ويرغبون في عشرة الخطاة. انهم يرحبون بالعار، لانهم يعلمون انهم بذلك يُرحمون. وهم يرون ان الههم نفسه سينزل ذات يوم ويحمل في نفسه خطاياهم وعارهم، ويسترهم بشرفه هو، وينزع عارهم. وسيكون مجده ان يحمل عار الخطاة وان يسترهم بمجده. اذن طوبي للرحماء لان ربهم هو الرحيم.

"**طُوبَى للأَنقِياءِ القَلبِ، لأَنَّهمْ يعَايِنون الله.**" من هم انقياء القلب؟ هم اولئك الذين سلموا قلوبهم بتمامها للمسيح، حتى يملك عليها وحده. الذين لم تتنجس قلوبهم بشرّهم الخاص، ولا ببرهم وفضائلهم الخاصة. ان لانقياء القلب بساطة الاطفال، وبراءة آدم قبل السقوط، براءةً من الخير ومن الشر. والذى يسيطر على قلوبهم انما هو ارادة المسيح، لا ضميرهم. فان نَبَذَ الناس صلاحهم، ونبذوا بالتوبة قلوبهم، واعتمدوا كلية على يسوع وحده، فعندئذ تنقّي كلمته قلوبهم. ان نقاوة القلب التي يدور الكلام عليها هنا تختلف عن النقاوة الخارجية، بل عن نقاوة المقاصد السامية. فالنقي القلب نقي من الخير والشر، وهو للمسيح بجملته وليس لسواه، ولا ينظر الا اليه وهو يسير امامه. هؤلاء وحدهم يعاينون الله، فقد تطلعوا في هذه الحياة الى يسوع المسيح ابن الله، واليه وحده. عندئذ تتحرر قلوبهم من التصورات المنجّسة، ولا تشتّت نفوسهم رغائب ومقاصدً متنازعة. ان التأمل في الله يستبدّ بكل ميولهم ويستأثر بكل حياتهم. الذين تعكس قلوبهم صورة يسوع المسيح، هم الذين يعاينون الله.

"**طُوبَى لصَانعي السَّلام، لأَنَّهمْ أبْنَاء الله يُدعَون.**" لقد دُعي اتباع يسوع للسلام. عندما دعاهم وجدوا السلام، لانه هو سلامهم، وها هو

الآن يخبرهم انه يجب ليس فقط ان يكون عندهم سلام، بل ان يصنعوا السلام. ولهذه الغاية عليهم ان يتخلوا عن كل عنف وكل ازعاج اذ مثل هذه الوسائل لا تحقق شيئا في عمل المسيح. ان ملكوته ملكوت سلام، وتحية قطيعه بعضهم لبعض هي تحية السلام. ان تلاميذه يحفظون السلام، وهم باختيارهم يحتملون الالم، ولا يسببونه للاخرين. ويحافظون على الشركة حين يحاول آخرون تحطيمها. انهم يتخلون عن الاعتداد بذواتهم، ويتألمون صابرين هادئين حينما يواجهون البغضة والظلم. وهم اذ يفعلون ذلك يغلبون الشر بالخير، ويوطدون السلام وسط عالم تمزقه الحروب والبغضاء. ولا يتجلى ذلك السلام بأجلى وضوح، مثلما يتجلى حينما يواجهون الاشرار في ملء السلام وهم مستعدون لتقبّل الالم على ايديهم. ان صانعي السلام يحملون الصليب مع سيدهم، لانه على الصليب صنع السلام. وها هم الان شركاء مع المسيح في عمل المصالحة، فانهم يُدعون ابناء اللّه كما انه هو ابن اللّه.

"**طُوبَى للمَطرُودينَ مِن أجْل البرّ، لأنَّ لَهمْ ملكوتَ السَّماوات.**" هذا البر لا يشير الى بر اللّه، بل يشير الى الالم في سبيل قضية عادلة، اذ يتألمون لاجل اعمالهم واحكامهم العادلة. لانهم عندما يتركون اموالهم، وثروتهم، وحقوقهم، وبرهم، وكرامتهم، وقوتهم لاجل المسيح، فبذلك يتميزون عن العالم. سيتضايق العالم وينزعج بسبب برّ التلاميذ ولذا سيضُطهدون من اجل البر. وسيكون جزاؤهم من العالم عن رسالتهم واعمالهم الرفض لا القبول. ومن المهم ان نلاحظ ان يسوع يمنح هذه الغبطة، ليس فقط للذين يتألمون بسبب اعترافهم به مباشرة، بل ايضا للذين يتألمون في ايه قضية عادلة. انهم ينالون الوعد الذى اعطي للمساكين، لانهم في الاضطهاد يعادلونهم في الفقر.

امّا وقد وصلنا الى نهاية التطويبات فمن الطبيعي ان نسأل: هل هناك مكان على الارض فيه هذه الهيئة التي وصفها المسيح هنا؟ واضح جليا ان هناك مكانا واحدا، لا غير، وهو المكان الذى يوجد فيه اشد الناس فقرا، ووداعة، واكثرهم معاناة للالم- ذلك المكان على صليب الجلجثة. فالجماعة التي هي موضوع التطويبات هي جماعة المصلوب. فمعه تخسر الكل، ومعه تجد الكل. فالصليب يجعل القول "طوبى، طوبى" ممكنا.

والطوبى الاخيرة توجه للتلاميذ مباشرة، لانهم هم وحدهم يستطيعون ان يفهمونها. "**طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّروكُمْ وطَردوكُمْ وقالوا عليكمْ كلَّ كلمة شرّيرة، من أجْلي، كاذبين. افرَحوا وتهلَّلوا، لأنَّ أجرَكُمْ عَظيمٌ في السَّماواتِ، فإنَّهمْ هكذا طرَدوا الأَنبِيَاء الَّذينَ قبلَكُمْ.**" ان التلاميذ يُعيَّرون لاجل المسيح (لاجلي) لذلك يقع تعييرهم عليه. فهو الذي يحمل ذنوبهم. ان اللعنة، والاضطهاد المميت، والتعيير الاثيم، تثبت حالة التلاميذ المجيدة في شركتهم مع يسوع. ولا يمكن ان يكون الامر بخلاف ذلك، لان هؤلاء الودعاء الغرباء لابد ان يُثيروا اهانة العالم وظُلمه لهم ولعنته عليهم. ان اصوات هؤلاء المساكين الودعاء عالية جدا في آذان الناس، وآلامهم صابرة وصامتة جدا، فان شهادة مَسْكَنَتِهم واحتمالهم لمظالم العالم قوية جدا. هذا الامر لا يُحتمل. فبينما يسوع يدعوهم سعداء، يصرخ العالم ويصيح: "خذوهم، خذوهم!" لكن الى اين؟ الى ملكوت السموات.

"**افرحُوا وتهلَّلوا، لأنَّ أجرَكُمْ عَظيمٌ في السَّماواتِ.**" هناك يُرى المساكين في منازل الفرح والبهجة، ويمسح الله بيده كل دمعة من عيون اولئك الذين انتهت الآن احزانهم. ويُطعم الجياع على مائدته. هناك نرى اجساد الشهداء، التي كانت مجروحة ومشوهة، وقد تمجّدت، ولبست

الثياب البيض، ثياب البر الابدي عوضا عن خِرَق الخطية والتوبة. وصدى هذا الفرح العميق يصل الى القطيع الصغير الموجودين هنا على الارض، والواقفين تحت الصليب وهم يسمعون يسوع يقول "**طوباكم**".



الفصل الثاني

الجماعة المنظورة

"أَنتمْ ملحُ الأرض، ولكنْ إنْ فَسد الملحُ فبمَاذا يُملّح؟ لا يصْلحُ بعْد لشيء، إلاَّ لأنْ يُطرَح خَارجًا ويُداسَ منَ النَّاس. أنتمْ نور العَالم. لا يُمكنُ أنْ تُخفَى مَدينَةٌ مَوضُوعةٌ علَى جبَل، وَلاَ يوقدُونَ سرَاجًا ويضَعُونَه تحْت المكيَال، بَل عَلى المنَارَة فَيُضيء لجَميع الَّذين في البَيت. فليُضئ نوركمْ هكَذا قدَّام النَّاس، لكَي يروا أعْمَالكم الحَسنَة، ويُمجِّدوا أباكمُ الَّذي في السَّماوات." (متى ٥: ١٣-١٦).

وُجّهت هذه الكلمات الى السامعين الذين وجهت اليهم التطوبيات، اى اولئك الذين دعوا لاتباع المصلوب في حياة النعمة. ولابد ان يكون قد انطبع في اذهاننا من التطوبيات ان اولئك السعداء هم افضل من ان يكونوا فى هذا العالم، وهم اهل لان يعيشوا في السماء فقط. لكن ها هو يسوع يدعوهم ملح الارض، الملح الذى هو اعظم ضرورة ملحّة لا يستغنى عنها في الحياة. فالتلاميذ هم اعظم خير، واسمى قيمة تملكها الارض، وبدونها لا يمكن ان تعيش. هم الملح الذى يحفظ الارض، ولاجلهم قد وجدت الارض. اجل لقد وجدت لاجل هؤلاء المساكين، الادنياء، الضعفاء، الذين يرذلهم العالم. فالارض وهي تنبذ هؤلاء التلاميذ وتطرحهم خارجا تعمل على فناء حياتها ذاتها. مع ذلك فأعجبُ العجب ان الارض انما يُسمح لها بالبقاء لاجل هؤلاء المنبوذين. ان الملح الالهي كما يدعوه هوميروس يحفظ ذاته باتمام وظيفته الصحيحة. فهو يتخلل كل الارض،

وبه تبقى الارض. لهذا، على التلاميذ ان لا يفتكروا فقط في السماء، اذ ان لهم عملا ايضا على الارض. والان وقد ارتبطوا بالمسيح لا سواه، فها هو يخبرهم ان ينظروا الى الارض التي هم ملحها. ونلاحظ ان يسوع لا يدعو نفسه بل يدعو تلاميذه بأنهم ملح الارض، لانه يَكِلُ اليهم عمله في الارض. ولكن الملح لا يستطيع ان يحفظ الارض ما لم يحتفظ بخواصه وهي عناصر التطهير والملوحة. لذلك يجب ان يظل الملح ملحا لخيره وخير الارض. ويجب ان تظل جماعة التلاميذ امينة للرسالة التي منحتها اياها دعوة المسيح. هذه وظيفتها الصحيحة على الارض، وهي التي تمنحها قوتها الحافظة. يقال ان الملح لا يفنى، ولا يمكن ان يفقد خواصه المطهرة. لهذا كان يلزم وجود الملح في الذبائح الطقسية في العهد القديم، ولهذا يُوضع الملح في طقس العماد في الكنيسة اللاتينية في فم الطفل (انظر خروج ٣٠: ٣٥ وحزقيال١٦: ٤). لنا في عدم فناء الملح ضمان لبقاء الجماعة الالهية.

قال يسوع "أَنتمْ ملحُ" ولم يقل "يجب ان تكونوا ملحا". فليس للتلاميذ ان يقرروا هل يكونون ملح الارض ام لا، لانهم بالدعوة التي قبلوها صاروا ملحا، سواء ارادوا ام لم يريدوا. ثم نلاحظ ايضا انه قال لهم "أَنتمْ ملحُ" ولم يقل لهم "عندكم ملح". فلما ربط المصلحون الملح بالمناداة الرسولية سلبوا المعنى قوته. لان الكلمة تشير الى كيانهم كله بمقدار تأصله الجديد في دعوة المسيح، هذا الكيان نفسه الذى هو جوهر التطويبات. فان دعوة المسيح تجعل الذين يستجيبون لها، ملح الارض في كيانهم بجملته.

لكن بالطبع هناك احتمال آخر. فقد يفقد الملح ملوحته، ولا يكون ملحا بالمرة. عند ذلك يبطل عمله، ولا يصلح لشيء الا لان يطرح خارجا. هذه هي الخاصية المميّزة للملح. كل شيء يُملَّح بملح، لكن ان فسد الملح

وفقد ملوحته، فلا يمكن ان يُملَّح مرة اخرى بأي شيء. كل شيء يمكن ان يُحفظ من الفساد بملح، اما الملح الذى فقد ملوحته، فقد ضاع الرجاء في انقاذه. هذا هو الجانب الآخر للملح. هذه هي الدينونة المُصلَتَة كالسيف على جماعة التلاميذ التي سُلِّمت لها رسالة انقاذ العالم، والتي ان كفت عن ان تحيا في مستوى تلك الرسالة، تفقد هي نفسها الرجاء في البقاء. ذلك ان دعوة المسيح إما ان تعني ان تكون ملح الارض، والا تفنى. فإما ان نتبع الدعوة، والا سحقتنا الدعوة سحقا. ولا يوجد مجال لفرصة اخرى.

ان دعوة يسوع تجعل جماعة التلاميذ لا ملحا للارض فقط بل ايضا نورا للعالم. نورهم ظاهر وفي نفس الوقت لا يشعر به: "أنتمْ نور العَالِم". نلاحظ مرة اخرى ان المسيح لم يقل لهم: "ستكونون نور العالم" فلقد صاروا نورا لان المسيح دعاهم. هم نور يرى من الناس، ولا يمكن ان يكونوا غير ذلك. ولو كانوا غير ذلك، لدلّ على انهم لم يُدعوا. فلقد كان من المتعذّر تماما عليهم، بل كان منتهى السخافة والغباء ان يحاول هؤلاء التلاميذ- أو اي رجال مثل هؤلاء التلاميذ، ان يصيروا نور العالم. هذا مستحيل، انما لقد سبق لهم ان صاروا نورا، فان الدعوة صيّرتهم كذلك. ولم يقل لهم يسوع "عندكم النور"، فليس النور اداة وُضعت في ايديهم، مثل التبشير، بل كان النور هو التلاميذ انفسهم. ان المسيح الذى قال عن نفسه "انا هو النور" يقول لاتباعه "**انتم النور في كل كيانكم، بشرط ان تظلوا امناء لدعوتكم. وحيث انكم انتم ذلك النور، فلا يمكن ان تختفوا، حتى ولو اردتم ذلك**". من طبيعة النور ان يُشرق. والمدينة الموضوعة على جبل لا يمكن ان تخفى، بل لا بد ان تُرى على بعد اميال، سواء كانت ابراجًا مسوّرة، او حصنا منيعا او خراباً يباباً. المدينة الموضوعة على جبل مثل "اورشليم المرتفعة" هي جماعة التلاميذ. لكن هذا لا يعنى ان

التلاميذ عليهم الان ان يتخذوا اول قرار. فان القرار الوحيد الضروري قد سبق ان اتُّخذ. انما عليهم الان ان يكونوا كما هم في حقيقتهم- و الا فلن يكونوا تابعي المسيح. ان تابعي المسيح هم جماعة منظورة، واتّباعهم يظهر واضحا في العمل الذى يرفعهم عن العالم - و الا فلن يكون، اتّباعا. وبالطبع فان اتّباعهم يظهر للعالم ظهور نور في الظلام او جبل عالٍ فوق سهل منبسط.

ان الهروب ومحاولة اخفاء النور انكار للدعوة. فأيَّة جماعة من جماعات يسوع تحاول ان تخفي نفسها تعتبر انها قد كفَّت عن اتّباعه: "**وَلاَ يوقدُونَ سراجًا ويضعُونَه تحتْ المكيَال، بَل عَلى المنَارَة فَيُضيء لجَميع الَّذين في البَيت**". مرة اخرى يواجهنا بديل. فان النور قد يخفى باختيارِه، وقد ينطفىء تحت مكيال، وبذلك يحدث تنكّر للدعوة . والمكيال الذي يُخفي النور قد يكون الخوف من الناس، او قد يكون مجاراة متعمَّدة للعالم لغاية اخرى، كهدف مُرسَليّ او انسانية عاطفية مثلا ، او قد يكون باعثا اردأ من ذلك وافظع. قد يكون ما يسمى "**بلاهوت الاصلاح**" الذى ينتحل بجرأة اسم "**لآهوت الازمة**" ويزعم بل يتظاهر انه يفضّل الاختفاء المتواضع على الافتخار الفريسي، وهو يعنى عمليا المجاراة للعالم. وعند ذلك تصبح دمغة الكنيسة الانصياع للقانون الطبيعى بدلا من ان تكون رؤيا ظاهرة فائقة الطبيعة. ويصبح فشل النور وعجزه عن الاشراق محكّ مسيحيتنا. لكن يسوع يقول "**فليُضِئ نوركمْ هكَذا قدَّام النَّاس**". ان التشديد هنا هو على ان نور دعوة يسوع المسيح هو الذى يشرق. لكن أي نور هو هذا الذى يُطلب من تابعي المسيح، تلاميذ التطوبيات، ان يضيئوه على الارض؟ اى نوع من النور يشرق من المكان الذى لا حقّ لاحد غير التلاميذ ان يوجد فيه؟ كيف نوفّق بين غموض صليب المسيح وبين النور

الذى يشرق؟ ألا ينبغي ان تكون الحياة المسيحية غامضة وخافية مثل الصليب نفسه؟ اليس النور هو بالضبط ما يجب ان يتجنبه التلاميذ؟ يا لها من سفسطة شريرة ان نبرر عالمية الكنيسة بصليب يسوع. اليس واضحا جليا لابسط سامع ان الصليب هو نفس المكان الذى ظهر فيه امر منظور فائق خارق الطبيعة؟ ام ان الصليب ليس اكثر من انصياع لقانون طبيعي؟ هل هو يدافع عن العالمية؟ اليس الصليب ظاهرا بشكل فائق خارق لكل الظلام امام عيون جميع المشاهدين المذعورين؟ هل رفضُ المسيح وآلامُهُ وموتهُ خارج ابواب المدينة على تلة العار غيرُ ظاهرة ظهورا كافيا؟ أهذه كلها هي المقصود بالاحتجاب والتواري؟

ان المقصود هو ان اعمال تلاميذ المسيح الحسنة تُرى في هذا النور. فلا يرى الناس التلاميذ، بل يرون اعمالهم الحسنة، كما يقول المسيح. وليست هذه الاعمال سوى تلك الاعمال التي خلقها الرب يسوع المسيح نفسه فيهم بدعوته اياهم ان يكونوا نور العالم تحت ظل صليبه. والاعمال الحسنة هى الفقر والتغرُّب والوداعة، والمسالمة، واخيرا الاضطهاد والرفض. كل هذه الاعمال الحسنة هي حمل لصليب يسوع المسيح. فالصليب هو النور العجيب الغريب الذى يضيء وحده اعمال التلاميذ الحسنة هذه. ويقول المسيح ان الناس لا ينظرون الله، بل ينظرون الاعمال الحسنة ويمجدون الله بسببها. ان الصليب واعمال الصليب من فقر وترك كل شيء، هذه الاعمال التي يقوم بها السعداء المذكورون في التطويبات، هي الاشياء التي تصبح منظورة. فلا الصليب، ولا العضوية في جماعة كهذه تدل على اى فضل في التلاميذ انفسهم، بل الفضل كله لله وحده. لو كانت هذه الاعمال الحسنة مجموعة من الفضائل البشرية، لكان علينا ان نمجّد التلاميذ، ولا نمجّد الله. لكن ليس لنا ما نفتخر به او نمجده في التلميذ الذى

يحمل الصليب، ولا في الجماعة التي يضيء نورها لانها موضوعة على جبل عال- انما كل المجد وكل الثناء لاجل هذه "الاعمال الحسنة" للاب الذى في السموات وحده. ان الناس يؤمنون بالله عندما يرون الصليب والجماعة التي تحته. وهذا النور هو نور القيامة.



الفصل الثالث

برّ المسيح

"لا تَظنّوا أنّي جِئتُ لأنقُضَ النّاموس أو الأنبِيَاء. مَا جِئتُ لأنقُضَ بَل لأكَمّل. فإنّي الحقّ أقُول لكمْ: إلى أنْ تزُول السَّماء والأرض لا يزُول حَرفٌ واحدٌ أو نقطةٌ واحدةٌ منَ النَّاموس حتَّى يكُون الكلّ. فمنْ نقضَ إحْدَى هذه الوصايا الصّغْرى وعلّم النَّاس هكَذا، يدْعى أصْغر في ملكوت السَّماوَات. وأمَّا منْ عمل وعلَّم، فهذا يدعى عظيمًا في ملكوت السَّماوَات. فإنّي أقُول لكمْ: إنّكمْ إنْ لمْ يَزدْ برّكمْ على الكَتَبةِ والفرّيسيّين لنْ تدْخلوا ملكوتَ السَّماوَاتِ"(متى٥: ١٧-٢٠).

لا نستغرب ابدا ان يكون التلاميذ قد تصوّروا ان الشريعة قد نقضت او نُسخت، عندما قدّم المسيح مواعيد كهذه. لان هذه المواعيد قلبت كل الافكار الشائعة عن الخطأ والصواب رأسا على عقب، ونطقت بالبركة لكل ما كان يُحسب تافهًا. لقد تكلم يسوع لتلاميذه ووصفهم بأناس يملكون الان كل شيء بنعمة الله السائدة، كورثة ظاهرين لملكوت الله. وها هم ينعمون بشركة تامة مع المسيح الذى صنع كل شيء جديدا. هم الملح، والنور، والمدينة الموضوعة على جبل. لقد ماتت الحياة العتيقة وانتهى امرها. فما كان اشد التجربة عليهم ان يفترضوا ان المسيح قضى على النظام القديم بضربة قاضية، بنقض شريعة العهد القديم، وجعل اتباعه احرارا ينعمون بحرّية ابن الله . كان للتلاميذ بعد كل هذا ان يظنوا كما ظن ماركيون الذى اتهم اليهود بتحريف النص وتغييره، فقد كان اصله

حسب زعمه "هل تظنون اني جئت لاكمّل الناموس او الانبياء؟ ما جئت لاكمّل بل لأنقض". وكثيرون آخرون منذ عهد ماركيون يقرأون قول يسوع هذا ويفسرونه كأن هذا ما قاله فعلا. لكن يسوع قال: "**لاتظنوا اني جئت لأنقض الناموس او الانبياء...**" وبهذا القول يثبّت المسيح سلطان شريعة العهد القديم.

كيف يُفهم هذا؟ نحن نعلم ان المسيح يكلم اتباعه الذين يدينون له بالولاء الكلي التام. ولم يسمح لاية شريعة ان تقف حائلا بينه وبين شركته مع تلاميذه. ومن كلام المسيح في لوقا ٩: ٥٧ وما يليه عرفنا ان «**اتّباع المسيح**» معناه الالتصاق بيسوع المسيح وحده، والالتصاق به مباشرة. لكن ها هم يرون هنا مفاجأة وهي ان التلاميذ مرتبطون بشريعة العهد القديم. ولهذا الامر اهمية مزدوجة. فان معناه **اولا**: هو ان الولاء للشريعة يختلف عن اتّباع المسيح. ومعناه **ثانيا**: ان أَي التصاق بشخصه يُغفل الشريعة هو كذلك بعيد عن اتّباعه. ويسوع نفسه هو الذى وجّه الى الشريعة اولئك الذين منحهم كل وعده و كل شركته. ولأن ربهم هو الذي وجَّههم، صار لزاما عليهم ان يحترموا الشريعة. والسؤال الذي لابد منه هو: ما هي سلطتنا العليا، المسيح ام الناموس؟ بماذا نرتبط؟ قال المسيح انه لا يسمح لأي ناموس ان يتوسط بينه وبين تلاميذه. وها هو الان يقول لنا اننا ان تركنا الناموس نفصل انفسنا عنه. فماذا يعني بالضبط؟

ان الناموس الذى يشير اليه المسيح هو ناموس العهد القديم، وليس ناموسا جديدا. هو نفس الناموس الذى اقتبسه للشاب الغني، و للناموسي، عندما اراد ان يعرفا ارادة الله الموحى بها. وهذا الناموس يصبح جديدا فقط لان المسيح هو الذى يربط اتباعه به. فالناموس اذن للمسيحي ليس

ناموسا افضل من ناموس الفريسي، بل هو هو بعينه، ويجب ان يبقى، وان يحفظ كل حرف وكل نقطة فيه، الى منتهى العالم. لكن هناك برا افضل يُنتظر من المسيحيين بدونه لا يستطيع احد ان يدخل ملكوت السموات، لانه شرط للتلمذة لا غنى عنه. ولا يستطيع ان يحصل على هذا البر الأفضل الا الذين يكلمهم المسيح الان، اى اولئك الذين دعاهم. فدعوة المسيح، والمسيح نفسه في الحقيقة هما وحدهما الضمان لهذا البر الأفضل.

والان نستطيع ان نرى لماذا لم يقل يسوع شيئا عن نفسه في الموعظة على الجبل. فبين التلاميذ والبر الأفضل المطلوب منهم يقف شخص المسيح، الذى جاء ليكمّل ناموس العهد القديم. هذا هو الفرض الاساسي في كل العظة على الجبل. يسوع يُظهر اتحاده الكامل مع ارادة الله كما هى معلنة في ناموس العهد القديم وفي الانبياء. فليس له فعلا ما يضيفه الى وصايا الله، سوى انه يحفظها. فهو يكمل الشريعة، ويخبرنا هو نفسه بذلك فلابد ان يكون ذلك صحيحا. انه يكمل الشريعة الى آخر حرف وأخر نقطة. انما هذا يعني انه يجب ان يموت. وهو وحده يفهم طبيعة الناموس الحقيقية باعتباره ناموس الله. فليس الناموس في ذاته هو الله، وليس الله هو الناموس وقد كانت غلطة اليهود انهم وضعوا الناموس مكان الله، فجعلوا الناموس الههم، وجعلوا الههم ناموسا. وكان التلاميذ يجابهون خطرا فظيعا عكس ذلك، وهو خطر انكار الهية الشريعة انكار تاما، وفصل الله عن شريعته. والغلطتان تقودان الى نفس النتيجة. لقد حاول اليهود ان يستخدموا الناموس لاستغلال واضع الناموس بالخلط بين الله و الناموس. فابتُلع الله في الناموس، ولم يعد ربا للناموس. ولقد حاول التلاميذ ان يستغلوا الله بامتلاكهم الخلاص عندما تصوروا انه يمكن الفصل بين الله والناموس. وفي كلتا الحالتين حدث خلط بين

العطية و المعطي. لقد جرى جحود لله سواء كان بمعونة الناموس، او بوعد الخلاص.

لقد اثبت يسوع سلطة الناموس الإلهية وهو يجابه هاتين الغلطتين. ان الله هو واضع الناموس ورب الناموس، ولا يمكن اتمام الناموس الا بالشركة مع الله، ولا يمكن اتمام الشركة مع الله بدون اكمال الناموس. لقد كانت غلطة اليهود نسيان الشرط الاول، اما تجربة التلميذ فهي ان ينسى الشرط الثاني.

ان يسوع ابن الله الذى هو وحده يحيا حياة الشركة الكاملة مع الله، يثبت ناموس العهد القديم بمجيئه لاكماله. لقد كان هو الشخص الوحيد الذى اكمل الناموس، ولذلك فهو الوحيد الذى يستطيع ان يعلّم الناموس و يبين كيف يمكن ان يتممه الانسان تتميما صائبا. وكان من الطبيعي ان يفهم التلاميذ ذلك حالما نطق به المسيح، لانهم كانوا يعرفون من هو. اما اليهود فلم يستطيعوا ان يفهموا ذلك اذ انهم كانوا قد رفضوا ان يؤمنوا به. فكان اذن مُنتَظراً منهم ان يرفضوا تعليم المسيح عن الناموس، ويعتبروه تجديفا على الله، لانه كان تجديفا على ناموسه. ان يسوع، بطل الناموس الحقيقي، لابد ان يتألم على اَيدي ابطال الناموس المزيّفين فيموت على الصليب كمجدّف، ومتعدٍّ على الناموس، لانه بَّرأ الناموس الحقيقيّ ضدّ الناموس المزيّف.

ان الوسيلة الوحيدة لاكمال الناموس هي ان يموت يسوع كخاطىء على الصليب، وبذلك يجسّم اتمام الناموس اتماما تاماّ.

اى ان يسوع المسيح هو وحده يكمل الناموس، لانه هو وحده الذى عاش في شركة تامة مع الله. فيسوع نفسه هو الذى يتوسط بين التلاميذ

والناموس، وليس الناموس هو الذى يتوسط بين يسوع والتلاميذ. وهم يجدون طريقهم الى الناموس بواسطة صليب المسيح. لذلك عندما يوجه المسيح تلاميذه الى الناموس الذى هو وحده يتممه، فهو يتنازل عن رباط آخر بينه وبينهم. فلابد له ان يرفض الفكر القائل بأن الناس يمكن ان يلتصقوا به ويتحرروا من الناموس، لان ذلك ينطوي على حماسة متطرفة تدلُّ على ان الانسان مخيَّر بفعل ما يشاء بشكل يبعده عن الالتصاق بالمسيح. هذا يسكّن روع التلاميذ وقلقهم خوفا من ان الالتصاق بالشريعة سيفصلهم عن المسيح. ومثل هذا القلق انما ينتج عن نفس الخطأ الذى قطع اليهود عن الله. و المسيح عوضا عن ذلك قصد ان يتعلم التلاميذ ان الالتصاق الحقيقي به يعني الالتصاق بشريعة الله.

لكن ان كان يسوع يتوسط بين التلاميذ والناموس، فانما يفعل ذلك، لا ليعفيهم من الواجبات التي يفرضها عليهم، بل ليطالبهم باتمام الناموس. فحيث انهم مرتبطون، عليهم ان يطيعوا الشريعة كما يطيعها هو. وكون المسيح قد تمم الشريعة الى آخر حرف لا يعفيهم من نفس الطاعة. ان الناموس قد تم. هذا كل شيء. لكن هذا بالضبط ما يجعل الامر شرعيا وصحيحا لاول مرة، ولهذا السبب فمن يطيع الشريعة ويعلّم بها يكون عظيما في ملكوت السموات. والتعبير "**اذهبوا وعلموا**" يذكّرنا انه ميسور للانسان ان يعلّم الشريعة دون ان يتممها، ان يعلمها بطريقة معها لا يمكن اتمامها. ولا يقدّم يسوع اى ضمان لمثل هذا التعليم. ان الشريعة يجب ان تطاع تماما كما اطاعها يسوع نفسه. فاذا التصق الناس بذاك الذى تمم الشريعة وتبعوه، وجدوا انفسهم يعلّمون الشريعة ويتممونها. ولا يستطيع ان يظل في شركة مع يسوع الا من يعمل بالشريعة.

على ان ما يميز التلميذ عن اليهود ليس الشريعة بل "**البر الأفضل**".

وها هو المسيح يقول ان بر التلميذ يجب ان يزيد عن بر الكتبة ويفضله، ذلك لان بر التلميذ شيء غير عادي، بل خارق الطبيعة. وهذه اول مرة تقابلنا فيها كلمة "**يزيد**"، او يفضل ، تلك الكلمة المهمة الواردة في عدد ٤٧ والمترجمة "**فضل**". وعلينا ان نسأل كيف يختلف على وجه التدقيق بر الفريسيين عن بر التلميذ؟ لا شك ان الفريسيين لم يخطر قط ببالهم ان الشريعة يجب ان تعلّم ولا تطاع، فقد عرفوا كتابهم المقدس بطريقة افضل من ذلك. انما كان الاختلاف في طموحهم ان يكونوا عاملين بالشريعة. وكانت فكرتهم عن البر انه اتمام عملي حرفي للوصية. وكان مثلهم الاعلى ان يصوغوا سلوكهم حسب مطاليب الشريعة بالضبط. وقد عرفوا طبعا انهم لن يبلغوا ذلك المثل الاعلى. فكان لابد من زيادة يلزمها غفران الخطايا لسترها. لقد كانت طاعتهم دائما وابدا ناقصة. وكذلك الحال مع التلميذ، فان البر انما يأخذ صورة الطاعة للشريعة. ومن خاب في اتمام الشريعة لا يمكن ان يُحسب بارًّا. لكن التلميذ كان له ميزة يسمو بها على الفريسي، وهي ان اتمامه للشريعة كامل فعلاً. لكن كيف يتسنى له ذلك؟ يتسنى له ذلك في انه بين التلاميذ والشريعة يقف شخص اتم الشريعة اتماما كاملا، وهؤلاء التلاميذ يعيشون في شركة ووحدة مع ذلك الشخص. فهم لا يواجهون شريعة لم تكمل قط بل شريعة سبق ان اكملت مطاليبها. والبر الذى تطلبه قد سبق ان تمّ فهو موجود، وهو بر يسوع الذى يخضع للصليب، لان ذلك ما تطلبه الشريعة. **هذا البرّ اذن ليس مثالا غامضا، بل شركة مع الله، شركة شخصية حقيقية كاملة، ويسوع لا يملك هذا البر فقط، بل جسّمه في شخصه.** وهو بر التلاميذ. واذ دعاهم قبلهم في شركة مع نفسه، وجعلهم شركاء بره في كماله وملئه. هذا ما قصده يسوع عندما مهّد لتعليمه عن "البر الافضل" بالاشارة الى

اتمامه هو للشريعة. وبالطبع لا يمكن ان يكون بر التلاميذ شيئا يحققونه من ذواتهم شخصيا. بل هو دائما هبة قبلوها عندما دعاهم ان يتبعوه. وفي الواقع كان برهم يقوم فقط في اتباعهم اياه. وقد اعطاهم المسيح فى التطويبات وعدا لهذا البر بأجر في ملكوت السموات. هذا برٌّ تحت الصليب، برٌّ فقط للمساكين، والمجرَّبين، والجياع، والودعاء، وصانعي السلام، والمضطهدين، الذين يحتملون نصيبهم لاجل يسوع. هذا هو البر الظاهر المنظور، بر اولئك الذين لاجل يسوع هم نور العالم، وهم المدينة الموضوعة على جبل. في هذا يفوق بر التلميذ بر الفريسيين، لانه مؤسَّس فقط على دعوة للشركة مع ذاك الذي يتفرد وحده باتمام الشريعة. ان بر التلاميذ حقيقي فعلا، لانهم منذ دعوتهم يعملون ارادة الله، ويتممون شريعته بانفسهم. **ونكرر مرة اخرى انه لا يكفي تعليم شريعة المسيح، بل يجب اتمامها، والا فلا يكون الامر افضل من الشريعة القديمة.** وقد مضى المسيح فيما يلي يخبر التلاميذ كيف يمارسون بر المسيح. وهذا معناه بكلمة واحدة، اتّباعه. **هذا هو الايمان الحقيقي العامل في بر المسيح. انه شريعة جديدة، شريعة المسيح.**



الفصل الرابع

الأخ

"سَمعتُم أنَّه قيل للقُدماء: لا تَقْتل، ومنْ قَتل يكُون مُستوجب الحُكم. وأمَّا أنا فأقُول لكمْ: إنَّ كلَّ منْ يغضَب على أخيه باطلاً يكُون مُستَوجَب الحُكم، ومنْ قال لأَخيه: رقَا، يكُون مُستوجب المجْمع، ومنْ قال: يَا أحْمقُ، يكُون مُستوجب نار جهنَّم. فإنْ قدَّمت قربَانك إلى المذبَح، وهُناكَ تذكَّرت أنَّ لأَخيك شيئًا عَليكَ، فاترك هُناكَ قربَانك قدَّام المذبَح، واذْهب أوَّلاً اصطَلح مع أخيكَ، وحينئذ تعال وقدّم قرْبانك. كنْ مُراضيًا لخَصمكَ سريعًا مَا دمْت معهُ في الطَّريق، لئلاَّ يُسلّمكَ الخصمُ إلى القَاضي، ويُسلّمك القاضي إلى الشُّرطيّ، فَتلقَى في السّجن. الحقّ أقُول لك: لا تخرجُ منْ هنَاك حتَّى تُوفي الفلسَ الأخير" (متى٥: ٢١-٢٦).

"أمَّا أنا فأقُول لكمْ". بهذه العبارة لخصَّ المسيح كل فحوى الشريعة. فكل ما قاله يجعل من المتعذَّر ان نعتبره ثائرا، او معلّماً (ربيا) يقابل فكرة ضد اخرى، بل نرى يسوع على نقيض ذلك يستأنف البحث بعد قليل مؤكداً اتفاقه مع شريعة العهد الموسوى، ولكنه يوضح بكل جلاء انه هو ابن الله، هو مصدر الشريعة ومعطيها، وفي هذا نجده في اتحاد تام مع شريعة الله. واولئك الذين يدركون ان الشريعة هي كلمة المسيح، هم وحدهم الذين يستطيعون ان يتمموها. اما بدعة الفريسيين فينبغي رفضها بأى ثمن. ولا نستطيع ان ننال معرفة حقيقية للشريعة الا بمعرفة

المسيح كمعطي الشريعة ومتممها. لقد وضع المسيح يده على الشريعة، واعلن انها شريعته، وحقق مرامها وتمم غايتها. ومع انه في اتفاق تام مع الشريعة، الا انه يعلن حرباً شَعواءَ على كل تفسير خاطىء لها، وهو اذ يُكرمها يوقع نفسه بين أيدي اتباعها المزيَّفين.

واول شريعة يزكيها يسوع لتلاميذه هي الشريعة التي تحرّم القتل، وتضع مصالح اخيهم عهدة في ايديهم. ان حياة الاخ هي هبة إلهية، ولله وحده السلطان على الحياة والموت. فلا مكان للقاتل بين شعب الله. والدينونة التي يدين بها القاتل غيره، تقع عليه هو. وكلمة "**الاخ**" في القرينة لا تنحصر "**بالزميل المسيحي**"، لان تابع يسوع لا يضع حدودا لمن هو قريبه، غير ما يضعه ويقرّره سيده. فممنوع عليه ان يقتل احدًا، تحت طائلة الدينونة الإلهية. وعليه ان يعتبر حياة اخيه منطقة حرام، ليس له ان يمد يده اليها. بل حتى الغضب هو تخطي الحدود، وبنوع اكثر كلمة الغضب التي تأتي عرضيا (رقا) واشد من الكل الاهانة المتعمدة لاخينا بالقول "**يا احمق**".

ان الغضب هو دائما هجوم على حياة الاخ، لانه يأبى ان يدعه يحيا، ويهدف الى افنائه. ويسوع لا يقبل التمييز الشائع بان ثمة غضبا له مبرر وغضبا لا مبرر له. **فالتلميذ يجب ان يكون بريئا كل البراءة من الغضب، لان الغضب تعدٍّ على الله وعلى قريبه.** فكل كلمة بطّالة تصدر منا بدون اقل تفكير تبين عدم احترامنا لقريبنا، وتظهر اننا نضع انفسنا في مستوى اعلى منه، ونقيّم حياتنا اكثر من حياته. **ان كلمة الغضب هي صفعة قاسية لاخينا، وطعنة في قلبه، تهدف الى لطمه واذيته وافنائه.** والاهانة المتعمدة اشر من ذلك، لاننا بها نشهّر باخينا جهرًا في عيون العالم، ونجعل الاخرين يحتقرونه. **فعندما تلتهب قلوبنا ببغضه نسعى**

لقتله ماديا وادبيا. نحن بذلك ندينه، وهذا قتل. والقاتل سوف يُدان. عندما يغضب الانسان على اخيه، ويقسم حانقا عليه، وعندما يهينه او يشتمه علنا، يكون مذنبا بجريمة قتل، وينكر علاقته بالله. وهو بذلك يقيم حائطا حاجزا ليس بينه وبين اخيه فقط، بل ايضا بينه وبين الله. فلا يقدر فيما بعد ان يقترب اليه، ولا تكون ذبيحته ولا عبادته ولا صلاته مقبولة امامه. ذلك لان العبادة، بالنسبة للمسيحي، لا يمكن فصلها عن خدمة الاخوة، كما كان الحال عند معلمي اليهود. فان احتقرنا اخانا، اصبحت عبادتنا باطلة، وابطلت كل وعد الهي لنا. لذلك عندما نقترب امام الله بقلوب مملؤة من الاحتقار للاخرين وليست في سلام مع جيراننا، نكون عبّاد وثن، افرادا كنا ام كنيسة. فما دمنا نأبى ان نحب اخانا ونخدمه، وما دمنا نجعله موضع احتقار وازدراء ونجعل قلبه يغلي بالتذمر والتمرمر منا او من الكنيسة، فلن تكون عبادتنا ولا ذبائحنا مقبولة لدى الله. فالذى يقيم حائطا حاجزا بيني وبين الله ليس اني اغضب على احد فقط، بل لان الاذى والضرر يلحق بانسان بسببي، ويصبح له شيء عليّ. لهذا علينا ككنيسة ان نفحص انفسنا، ونرى ان كنا لم نخطىء مرارا ضد اخوتنا ورفاقنا. علينا ان نرى هل حاولنا ان ننال شهرة عن طريق بغضة العالم واحتقاره وتعييره. لاننا ان فعلنا ذلك نكون قتلة. لتفحص كنيسة المسيح نفسها اليوم، لترى هل توجد في ساعة الصلاة والعبادة اصوات ترتفع تجعل صلاتنا باطلة. لتفحص كنيسة المسيح نفسها لترى هل قدمنا اية بينة على محبة المسيح لضحايا عار العالم واحتقاره؟ هل قدمنا اية بينة على المحبة المسيح التي تسعى لحفظ الحياة ومساندتها وحمايتها؟ والا فمهما كانت طرق عبادتنا صحيحة وسليمة، ومهما كانت صلواتنا خاشعة متعبدة، ومهما كانت شهادتنا جريئة باسلة، فكلها لن تفيدنا شيئا، بل

بالاحرى تشهد علينا اننا قد توقفنا ككنيسة عن ان نتبع ربنا. **ان الله لا يمكن ان ينفصل عن اخينا، وهو لا يريد اكراما لنفسه ما دام اخونا يُحتقر.** ان الله اب، وهو ابو ربنا يسوع المسيح الذى صار اخا لنا جميعا. هذا هو السبب النهائي القاطع الذي لاجله لا ينفصل الله عن اخينا. لقد احتمل ابنه الوحيد العار والاهانة في سبيل مجد ابيه. ولا يمكن ان ينفصل الاب عن الابن، ولا ان يحوّل وجهه عن اولئك الذين رضي الابن ان يأخذ صورتهم، والذين لاجلهم احتمل العار. ان التجسد هو السبب النهائي الذي لاجله لا يمكن ان تنفصل عبادة الله وخدمة الله عن خدمة الانسان. **فمن قال انه يحب الله وابغض اخاه فهو كاذب.**

لهذا ليس هناك الا طريق واحدة لاتّباع يسوع وعبادة الله، وهي طريق المصالحة مع اخينا. فان اتينا لنسمع كلمة الله، ولنتناول الفرائض المقدسة، دون ان نصطلح اولا مع اخوتنا، فانما نأتي لهلاك انفسنا، اذ اننا نحسب قتلة في نظر الله. اذن "اذهب اولا اصطلح مع اخيك. وحينئذ تعال وقدم قربانك". هذا طريق صعب، لكنه الطريق الذي يتطلبه يسوع ان كنا نريد ان نتبعه. انه طريق يحمل لصاحبه الشيء الكثير من الاذلال والاهانة، لكنه في الحقيقة الطريق الذى يقودنا الى المسيح، اخينا المصلوب، وهو اذن طريق النعمة المتفاضلة. ان خدمة الله وخدمة اصغر واحد من اخوته هما في الحقيقة طريق واحدة في يسوع، ذلك الذى جاء واصطلح مع اخيه، وقدّم نفسه ذبيحة حقيقية واحدة لابيه.

نحن لا نزال في عصر النعمة، لان كل واحد منا لا يزال له اخ، ونحن ما زلنا "معه في الطريق". اما ساحة القضاء فهي امامنا مستقبلا، ولا تزال لنا فرصة ان نصطلح مع اخينا، وندفع ديوننا له. ان الساعة آتية لا مفرّ منها، عندما نمثل امام الديان وجها لوجه، عندئذ يكون قد مضى وفات

وقت الصلح. وعندئذ نتلقى الحكم علينا، ونُلزَم بان ندفع حتى الفلس الاخير. لكن هل ندرك ان اخانا يأتينا في هذه المرحلة الحاضرة لا في صورة الناموس، بل في صورة النعمة؟ فمن نعمة الله ان يسمح لنا ان نسترضي اخانا، وندفع ديننا له. من نعمة الله ان يسمح لنا ان نصطلح معه، ونجد في اخينا نعمة امام كرسي الدينونة.

بهذه الطريقة فقط يستطيع ان يتكلم الينا ذاك الذى هو اخونا، ذاك الذى صار هو نفسه نعمة لنا، وفداء، ومنقذا من الدينونة. ان ناسوت ابن الله يمنحنا هبة الاخ. فليت تلاميذ يسوع يفكرون في هذه النعمة التفكير السليم.

ان طريق خدمة اخينا، وارضائه، واعطائه حقه، وجعله يعيش، هو طريق انكار النفس، طريق الصليب- ليس لاحد حب اعظم من هذا ان يضع احد نفسه لاجل احبائه. هذه محبة المصلوب. ولا نستطيع ان نجد اكمال الناموس الا في صليب المسيح وحده.



الفصل الخامس

المرأة

"قدْ سَمعتُم أنَّه قيلَ للقُدماءِ: لا تزْن. وأمَّا أنا فأقُول لكمْ: إنَّ كلَّ منْ يَنظر إلى امرأةٍ ليشتهيها، فقدْ زنى بها في قَلبه. فإنْ كانتْ عينُكَ اليُمنَى تُعثرك فاقلَعْها وألقهَا عنْك، لأنَّه خيرٌ لك أنْ يهْلك أحَد أعْضائك ولاَ يلقَى جسدكَ كلُّه في جهنَّم. وإنْ كانتْ يدُكَ اليُمنَى تُعثرك فَاقطعها وألْقها عنْك، لأنَّه خَيرٌ لك أنْ يهْلك أحَد أعضَائك ولا يُلقَى جسدُك كلّه في جهنَّم.

وقيل: منْ طلَّق امْرأَته فَليعطها كتاب طلاَق. وأمَّا أنا فأقُول لكمْ: إنَّ منْ طلَّق امْرأَته إلاَّ لعلَّة الزّنَى يَجعلُها تزْني، ومنْ يتزوَّج مُطلّقةً فَإنَّه يزْني." (متى٥: ٢٧-٣٢).

ان اتّباع يسوع لا يترك مجالا لاية رغبة لا تصحبها المحبة. ذلك ان اتباع يسوع معناه انكار النفس، والتعلق التام به، لذا لا يمكن ان يسمح للارادة التي تسيطر عليها الشهوة ان تفعل ما تهواه. حتى الرغبة العابرة الزائلة قد تكون مانعا يعوقنا عن اتّباع يسوع، وتطرح الجسم كله في جهنم، اذ تجعلنا نبيع بكوريتنا السماوية لأجل اكلة عدس، وبذلك تظهر انه يُعوِزُنا الايمان بالمسيح الذى سيكافىء صلب الجسد بفرح مائة ضعف. وبدلا من ان نضع ثقتنا في غير المنظور، نفضّل ثمار الرغبة الملموسة، فننحرف عن سبيل التلمذة، ونفقد الصلة مع يسوع. ان الشهوة نجسة

لانها تنطوى على عدم الايمان، لذلك يجب ان نتجنبها. ولا توجد تضحية اعظم من ان نقوم بها، ما دامت تمكننا من الانتصار على الشهوة التي تقطعنا عن المسيح. فالعين واليد هما اقل من المسيح، فان استُخدمتا كآلات للشهوة، وحرمتا الجسم كله من نقاوة التلمذة، وجب التضحية بهما لاجل المسيح. ان كل ربح نجنيه من الشهوة تافه اذا ما قورن بالخسارة التي تجلبها تلك الشهوة. انك تخسر جسدك خسارة ابدية اذا استسلمت لشهوة وقتية عابرة من عينك او يدك. فعندما تجعل عينك آلة للنجاسة، لا تستطيع ان ترى الله بها. لذلك يجدر بنا ان نصمم تصميما جازما في هذه النقطة بالذات، تصميما نقوم به مرة واحدة والى الابد، نقرر بمقتضاه هل نأخذ وصايا يسوع بطريقة حرفية او مجازية، لان هذا امر حياة او موت. انما الذى يجيب عن هذا السؤال هو تصرّف التلاميذ. ان ميلنا الطبيعى يدعونا الى تجنب اتخاذ قرار حاسم في موضوع ظاهر خطير كهذا. لكن السؤال نفسه خطأ بل ردىء، ولا يسمح بجواب قاطع. فاننا اذا قررنا الا نأخذ وصايا يسوع حرفيا، نستهين بخطورة الوصية وجديتها، واذا قررنا من الناحية الاخرى ان نتخذ الامر حرفيا، تظهر بذلك سخافة الموقف المسيحي، ونبطل الوصية. وكوننا لا نجد جوابا لهذا السؤال يجعل الوصية امرا لا مفر منه. فاننا لا نستطيع ان نتجنب الامر بهذه الطريقة او تلك. بهذا نكون قد وصلنا الى نقطة يتحتم فيها علينا ان نطيع. ان يسوع لا يفرض على تلاميذه شروطا لا تُحتمل، لكنه يدعوهم ان ينظروا اليه ويتفرسوا فيه. وهو يعلم انهم ان فعلوا ذلك، ستكون نظرتهم طاهرة نقية، حتى عندما ينظرون الى امرأة. لذلك فهو لا يضع عليهم نير الطقسية الذى لا يحتمل، بل يساعدهم ويسندهم بنعمة الانجيل.

ان يسوع لا يأمر تلاميذه بالزواج، لكنه يقدّس الزواج حسب الشريعة

بالتشديد على عدم فسخه، وبمنع الطرف البرىء من التزوج ثانية، عندما يكسر الطرف المذنب الزواج بالزنى. وهذا التحريم يحرر الزواج من الرغبة الانانية الشريرة، ويكرسه لخدمة المحبة، التي تتيسر فقط في حياة الاتّباع. ان يسوع لا يحتقر الجسد وغرائزه الطبيعية، لكنه يدين عدم الايمان الكامن غالبا في رغائب الجسد. فهو لا يُلغي الزواج، بل بالاحرى يضعه على اساس اقوى، ويقدسه بالايمان. فان تعلُّق التلميذ بالمسيح والتصاقه به بطريقة جامعة مانعة، يمتد حتى الى حياته الزوجية. فان الزواج المسيحي يمتاز بضبط النفس وبالعفة. ان المسيح رب حتى على الزواج. هناك فرق بالطبع بين الفكر المسيحي والفكر الشائع عن الزواج، لكن المسيحية لا تحتقر الزواج بل تقدسه.

ان المسيح، بتشديده على عدم فسخ الزواج، يبدو وكأنه يناقض شريعة العهد القديم. لكن هناك فصلاً آخر (متى١٩:٨) يبين انه متفق فعلا مع شريعة موسى، فيه يقول ان الطلاق سُمح به "من اجل قساوة قلوبكم"، او بمعنى آخر لحفظكم من افراط أسوأ. فان غرض شريعة العهد القديم هو هو بعينه غرض يسوع. وهو التمسك بنقاوة الزواج، ومراعاة كونه يمارس بايمان في الله. الا ان الطهارة او العفة ممكنة فقط للذين يتبعون يسوع ويشاركونه حياته.

ومع عناية يسوع البالغة بالطهارة التامة، او بعفة التلاميذ، فانه يستحسن ايضا العزوبة التامة لاجل ملكوت السموات. لكنه لا يضع برنامجا معينا لتلاميذه، للعزوبة او للزواج، انما يحذّرهم فقط من الخطايا الجنسية داخل الحياة او خارجها. **الخطية الجنسية خطية لا ضد اجسادنا فقط، بل ضد جسد المسيح (١ كورنثوس٦: ١٣-١٥)**. فان اجسادنا نفسها هي للمسيح، ولها دورها في حياة التلميذ، لانها اعضاء

جسده. ان يسوع ابن الله اخذ جسدا بشريا، وحيث اننا نتمتع بشركة مع ذلك الجسد، فالزنى، اذن، يصبح خطية ضد جسد المسيح نفسه.

لقد صلب جسد يسوع. وبولس اذ يتكلم عن الذين هم للمسيح يقول **انهم قد صلبوا الجسد مع الاهواء والشهوات (غلاطية٥: ٢٤)**. امامنا هنا مثل آخر من شريعة العهد القديم يجد اتمامه الحقيقي في جسد يسوع المسيح المصلوب. وتلاميذ المسيح، اذ يتأملون في هذا الجسد الذى بُذل عنهم، ويشاركونه حياته، ينالون قوة للعفة والطهارة التي يطلبها يسوع.



الفصل السادس

الصدق

"أيْضًا سَمعتمْ أنَّه قيل للقُدماء: لا تَحنَث، بَل أوْف للرَّب أقْسامك. وأمَّا أنا فأقُول لكمْ: لا تحلفُوا البتَّة، لا بالسَّماء لأنَّها كرْسيّ الله، ولا بالأرض لأنَّها موْطئ قدميْه، ولا بأورشَليمَ لأنَّهَا مدينَة الملك العَظيم. ولا تَحلف برأسكَ، لأنَّك لا تقْدر أنْ تجْعل شَعرةً واحدةً بيْضاء أو سَوْداء. بَل ليكنْ كَلامُكَم: نعمْ نعمْ، لا لاَ. وما زادَ على ذلك فهُو منَ الشّرير." (متى٥: ٣٣-٣٧).

لا تزال الكنيسة حتى اليوم غير متأكدة من تفسير هذا الفصل. فمنذ عهد الكنيسة الاولى والمفسرون يتأرجحون بين صلابة صارمة ترفض كل قسم وتعتبره خطية، وبين موقف متساهل يرفض فقط القسم الطائش والحلف الكاذب. وكان التفسير الاكثر شيوعا في الكنيسة الاولى انه محرم على المسيحيين "**الكاملين**" ان يحلفوا بتاتا. اما الاخوة الاضعف فكان يُسمح لهم بالحلف في حدود معينة. ويمثّل اغسطينوس وجهة النظر الاخيرة. وقد وجد نفسه يتفق فيها مع تعاليم افلاطون، والفيثاغوريين، ومرقس أوريليوس، وغيرهم من الفلاسفة الوثنيين، الذين كانوا يرون ان القسم لا يتفق مع كرامة الانسان الشريف. وفي قوانين الايمان التي تنتسب للاصلاح يُذكر صريحا ان يسوع لم يعترض على القسم الذى تطلبه الدولة في ساحة المحكمة. ويقال في تأييد ذلك: الم يؤمر بصراحة بهذا القسم في العهد القديم؟ ان يسوع نفسه حلف امام المحكمة، وبولس

الرسول كثيرا ما يستعمل عبارات لها صورة القسم. وقد رأى المصلحون في الفرق بين الدائرة العالمية والدائرة الروحية عاملا مهما حاسما، يلي البرهان الكتابي.

ما هو القسم؟ هو نداء علني لله، فيه يدعوه المرء ان يكون شاهدا على عبارة يقولها عن حادثة او واقعة في الماضي او الحاضر او المستقبل. وعن طريق القسم يدعو الناس الله العالم بكل شيء ان يثبت الحق. فكيف يقول يسوع عن قسم كهذا انه خطية، وانه "من الشرير" اى من الشيطان؟ ان الجواب يتضح من اهتمام المسيح بالصدق الكامل.

ان مجرد وجود الحلف والاقسام برهان على وجود الكذب. فلو لم يكن الكذب موجودا ما كانت هناك حاجة الى الاقسام. فالهدف اذن هو ايجاد حاجز مانع ضد الكذب وعلى الرغم من ذلك فان القسم بطبيعته يعترف بالكذب ويشجعه الى درجة ما. وقد عبّر العهد القديم عن ادانته لهذا الكذب باستخدام القسم. اما يسوع فعبّر عن ادانته بتحريم الحلف والقسم كليا. فالعهد القديم ويسوع متفقان على الاهتمام بمنع الكذب في حياة المؤمن. فان القسم الذى وضعه العهد القديم ضد الكذب يستغله الكذب نفسه ويستخدمه لذاته. وبذلك يستطيع عن طريق القسم ان يثبت نفسه، مستعينا بالناموس في يديه. لذلك يرى المسيح انه يجب ان يقبض على الكذب في الموضع الذى لجأ اليه، اى موضع القسم. يجب نبذ القسم لانه ملجأ الكذب.

هناك سبيلان بهما يستطيع الكذب ان يقوّض القسم ويلاشيه، اما ان يندسّ خلسة في القسم فيصير حنثا، او ان يتنكر في صورة قسم بدعاء قوة دنيوية او الهية بدلا من الحلف بالاله الحي. فما دام الكذب يتوارى

خلف القسم بصورة او باخرى فلا سبيل لضمان الصدق التام الا بالغاء القسم بتة.

"**ليكنْ كَلامُكَم: نعمْ نعمْ، لاَ لاَ**". وهذا لا يعني اعفاء التلاميذ من ان يجيبوا الاله العليم بكل شيء عن كل كلمة ينطقون بها، بل يعني بالاحرى ان كل كلمة ينطقون بها انما ينطقون بها في حضرته، وليس فقط الكلام المصحوب بالقسم. لذلك يُحرَّم عليهم القسم بتاتا، اذ انهم ينطقون دائما وابدا بالحق، ولا شيء غير الحق، فلا حاجة بهم للقسم، اذ انه انما يُلقي شكاً على صدق اقوالهم. لهذا فالقسم هو "من الشرير". اما التلميذ فيجب ان يكون نوراً حتى في كلامه.

فيتضح اذن ان السبب الوحيد الذى لاجله يُحرَّم يسوع الحلف والقسم، هو اهتمامه التام بالصدق. ويتضح ايضا بجلاء لا يقبل الجدل ان يسوع لا يستثني من هذه القاعدة شيئا البتة. لكننا نسلّم في نفس الوقت، ان الغاء القسم لا يضمن في ذاته ان الكلام الذى ينطق به الانسان هو الصدق، بل قد يؤدى الغاء القسم الى اخفاء الصدق. فلا يمكن والحالة هذه وضع قانون عام نستطيع به ان نقرر الامر. فحيث تكون هناك رغبة في القسم لاظهار الصدق تُقرَّر كل حالة على حدة في ضوء مزاياها. لقد اقتنعت الكنائس في عهد الاصلاح ان القسم الذى تطلبه الحكومة متضمن في هذا الاستثناء، لكن من المشكوك فيه ان يكون باستطاعتنا ان نضع قاعدة عامة بهذا الشكل.

انما لا نستطيع ان نقول عندما تظهر امامنا حالة كهذه ان القسم جائز فقط عندما تتضح امامنا اولا كل مضامين الامر وضوحا لا يتسرَّب اليه اي شك. ونلاحظ من جهة ثانية انه يجب التمييز بين القسم في امور

تتعلق بالماضي والحاضر، وهي معروفة جيدا، وبين القسم في امور تختص بالمستقبل. وحيث ان الاعتراف المسيحي لا يضمن منح معرفة معصومة عن الماضي، فلا حق للمسيحي ان يبتهلِ الى الله الكلي المعرفة لتأييد تصريح معرض للخطأ. واما عن المستقبل، فحيث ان الانسان ليس سيد مستقبله، فعليه ان يحرص دائما كل الحرص عندما يعطي تعهدا او قسما بالولاء، لانه يعلم خطورة ذلك. فاذا كان هو نفسه لا يملك سلطانا على مستقبله فكم بالاولى مستقبل السلطة التي تطلب منه قسم الولاء. اذن لا يستطيع تابع المسيح ان يحلف بقسم دون الاحتياط بالقول "ان شاء الله" وذلك لاجل الحق ولاجل اتّباع المسيح. ولا يوجد التزام ارضي يقيد المسيحي تقييدا تاما، لهذا فان اي ارتباط يُطلب منه بدون قيد ولا شرط، هو كذب صادر "من الشرير". واقصى ما يستطيع ان يؤديه القسم في هذه الحالة هو الشهادة بان المسيحي ملتزم بارادة الله وحدها، وكل التزام آخر هو متوقف ومشروط بتلك الارادة لاجل يسوع. وان كان هذا الشرط غير واضح او غير معترف به، في حالة من الحالات المشكوك فيها، فلا يمكن للميسحي ان يؤدى القسم، والا فانه يخدع السلطة التي يقسم امامها. انما على كل حال "ليكن كلامكم نعم نعم لا لا".

ان الامر بالصدق التام، هو في حقيقته اسم آخر للاتباع الكامل. فالذين يتبعون يسوع، ويلتصقون به، هم الذين يعيشون عيشة الصدق التام. وليسَ عند هؤلاء ما يخبئونه عن ربهم، فان حياتهم مكشوفة لديه، وقد عرفهم يسوع وقادهم في طريق الحق. وهم لا يستطيعون ان يخبئوا خطيتهم عن يسوع، لانهم ليسوا هم الذين كشفوا انفسهم ليسوع، بل هو الذى كشف نفسه واعلنها لهم، بدعوتهم لاتّباعه، وفي اللحظة التي دعاهم فيها اعلن لهم خطيتهم، وجعلهم يشعرون بها. **ان الصدق التام لا يتيسر**

الا حين تُكشف الخطية وتُعرّى وتُغفر بيسوع. ولا يستطيع سوى اولئك الذين يعترفون بخطيتهم ليسوع ان يعيشوا عيشة الصدق التام، ولا يخجلون من ان يقولوا الصدق حيث يلزم ان ينطقوا به. هذا الصدق الذي يطلبه يسوع من اتباعه هو انكار الذات الذي لا يخبّىء الخطية. عند ذلك لا يختفي شيء، بل يوضع كل شئ في وضح النهار.

واول شيء وآخر شيء في موضوع الصدق هذا هو ان الانسان كله بجملته يجب ان يكشف، وان يوضع شره كله عاريا في نور الله. لكن الخطاة لا يريدون هذا النوع من الصدق، بل يقاومونه بكل قوتهم. ولهذا السبب تراهم يضطهدونه ويصلبونه. ولا يمكن ان نكون صادقين تماما الا عندما نتبع يسوع، لانه عندئذ يكتشف لنا خطايانا على الصليب. فالصليب هو حق الله المعلن عنا، وهو اذن القوة الوحيدة التي تجعلنا صادقين. عندما نعرف الصليب لن نخشى الصدق. ولا نحتاج ان نثبت اقوالنا بحلف وقسم، لاننا نحيا في حق الله الكامل.

ولا نستطيع ان نعيش بالصدق مع يسوع، ما لم نحّيّ بالصدق مع الناس. ان الكذب يحطّم الشركة، اما الصدق فيحطّم الشركة الكاذبة، ويوطّد الاخوّة الحقيقية. ونحن لا نستطيع ان نتبع المسيح ما لم نحّيّ في الحق المعلن، امام الله والانسان.



الفصل السابع

الثأر

"سَمعتمْ أنَّه قيل: عَيْنٌ بعيْنٍ وسنٌّ بسنٍّ. وأمَّا أنا فأقُولُ لكمْ: لا تُقاوموا الشَّر، بَل منْ لَطمكَ على خدِّك الأيمَن فحوِّل لهُ الآخر أيْضًا. ومنْ أراد أنْ يُخاصمَك ويأخُذ ثوْبكَ فَاترك لهُ الرِّداء أيْضًا. ومنْ سَخَّرك ميلاً واحدًا فَاذهَب معه اثنَين. منْ سأَلك فأَعْطه، ومنْ أراد أنْ يَقترض منكَ فلا تردَّهُ". (متى٥: ٣٨-٤٢).

يضع يسوع هذا القول "عين بعين وسن بسن" مع الوصايا التي سبق ان اقتبسها من العهد القديم، كالوصية السادسة التي تنهى عن القتل مثلا. وهو يعتبر هذا القول شريعة الله الحقيقية، مثل الوصية السادسة. وهذه الوصية، كغيرها من سائر الوصايا، لا تُنسخ، بل يجب ان تتم الى آخر نقطة وآخر حرف فيها. ان يسوع لا يجاري اهل العصر الحاضر في اعتبار الوصايا العشر في مستوى اعلى من سائر شريعة العهد القديم. ولانه يعتبر شريعة العهد القديم وحدة لا تتجزأ، فهو يلحّ على تلاميذه انها يجب ان تتم.

ان اتباع يسوع ينبذون كل حق شخصي لاجل خاطر يسوع. فهو يدعوهم مطوبين لانهم ودعاء. فان كانوا يريدون ان يتمسكوا بحقوقهم، بعد ان تركوا كل شيء لاجله، فقد كفوا عن اتباعه. وهذا الفصل هو مجرد توضيح للتطوبيات.

لقد حُفظت لكل انسان حقوقه الشخصية في العهد القديم بنظام الهي ثابت للجزاء والعقاب. فكل شرّ له عقابه. والهدف من العقاب هو تكوين مجتمع سليم وتوطيده، وادانة الشر والتغلب عليه واستئصاله من شعب الله. هذا هو هدف الشريعة الذى يتحقق عن طريق الجزاء والعقاب.

لقد اخذ يسوع اعلان الارادة الالهية هذا، وشدد على قوة الجزاء والعقاب في تأديب الشر والتغلب عليه، ولحفظ شركة التلاميذ باعتبارهم شعب الله الحقيقي. فباستخدام الجزاء الصحيح للشر، يُغلَب الشر، ويثبت التلميذ الحقيقي نفسه كتابع للمسيح.

والطريقة الوحيدة لجزاء الشر هي عدم مقاومته كما بيّن المسيح. وهذا القول الذي نطق به المسيح ينقل الكنيسة من دائرة السياسة والقانون، فلا تصبح مجتمعا سياسيا كما كان اسرائيل قديما، بل تصبح مجتمعا للمؤمنين، لا تقيدهم ولا تربطهم القيود السياسية او القومية. وفي هذا تختلف الكنيسة عن الشعب القديم، فقد تخلت عن مركزها السياسي والقومي، وصار عليها ان تحتمل بصبر كل اعتداء يقع عليها. ولولا ذلك لتكوَّم الشر فوق الشر. لكن بهذا الاحتمال تتوطد شركة الكنيسة وتُحفظ.

يتضح من ذلك ان المسيحي لا يتمسك بحقوقه ويدافع عنها بأي ثمن عندما يُظلّم، فقد تحرر من ممتلكاته، وارتبط بالمسيح وحده. كما ان شهادته لارتباطه بالمسيح وحده ارتباطا جامعا مانعا تنشىء الاساس العملي للشركة، وتترك المعتدي للمسيح ليتعامل هو معه.

فالطريقة الوحيدة للانتصار على الشر هي ان تتركه في سبيله حتى يصل الى حالة التوقف، لانه لا يجد المقاومة التي يسعى اليها. فان المقاومة لا تفيد شيئا سوى ان تخلق شرا آخر، وتُلقي وقودا على النار

المشتعلة. لكن عندما لا يَلقى الشرّ مقاومة ولا يواجهِ عقبة بل يلقى احتمالا وصبرا، تُكسر شوكته، اذ بذلك يلقى خصما لا يستطيع ان يتغلب عليه. وهذا بالطبع لا يحدث الا عندما تنتهي آخر ذرة من المقاومة، ويتخلى التلميذ نهائيا عن الثأر. عندئذ لا يستطيع الشر ان يجد هدفا يصوّب اليه سهامه، ولا يستطيع ان يولّد شرا آخر، فيُترك عقيما ويموت.

بالاحتمال الصابر نقضي على الالم. والشر تنفد قوته عندما لا نقاومه. فالمسيحي الذى يرفض ان يعامل العدو بمثل ما عامله، ويفضل ان يتألم دون ان يقاوم، يُظهر شناعة التعبير وخطأ الاهانة. وبذلك يدين العنف نفسه بامتناعه عن اثارة عنف مضاد يقاومه ويحركه. فعندما يطلب انسان مني ظلما ان اعطيه ثوبي، امنحه ردائي ايضا، فأغلب طلبه بهذه الصورة. وعندما يطلب مني ان اسير معه الميل الثاني، اقبل ذلك راضيا مسرورا، وابين برضاي وسروري ما ينطوي عليه استغلاله لخدمتي. ولا غرابة، **فان ترك كل شيء خلفي عند دعوة المسيح، هو منتهى الرضى به وحده،** واتّباعه هو دون سواه. والمسيحي الذى يتخلى طائعا مختارا عن الدفاع عن نفسه، يؤكد التصاقه التام بالمسيح وتحرره الكامل من استبداد نفسه. ان التصاقه بالمسيح وحده هو القوة الوحيدة التي تستطيع ان تغلب الشر.

اننا لا نواجه الشر بطريقة معنوية غامضة، بل نواجه الشرير، اى الشخص الشرير. فان هوجمت او اعتُدي علي، فانا بمسالمتي لا ابرّر الاعتداء. ان احتمال الشر بصبر لا ينطوي على اعتراف بحقوق الشر. هذا التصوُّر هو مجرد شعور عاطفي لا يزكيه يسوع مطلقا. ان التعدي المهين، وعمل العنف والظلم، وكل نوع من الاستغلال، هذه كلها شرور، ويجب ان يدرك تلميذ المسيح ذلك، ويشهد عن الشر انه شر كما فعل

المسيح، لانه بهذه الطريقة فقط يمكن الانتصار على الشر. **وكون الشر الذى يهاجم المؤمن، هو شر لا مبرر له، يجعل من المحتم على المؤمن ان لا يقاومه، بل ان يظهره ويكشفه وان ينتصر عليه باحتمال الشخص الشرير بصبر.** ان احتمال الالم بصبر وسرور، هو اقوى من الشر، وهو يقضي على الشر.

ما من عمل على الارض فظيع بدرجة تبرر وقوفك منه موقف عدم الآكتراث. وكلما زاد الشر وجب على المسيحي ان يتألم بصبر اكثر، بل وجب عليه ان يترك هذا الانسان الشرير ليسوع.

لقد قدم المصلحون تفسيرا جديدا قاطعا لهذا الفصل، واتوا بفكرة جديدة بالغة الاهمية. فقد ميزوا بين الالام الشخصية والالام التي يحتملها المسيحيون في سبيل اداء واجبهم كشاغلي مركز مسلَّم لهم من الله. وذكروا ان الامر بعدم مقاومة الشر والعنف ينطبق على الحالة الاولى- اى الالام الشخصية- لا على الحالة الثانية. اذ في الحالة الثانية نحن لسنا احرارا فقط لان نتخلى عن العنف، بل ان اردنا ان نعمل بروح المحبة الحقيقي علينا ان نفعل العكس تماما، ونقابل القوة بالقوة لكي نمنع انتشار الشر وتعدياته. وعلى هذا الاساس برر المصلحون الحرب، والاجراءات الشرعية الاخرى ضد الشر. لكن هذا التفريق بين الشخص والمركز غريب كليا عن تعليم المسيح. فهو لم يذكر شيئا مطلقا عنه، بل هو يخاطب تلاميذه كرجال قد تركوا كل شيء وتبعوه. والامر بعدم العنف ينطبق على الحياة الخاصة وعلى الواجب الرسمي. **ان المسيح هو رب الحياة كلها، ويطلب ولاء تاما غير منقسم.** وفضلا عن ذلك فان هذا التفريق يثير صعوبات لا حل لها عندما نصل الى التطبيق العملي. اسائل نفسي: هل انا اتصرف تصرفا شخصيا، ام اتصرف بمقتضى وظيفتي؟

عندما اهاجم الست انا ابا لاولادي، وراعيا لكنيستي، حاكما لشعبي في وقت واحد؟ ألست ملتزما لهذا السبب عينه ان أدافع عن نفسي ضد كل هجوم، بسبب مسؤوليتي عن عملي؟ او لست انا دائما فردا، أقابل يسوع وجها لوجه، حتى وانا أقوم باعمال وظيفتي؟ ألست بالتالي ملتزما ان أقاوم كل هجوم بسبب مسؤوليتي تجاه وظيفتي؟ هل من الصواب ان ننسى ان تابع يسوع هو دائما وحده، هو دائما شخص بمفرده، يستطيع في آخر المطاف ان يقرر وان يفعل لنفسه ما يشاء؟ ألسنا نتصرف في اقصى حدود مسؤوليتنا تجاه من يُعهد بهم الينا اذا تصرفنا في حدود هذه الشخصية الفردية؟

كيف يمكن ان يبرِّر امر يسوع في ضوء الاختبار؟ واضح ان الضعف وعدم الدفاع انما يثيران التعدى. فهل مطلب يسوع اذن مثل اعلى غير عملي؟ هل يرفض المسيح مواجهة الحقائق او مواجهة خطية العالم؟ قد يكون لهذا المثل الاعلى مكانه اللائق في الحياة داخل الكنيسة المسيحية، لكن هذا المثل يبدو وكأنه يحمل غمامات مذهب الكماليين (القائلين بكمال معتنق المسيحية)، ولا يعمل حساب الخطية الموجودة في العالم. فما دمنا نعيش في عالم الخطية والشر، فلا نستطيع ان نأخذ بأي مبدأ غير عملي كهذا.

اما يسوع فينبهنا الى اننا نعيش في العالم، والى ان العالم شرير، فيجب ان نمارس فيه الامر بعدم المقاومة. نحن بكل تأكيد لا نرغب ان نتهم يسوع بتجاهل حقيقة الشر وقوته. فان حياته كلها كانت صراعا دائما مع الشيطان. وهو يسمي "**الشر**" شرا، ولهذا السبب يكلم اتباعه بهذا الشكل. فكيف يتيسر لهم ذلك؟

اذا اخذنا الامر بعدم المقاومة كالمبدأ الاساسي الاخلاقي الذى يمكن تطبيقه تطبيقا عاما، ننغمس في احلام خيالية مثالية، ونحلم بكمال بشرى خيالي بقوانين لا يمكن العالم ان يطيعها. اذا جعلنا عدم المقاومة مبدأ للحياة الدنيوية، ننكر الله بتقليل شأن فرائضه وشرائعه المجيدة التي وضعها لحفظ العالم. لكن يسوع ليس رسام خرائط، بل هو الشخص الذى ابطل الشر بالالم الذى قاساه. لقد بدأ وكأن الشر انتصر على الصليب، لكن النصرة الحقيقية كانت نصرة يسوع. **فعلى الصليب المبرر الوحيد لوصية عدم المقاومة**، لانه وحده يضرم في النفس ايمانا بالنصرة على الشر تجعل الانسان قادرا ان يطيع تلك الوصية. وهذه الطاعة وحدها هي الطاعة المباركة المطوّبة، التي يصحبها الوعد بان نكون شركاء المسيح في نصرته، كما اننا شركاء في آلامه.

ان الم المسيح هو نصرة المحبة الالهية على قوات الشر، وهو لذلك الاساس الوحيد للطاعة المسيحية. والمسيح يدعو تابعيه مرة اخرى ليشاركوه هذا الالم. وكيف نستطيع ان نقنع العالم بوعظنا عن هذا الالم ان كنا نحن نتجنب هذا الالم في حياتنا؟ لقد اكمل المسيح هذه الشريعة التي وضعها هو نفسه، وهو في عطفه يحفظ تلاميذه في شركة آلامه. **ان الصليب هو القوة الوحيدة في العالم التي تثبت ان المحبة المتألمة تستطيع ان تثأر من الشر وتلاشيه**. ولما دعا يسوع تلاميذه انما دعاهم لهذه المشاركة في صليبه. وقد دُعي اتباع يسوع سعداء مطوبين بسبب شركتهم الظاهرة في صليبه.

الفصل الثامن

العدو – "الزيادة"

"سَمعتمْ أنَّه قيل: تُحبّ قَريبك وتُبغضُ عدوَّك. وأمَّا أنا فأقُول لكمْ: أَحبُّوا أعدَاءكمْ. بَاركُوا لاَعنيكمْ. أَحسنُوا إلى مُبغضيكمْ، وصلُّوا لأَجل الَّذين يُسيئونَ إلَيكُم ويطردونَكُم، لكَي تَكونُوا أبنَاء أبيكُم الَّذي في السَّماوات، فإنَّه يُشرقُ شَمسهُ على الأشرَار والصَّالحين، وَيمطرُ على الأبرَار والظَّالمين. لأنَّه إنْ أَحبَبْتمُ الَّذين يُحبّونكمْ، فأيُّ أجرٍ لكمْ. أليسَ العشّارونَ أيْضًا يَفعلُون ذلكَ. وإنْ سَلَّمتم على إخوتكم فقط، فأيَّ فضلٍ تصْنعونَ. أليسَ العشَّارونَ أيْضًا يَفعلُون هكذَا. فَكونوا أنتمْ كَاملينَ كمَا أنَّ أبَاكم الّذي في السَّماواتِ هو كَاملٌ." (متى ٥: ٤٣ – ٤٨).

نلتقي هنا لاول مرة، في العظة على الجبل، بالكلمة التي تلخص كل رسالتها وهي كلمة "**محبة**". وتعرّف المحبة بعبارات صريحة، وهي تنحصر في محبة اعدائنا. فلو ان يسوع اخبرنا فقط ان نحب اخوتنا، لأسأنا فهم ما يقصده بالمحبة، لكنه بصراحته لم يترك لنا مجالا للشك فيما يقصده.

ولم يكن العدو شيئا مبهما غامضا بالنسبة للتلاميذ، فقد كانوا يعرفونه معرفة جيدة، وكانوا يقابلونه كل يوم. كان هناك منْ يلعنونهم لاساءتهم الى الايمان وتعديّهم الناموس، وكان هناك منْ يبغضونهم لتركهم كل شيء لاجل يسوع، وكان هناك منْ يهينونهم ويهزأون بهم لضعفهم

وتواضعهم، وكان هناك منْ يضطهدونهم كثوار خطرين، ويريدون ان يهلكوهم. وكان بعض اعدائهم معدودين بين ابطال الدين ذوي الشعبية، الذين قاوموا اقوال يسوع عن نفسه. وكان رجال هذا الصنف الاخير يتمتعون بسلطة هائلة وشهرة فائقة. وكان هناك ايضا العدو السياسي، الذى يمثل نصب عيني كل يهودي، وهو العدو السياسي الروماني. وفوق هؤلاء الاعداء جميعا، كان على التلاميذ ان يجابهوا العداء الصارخ الذى لابدّ من ان يوجّه دائما ضد كل منْ يرفض الانصياع للجماهير، وهذا العدو كان يجلب اليهم كل يوم الهزء والتعيير والتهديد.

ومن المحقق ان العهد القديم لم يأمرنا صريحا ان نبغض اعداءنا، بل بالعكس اخبرنا اكثر من مرة ان نحبهم (خروج ٢٣: ٤-٥، امثال ٢٥: ٢١-٢٢، تكوين ٤٥: ١ وما يليه، و ١صموئيل ٢٤: ٧ و٢ملوك ٦: ٢٢ الخ). **لكن يسوع لم يكن يتكلم عن العداوة العادية، بل عن العداوة بين شعب الله والعالم.** ولم تكن هناك **"حروب مقدسة"** في التاريخ سوى حروب الله ضد عالم الاوثان. ولم تكن دينونة يسوع منصبّة على هذه العداوة، ولو فعل ذلك لانصبت دينونته على كل معاملات الله في التاريخ مع شعبه. لكن يسوع كان على عكس ذلك يثبت العهد القديم ويؤكده. وهو مهتم مثل العهد القديم بهزيمة ذلك العدو ونصرة شعب الله. انما المعنى الحقيقي لهذا القول هو ان المسيح مرة اخرى يطلق على مفهوم الحرب معنى جديدا، ويقضي على كل ما يسمى بحروب الايمان. وبالتالى، **السبيل الوحيد للنصرة على عدونا هو ان نحبه.**

والانسان الطبيعي لا يمكنه بحال من الاحوال ان يستسيغ فكرة محبة عدوه، فانها فوق طاقته، وفيها اساءة لا يمكنه احتمالها، وهي فكرة تناقض كل آرائه بخصوص الخير والشر. واهم من كل ذلك، يرى الانسان

العائش تحت الناموس ان فكرة محبة اعدائه هي ضد ناموس الله الذي يتطلب من الناس ان يقطعوا كل صلة باعدائهم، وان يحكموا عليهم بالدينونة. ويسوع يأخذ شريعة الله بين يديه، ويفسر معناها الصحيح فيعلن ان ارادة الله التي يعبر الناموس عنها هي ان يغلب الناس اعداءهم بمحبتهم اياهم.

ان اعداءنا بحسب تعليم العهد الجديد هم اولئك الذين يحملون العداوة لنا، وليسوا اولئك الذين نحمل عداء لهم، فان يسوع يرفض ان يحسب مثل هذا الاحتمال. ان المسيحي يجب ان يعامل عدوه كأخ، وان يجازي أعداءه بالمحبة. ويجب ان يكون الحكم في تصرفه، لا ما يعامله به الاخرون، بل المعاملة التي ينالها هو نفسه من يسوع، فليس لتصرّفه سوى مصدر واحد، وهو ارادة يسوع.

يقصد يسوع باعدائنا اولئك الذين لا نستطيع ان نؤثر فيهم، والذين يرفضون رفضا باتا الاستجابة لمحبتنا، الذين لا يصفحون لنا عن شيء، في حين نصفح لهم عن كل شيء، الذين يقابلون محبتنا لهم بالبغضة، وخدمتنا بالازدراء. "بدل محبتي يخاصمونني. اما انا فصلاة" (مزمور ١٠٩ : ٤) ان المحبة لا تطلب جزاء، ولكنها تسعى وراء الذين يحتاجون اليها. **منْ احوج لمحبتنا من اولئك الذين تقتلهم البغضة والكراهية، وقد تجردوا تجردا تاما من المحبة؟** بعبارة اخرى، من اولى بمحبتنا من عدونا؟ واين تمجّد المحبة اكثر منها عندما تحل بين اعدائها.

أن المحبة المسيحية لا تفرّق بين عدو وعدو، الا في امر واحد، وهو حيث زادت مرارة بغضة عدو لنا ازدادت حاجته الى محبتنا. فسواء كانت

عداوته سياسية او دينية، فليس له ان ينتظر من تابع يسوع سوى محبة مجانية. وليس في هذه المحبة نزاع داخلي بين حياتنا الشخصية ورسالتنا الرسمية، فنحن تلاميذ في كلتا الحالتين، والا كنا غير مسيحيين اطلاقا. هل تسألني: كيف تتصرف هذه المحبة؟ يسوع نفسه يجيب: باركوا، واحسنوا، وصلوا لاجل اعدائكم بدون قيد ولا شرط، وبدون محاباة بين شخص وآخر.

"**أَحبُّوا أعدَاءكمْ**". تكلم يسوع في الوصية السابقة عن احتمال الشر بطريقة سلبية فقط. وهنا يذهب يسوع الى مدى ابعد، فيأمرنا ان لا نكتفي بعدم مقاومة الشر وباحتمال الشخص الشرير بصبر، وبعدم معاملته كما يعاملنا، بل ان نعامله ايجابيا بمحبة قلبية. علينا ان نخدم عدونا في كل شيء بدون رياء وباخلاص تام. فلا نحسب اية تضحية يقوم بها حبيب لحبيبه اعظم من ان نقوم بها لعدونا. فان كنا نضحي بسرور بما نملك من خير وكرامة وحياة، فيجب ان نكون مستعدين ان نقوم بنفس التضحية لاجل عدونا. وليس لنا ان نتصور اننا بذلك نوافق على شره ونتساهل معه، كلا، فان هذه المحبة صادرة عن قوة لا عن ضعف، وعن حق لا عن خوف، ولذلك لا يمكن ان تكون محبة مذنبة تكره شخصا آخر. ومن يمكن ان يكون موضوع محبة كهذه مثل اولئك الذين تقست قلوبهم بالبغضة؟

"**بَاركُوا لاَعنيكمْ**". ان كان عدونا لا يستطيع ان يسايرنا، ويبدأ يلعننا، فعلينا ان نرفع ايدينا في الحال ونباركه. وبذلك يصير اعداوءنا مباركين من الرب، ولعنتهم لا يمكن ان تضرنا. لذلك نصلي ان يغتني فقرهم بكل غنى الله، وببركات ذاك الذى يسعون بكل جهدهم ان يقاوموه عبثا. ونحن مستعدون ان نحتمل لعناتهم، ما دامت تؤدي الى بركاتهم.

"أَحسِنُوا إلى مُبغضيكمْ" علينا ان نحب اعداءنا لا بالفكر والكلام بل بالعمل. وما اكثر فرص الحياة اليومية التي تتيح لنا خدمتهم. "فان جاع عدوك فأطعمهُ وان عطش فاسقِهِ" (رومية ١٢: ٢٠). فكما يقف الاخ بجانب اخيه في ضيقته يعصب جروحه، ويخفف آلامه، علينا ان نُظهر محبتنا لاعدائنا. وليس في العالم ضيق اعمق، ولا الم امرّ مما يقاسيه عدونا. وليس خدمة الزم ولا اعظم بركة من الخدمة التي نقدمها لاعدائنا. "مغبوط هو العطاء اكثر من الاخذ".

"صلُّوا لأَجلِ الَّذين يُسيئونَ إلَيكُم ويطردونَكُم". هذا هو المطلب الاسمى. والصلاة هي الوسيلة التي بها نذهب الى عدونا، ونقف بجانبه، ونتوسل الى الله من اجله. ان يسوع لا يعدنا اننا عندما نبارك اعداءنا ونحسن اليهم لا يسيئون الينا ويضطهدوننا، وفي الواقع انهم يسيئون ويضطهدون. لكن اساءاتهم واضطهاداتهم لا تستطيع ان تضرّنا ولا ان تنتصر علينا ما دمنا نصلي لاجلهم. **لاننا اذا صلينا لاجلهم، حملنا ضيقهم وفقرهم وذنبهم وهلاكهم في انفسنا، وتوسلنا الى الله لاجلهم.** اننا بذلك نقوم، نيابة عنهم، بما لا يستطيعون القيام به. فكل لعنة ينطقون بها، انما تربطنا بالله وبهم اكثر من ذى قبل. واضطهادهم لنا انما يقربهم اكثر الى المصالحة مع الله ويؤدي الى انتصارات اخرى للمحبة.

كيف تنتصر المحبة اذن؟ انها تنتصر، لا بالسؤال عن كيفية معاملة العدو لها، بل فقط بالسؤال عن كيفية معاملة يسوع لها. **ان المحبة لاعدائنا تقودنا الى طريق الصليب، والى الشركة مع المصلوب.** وكلما سرنا في هذا الطريق تأكدت نصرة المحبة على بغضة العدو، لانها ستكون عندئذ لا محبة التلميذ ذاته، بل محبة يسوع المسيح الذى مضى الى الصليب

لاجل اعدائه، وصلى لاجلهم وهو معلّق عليه. لقد ادرك التلاميذ في نور الصليب انهم هم ايضا اعداء، وان المصلوب قد انتصر عليهم بمحبته. وهذا ما يفتح عيون التلاميذ، ويمكنهم من ان يروا عدوهم كأخ لهم. فان التلميذ يعرف انه مدين بحياته لذاك الذى عامله كأخ وقبله وجعله قريبا له، واجتذبه الى شركة معه، مع انه كان عدوا له. عند ذلك يستطيع التلميذ ان يرى ان عدوّه هو موضوع محبة الله، وانه يقف مثله تحت صليب المسيح. ان الله لم يسألنا عن فضائلنا او رذائلنا، لان فضائلنا نفسها كانت في نظره شرا. لكن محبة الله فتّشت عن اعدائه الذين كانوا في اشد الحاجة اليها، والذين حسبهم اهلا لها. ان الله يحب اعداءه، وهذا مجد محبته وفخرها، كما يعلم ذلك كل تابع للمسيح، اذ قد صار بيسوع شريكا في هذه المحبة. **لان الله يشرق شمسه على الابرار والظالمين. وهذا لا ينطبق فقط على شمسه ومطره الارضيين، بل ينطبق ايضا على «شمس البر» وعلى مطر كلمة الله اللذين يُنعم بهما على الخاطىء، فيعلن بذلك نعمة الاب السماوى.**

"هذه الوصية بان نحب اعدائنا ولا نثأر لانفسنا ستزداد الحاحًا علينا في الجهاد المقدس الموضوع امامنا والذى قد اشتبكنا فيه جزئيا منذ سنوات. في هذا الجهاد تشتبك المحبة والبغضة في معركة حاسمة. ومن واجب كل نفس مسيحية ان تعد ذاتها لها، فقد دنا الوقت الذى فيه يصبح الاعتراف بالله الحي لا مصدر تهييج غضب العالم وسخطه فقط، بل ايضا سبب عَزله كليا عن المجتمع الانساني كما يدعونه. سيُطارد المؤمنون من مكان الى آخر، ويتعرضون لتعذيبات بدنية، واساءات بل الى الموت بكل اشكاله وصنوفه. اننا على ابواب عصر اضطهاد عام، فيه تمكن الخطورة الحقيقية لكل حركات عصرنا ومنازعاته. ويحاول الاشرار ان

يستأصلوا الكنيسة المسيحية والايمان المسيحي، لانهم لا يستطيعون ان يعيشوا معنا جنبا الى جنب، لانهم يتوبّخون على كلامهم واعمالهم في كل كلمة ننطق بها وفي كل عمل نقوم به، حتى ولو لم يكن موجّهًا اليهم خصيصا. ولست اخالهم بعيدين جدا عن الصواب، فانهم يشتبهون ايضا في عدم اكتراثنا لحكمهم علينا ودينونتهم لنا. وعليهم ان يسلّموا فعلا بان من العبث ان يدينونا، فنحن لا نبادلهم البغضة والخصام، ولو انهم يفضلون لو فعلنا ذلك وهبطنا الى مستواهم. والسؤال المهم هو: كيف تدور الحرب في هذه المعركة ؟ قريبا سيأتي الوقت الذى فيه نصلي لا كأفراد متفرقين، بل كجسد واحد، ككنيسة واحدة. سنصلي جماعات (ولو كنا جماعات قليلة نسبيا) وسنسبح بصوت عال ونعترف بالرب الذى صلب وقام وسيأتي ثانية، نعم نعترف بذلك بين الوف والوف من المرتدين. واي صلاة ستكون، واي اعتراف وتسبيح عندئذ. ستكون صلاة المحبة الشديدة لابناء الهلاك انفسهم، الذين سيقفون حولنا ينظرون الينا بعيون تتقد بنار البغضة، والذين ربما سبق لهم ان رفعوا ايديهم موافقين على قتلنا. وستكون هذه الصلاة لسلام هؤلاء الضالين المحطمين المتحيرين، صلاة ان ينعموا بالمحبة والسلام الذي ننعم نحن انفسنا به، صلاة تنفذ الى اعماق نفوسهم وتمزق قلوبهم حزنا على كل ما فعلوه ضدنا. اجل، ان الكنيسة التي تنتظر ربها حقا، والتي تميز علامات اوقات العزم والتصميم، يجب ان تبسط ذاتها بكل قوتها وبكل سلاح حياتها المقدسة في صلاة المحبة هذه" (أ.ف.س. فلمار، ١٨٨٠).

ما هي المحبة غير المنقسمة؟ هي المحبة التي لا تحابي ولا تفضّل الذين يحبوننا على سواهم. عندما نحب الذين يحبوننا – اخواننا مثلا، او شعبنا، او اصدقاءنا، حتى كنائسنا – فلسنا افضل من العشارين

والخطاة هذه المحبة عادية وطبيعية، وليست محبة مسيحية فائقة. اننا نستطيع ان نحب اهلنا واقاربنا، وبني وطننا، واصدقاءنا، سواء كنا مسيحيين ام غير مسيحيين، ولا حاجة بنا الى ان يعلّمنا يسوع ذلك. ويسوع يرى في هذا النوع من المحبة شيئا مفترضا مفروغا منه، ولذلك فهو يشدد على وجوب محبة اعدائنا. بذلك يبين لنا ما يعنيه بالمحبة، والموقف الذى يجب ان نتخذه ازاءها.

كيف يختلف التلاميذ اذن عن الوثنيين؟ وما معنى ان تكون مسيحيا في الحقيقة؟ - هنا نلتقي بالكلمة التي تسيطر على كل الاصحاح، وتلخص كل ما سمعناه للان. هذا ما يميز المسيحي عن غيره من الناس. هذا هو الشيء الخاص، الخارق، غير المعتاد، وغير الطبيعي. هذا ما اسميناه "**الزيادة**". هذه هي الصفة التي بها يزيد بر التلميذ على بر الكتبة والفريسيين. هذا هو الشيء الاكثر، الابعد. ان الشيء الطبيعي عام للجميع، للوثني والمسيحي، **اما الصفة المميّزة للحياة المسيحية فتبدأ بهذه الزيادة**. هذه الصفة تمكننا اولا ان نرى الشيء الطبيعي في نوره الحقيقي. فان لم تكن موجودة، لا تكون هناك فضائل مسيحية خاصة. فانها لا يمكن ان توجد في دائرة الامكانات الطبيعية، انما توجد فقط حيث يوجد اكثر من الامكانات الطبيعية. ان هذه الزيادة لا تختلط مع الطبيعي. هذا الفضل، او هذا المزيد، لا يمكن ان يكتفي بهبوط المحبة المسيحية الى حب الوطن، والصداقة والاجتهاد، ولا يمكن ان ينحرف من بر افضل الى القانون الطبيعي. فان يسوع لم يتكلم بعبارات كهذه، انما كانت الصفة المميزة للمسيحي هي "**الزيادة**". فان المسيحي لا يستطيع ان يعيش في مستوى العالم، لانه يجب ان يذكر دائما انه يُطلب منه شيء افضل، شيء اكثر.

ما طبيعة هذه الزيادة او هذا الشيء الافضل بالضبط؟ هو الحياة التي وصفتها التطويبات، حياة اتّباع يسوع، هو النور الذى يضيء العالم، هو المدينة الموضوعة على جبل، هو طريق انكار النفس، طريق المحبة الكاملة، والطهارة التامة، والصدق، والوداعة. انها محبة لاعدائنا بدون قيود ولا تحفّظات، محبة لغير المحبين وغير المحبوبين، محبة لاعدائنا الدينيين والسياسيين والشخصيين. وهي المحبة التي تمت في كل حالة وظرف، في صليب المسيح. ما هو الشيء الفائق الافضل؟ هو محبة يسوع المسيح نفسه، الذى مضى الى الصليب صابرا طائعا- انه الصليب نفسه حقا وفعلا. فالصليب هو المميز الاوحد للديانة المسيحية، والقوة التي تمكن المسيحي ان يسمو على العالم وان يفوز بالنصرة. ان الشغف الذى يتجلى في محبة المصلوب هو التعبير الاسمى عن "الزيادة" في الحياة المسيحية.

هذه الزيادة تتّفق ولا شك مع النور الذى يضيء امام الناس، فيمجدون لاجله الآب الذي في السموات. ولا يمكن ان تُخفى تحت مكيال بل لابد ان تظهر امام جميع الناس. ان جماعة تلاميذ يسوع، جماعة البر الافضل، هي جماعة منظورة. لقد تركت العالم والمجتمع وحسبت كل شيء خسارة لاجل صليب المسيح.

كيف تمارس هذه الصفة عمليا؟ هذا الشيء الافضل – وهذه العثرة الكبرى – هو شيء يفعله اتباع يسوع. يجب ان يفعلوه كالبر الافضل، وان يفعلوه امام جميع الناس. انه ليس نوعا من مذهب التقوى المتطرف، ولا نموذجا شاذا للعيشة المسيحية، بل طاعة تامة لارادة المسيح. ان جعلنا هذا الشيء الافضل مقياسا فسننقاد الى شغف المسيح الذى تتجلى فيه هذه الصفة الخاصة. **وهذا العمل في ذاته الم دائم، فيه يحتمل التلميذ**

آلام المسيح. وان لم يكن كذلك، فليس هو العمل الذى يتكلم عنه يسوع.

هذا التفوق، هذا الكمال، هذا الشيء الافضل هو تكميل الناموس، هو حفظ الوصايا. ففي المسيح المصلوب، وفي شعبه المرتبط به، يصبح الافضل حقيقة.

والناس الكاملون هم الذين تكملت فيهم محبة الاب السماوى غير المنقسمة، المحبة التي بذلت الابن ليموت على الصليب لاجلنا، وبالالام في شركة هذا الصليب يُكَمَّل اتباعُ المسيح. فالكاملون اذن هم السعداء المطوَّبون في التطويبات.



الفصل التاسع

البرّ الخفي

"احتَرزُوا من أَنْ تصنَعُوا صَدقتكمْ قدَّام النَّاس لكَي يَنظُروكمْ، وإلاَّ فليسَ لكمْ أجرٌ عند أبيكُم الَّذي في السَّماوات. فمتى صَنعتَ صدقةً فلاَ تُصوّتْ قُدَّامك بالبوق، كَما يَفعلُ المرَاؤُون في المجَامع وفي الأزقَّة، لكي يُمجَّدوا منَ النَّاس. اَلحقَّ أقُول لكمْ: إنَّهمْ قد اسْتَوفوا أَجرَهمْ. وأمَّا أنْتَ فمتى صَنعتَ صدقةً فلاَ تُعرّفْ شمَالك ما تفعلُ يمينُك، لكي تكُون صدقتُك في الخفَاء. فأبُوك الَّذي يرَى في الخفَاء هو يُجَازِيك علانيَةً." (متى ٦: ١-٤).

رأينا في الاصحاح الخامس ان جماعة التلاميذ جماعة ظاهرة منظورة اساسيا في طبيعتها، وان ظهورها يبلغ ذروته في "الزيادة". وقد رأينا ان السمة المميِّزة للمسيحية هي اعتزالنا عن العالم، وتجاوزنا عن مقاييسه، وتسامينا الى الشيء الأفضل غير المعتاد. ونرى المسيح في هذا الاصحاح التالي يستأنف موضوع الشيء الأفضل الفائق اي الزيادة، ويكشف غموضه. فما اسهل على التلاميذ ان يُسيئوا تفسيرها وتأويلها. نستطيع دائما ان نتصورهم يقولون **"يجب ان نبدأ بالعمل لنبني ملكوت السموات على الارض"** - وبعملهم هذا قد يتجاهلون - وقد يكسرون - نظام الاشياء الثابت المقرَّر، بل قد يقفون موقف عدم اكتراث لهذا العصر الحاضر كالمتطرفين ويحاولون ان يوطدوا الخاصية الخارقة للعصر العتيد بمؤسسة منظورة. ويكون مَثَلهم الاعلى عندئذ ان ينسحبوا

انسحابا تاما من العالم بدون قيد ولا شرط، وان يستخدموا القوة في اقامة نظام مسيحي اكثر ملاءمة لاتّباعهم المسيح، واكثر مطابقة لمطاليبه الخارقة. وكان التلاميذ في الظاهر معرَّضين لتجربة خاطئة يستبدلون فيها عمل المسيح بحياة التقوى المثالية، حياة تبدو لهم جديدة طريفة حرة ملهمة. فما كان اشد لهفة المتدينين لتبنّي حياة المسكنة والصدق والالم، ان كانوا بها يروون تعطشهم لا لان يؤمنوا فقط، بل لان يروا بعيونهم ايضا. وكان من السهل على الانسان ان يمحو الفارق المميز بين الامرين حتى يتقاربا، فتصبح الحياة التقية المثالية والطاعة لكلمة الله متقاربتين لدرجة يصعب على الانسان تمييزهما الواحدة عن الاخرى. وكان ميسورا لهم على كل حال ان يجادلوا ويقيموا الحجة على انهم يفعلون ذلك في سبيل القضية الاسمى، وهي تحقيق الشيء الأفضل.

كان هناك آخرون ينتظرون من ناحية اخرى ان يسمعوا ما يقوله المسيح عن الشيء الأفضل حتى ينقضّوا عليه ويصبّوا عليه كل سخطهم وغضبهم. وكانوا يقولون: " ها قد ظهر المتطرف في ثوبه الحقيقي. لقد عرفنا الان انه يريد ان يقلب العالم رأسا على عقب، ويأمر تلاميذه ان يتركوا العالم و يبنوا عالما جديدا. هل هذا اطاعة لكلام العهد القديم؟ أليس هذا بالاحرى اوضح مثال للبر الذاتي؟ الا يعلم يسوع ان كل مطاليبه مقضي عليها بالفشل بسبب خطية العالم؟ الا يعلم شرائع الله الواضحة المعطاة لكي تبطل الخطية؟ الا يبرهن هذا على انه ضحية كبرياء روحية، وهي دائما وابدا علامة للتطرف؟ لا بل ان الطاعة الصادقة والتواضع الحقيقي هما في العادى، الشائع، الخفي". فلو دعا يسوع تلاميذه ان يعودوا الى اهلهم وعشيرتهم، والى اعمالهم وحِرَفهم، والى الطاعة للشريعة كما فسرها الكتبة، لعرفوا انه تقي ومتواضع ومطيع، ولاعطى تلاميذه

عندئذ دافعا مُلهماً لتكريسٍ اعمق وطاعةٍ اشدّ، ولعلّم ما عرفه الكتبة من قبل، وما كانوا يريدون ان يسمعوه يشدّد عليه في كرازته، اى البر والتعبد الحقيقيين، لا في مجرد التصرف الخارجي، بل في ميل القلب، وبالتالي لا في ميل القلب فقط بل ايضا في العمل الظاهر المجسّم وهذا كان يعتبر في نظرهم "البر الأفضل" الذى يحتاج اليه الناس، والذى لا يستطيع احد ان يناقضه.

وها هم يفكرون في انفسهم ان يسوع قد اضاع الفرصة التي سنحت له، فظهر لا كمعلم متواضع بل كمتطرف متعجرف. لقد كان المتطرّفون يعرفون دائما سرّ إلهاب حماسة الناس، لا سيما انبلهم وأفضلهم. ألم يدرك معلمو الشريعة ان القلب البشريّ، مع كل ما فيه من نبل وكرامة، ميال لغرور الجسد؟ ألم يختبروا في انفسهم ما للجسد - ولو كان تقيا - من سلطان على الانسان؟ اذن كان الأفضل، في فكرهم، مجرد عمل تلقائي للتعبد والتقوى. كان التشديد على الحرية البشرية من الطاعة العمياء لوصية الله، وكان سندا شرعيا لبر الانسان الذاتي، الذى لا تسمح الشريعة به، وكان تشجيعا للقداسة الذاتية التي كان محتما على الشريعة ان تدينها. وكان تعليمه يشجع على حرية العبادة لله، ضد ما علّموا به من انها فرض لازم، فكان عمله اتلافا لكنيسة الله، وانكارا للايمان، وتجديفا على الشريعة وعلى الله نفسه. فلو كان للشريعة ان تتخذ مجراها، لأوجبت على المسيح الموت لانه كان يعلّم الأفضل.

ترى كيف اجاب يسوع على هذه الاعتراضات؟ ها هو يقول "**احترزوا من ان تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم**". ان الدعوة الى عمل شيء افضل هي المخاطرة التي لابد ان يواجهها كل من اراد ان يتبع المسيح. لذلك ينذرنا المسيح ان نحترز، ويدعونا ان نكف عن الفرح البريء

التلقائي الذى يأتينا من جعل مسيحيتنا ظاهرة منظورة. انه يدعونا الى التأمل فيما نفعل.

ها هو يخبر التلاميذ ان في استطاعتهم ان يملكوا "الأفضل" ما داموا يتأملون فيما يفعلون. وعليهم ان يحترزوا كيف يستعملون الأفضل فلا يقومون به اطلاقا لذاته، ولا حبا في الفخر والمباهاة. لابد للتلاميذ من باعث يكمن وراء البر الأفضل. طبعا يجب ان يكون ذلك البر ظاهرا، لكن على التلاميذ ان يعرفوا كيف يُظهرونه، لا لمجرد الحب في ظهوره. **هناك بالطبع اسس لازمة تدعو للتشديد على ضرورة اظهار طبيعة التلمذة الحقيقية، لكن هذا الاظهار ليس غاية في ذاته، فان جعلناه غايتنا، فقدنا هدفنا الاساسي وهو اتّباع المسيح.** وان فعلنا ذلك لا نستطيع ان نستأنف الرحيل مرة اخرى من حيث وقفنا، بل علينا ان نبدأ الحركة كلها من جديد. وهذا يبين لنا اننا لم نكن تلاميذ حقيقيين، ونقف امام لغز محيّر. ان نشاطنا يجب ان يكون ظاهرا، **انما يجب ان لا نقوم به وهدفنا ان نجعله ظاهرا.** "**فَليضِئ نُورُكُمْ هكَذا قدَّام النَّاس**" (متى٥ : ١٦) ولكن احترزوا حتى تخفوه ولا تظهروه. هناك فرق واضح بين الاصحاح الخامس والاصحاح السادس. فالذى يجب ان يكون ظاهرا في الاصحاح الخامس، يجب ان يكون مخفيا في الاصحاح السادس. ان التأمل الذى يشدد عليه يسوع يهدف الى منعنا من التأمل في مركزنا الخارق. فيجب ان نحترس من الانتباه الى برنا الذاتي، والا صار الأفضل الذى نقوم به هو النابع من ارادتنا ورغبتنا، لا من اتّباع المسيح.

فكيف تُحلّ هذه المشكلة؟ **اول سؤال يجدر بنا ان نسأله هو:** عمنْ نخبىء ظهور تلمذتنا؟ ليس عن الناس بكل يقين، لاننا قد أُمرنا ان نضيئ نورنا امامهم حتى ينظروه. ولكن علينا ان نخبئه عن انفسنا. **ان عملنا**

هو ان نظل تابعين، ناظرين فقط الى قائدنا الذى يسير امامنا، وغير منتبهين الى انفسنا، ولا متطلعين الى ما نعمل. يجب ان نحترس من برنا الخاص، فلا نراه الا ونحن ننظر الى يسوع. عند ذلك لا يبدو خارقا بل شيئا عاديا طبيعيا. اذن، نخبىء المنظور عن انفسنا اطاعة لامر يسوع. ولو كان الأفضل مُهمِّاً في ذاته لكُنّا نعتمد على قوتنا ومقدرتنا الجسدية، مثل المتطرفين، بيد ان تلميذ يسوع يعمل فقط اطاعة لامر سيده، اى انه يعتبر الأفضل ثمرا طبيعيا للطاعة، ولا يمكن ان يكون غير ذلك بحسب كلام يسوع. ان المسيحي نور العالم، لا لصفة ممتازة فيه، بل لانه تابع للمسيح، وينظر اليه وحده. **ولكن بما ان الحياة المسيحية خارقة في طبيعتها، فهي في نفس الوقت عادية، وطبيعية، ومخفية. ولو لم تكن كذلك لما كانت حياة مسيحية اطلاقا، ولما كانت اطاعة لارادة يسوع المسيح.**

والسؤال الثاني الذى علينا ان نسأله هو: كيف يمكن ان ترتبط الناحيتان المنظورة وغير المنظورة في التلمذة، وكيف يمكن ان تكون الحياة الواحدة منظورة وخفية؟ للاجابة عن هذا السؤال علينا ان نعود الى الاصحاح الخامس، حيث نرى الأفضل والمنظور في صليب المسيح، الذى يقف تحته التلاميذ. فان الصليب هو في نفس الوقت الضروري والخفي والظاهر - هو الأفضل.

علينا ان نسأل ثالثة: كيف يمكن توفيق ما يبدو من مناقضة بين الاصحاحين الخامس والسادس؟ والجواب نجده في التلمذة، فهي تعني الالتصاق بالمسيح التصاقا جامعا مانعا، وهذا يقتضي قبل كل شيء ان ينظر التلميذ الى ربه وحده ويتبعه. فان نظر فقط الى "الزيادة" في الحياة المسيحية، فلا يكون بعد تابعا للمسيح، لان هذه "الزيادة" بالنسبة

للتلميذ هي ان يتمم ارادة الرب لا غير، وعندما يطلب التلميذ ان يفعل تلك الارادة يجد ان لا مفر منها، ولا بديل لها، وان ما يفعله هو الشيء الطبيعي الوحيد الذى عليه ان يفعله.

فما على تابع المسيح الا ان يتأكد من ان طاعته، واتّباعه، ومحبته تلقائية تماما وغير متعمدة. فان صنعت خيرا يجب ان لا تعرف شمالك ما تفعل يمينك، يجب ان لا تكون شاعرا بما تعمل، والا كنت تعرض فضيلتك الذاتية، لا الفضيلة النابعة من يسوع المسيح. اما فضيلة يسوع، فضيلة التلمذة، فلا يمكن ان تتم ما دمت شاعرا وواعيا تماما بما تفعل، **لان عمل المحبة الصحيح هو دائما عمل مخفي.** فاحترز اذا حتى لا تعرفها، لانها بذلك تكون من فضل الله وصلاحه. فاذا اردنا ان نعرف صلاحنا او محبتنا، فهي ليست محبة بعد. يجب ان نكون غير شاعرين حتى بمحبتنا لاعدائنا. وهم على كل حال، حينما نحبهم ليسوا باعدائنا بعد. هذا العمى الاختيارى في المسيحي (وهو في الحقيقة بصُر منيرٌ بالمسيح) هو يقينه، فكون حياته مخفية عن نظره هو الاساس الاوحد ليقينه.

وهكذا يكون للخفاء نظيره في الظهور، لانه ليس خفيّ الا ويظهر. لان الهنا اله تُكشف له كل القلوب، ولا سر يَخْفَي عليه. ان الله سيظهر لنا الخفايا ويعلنها. وهذا الاظهار هو الاجر المعين للخفاء، والسؤال الوحيد هو متى ننال ذلك الاجر، ومن سيعطه لنا؟ اذا اردنا شهرة في عيون الناس، فقد نلنا اجرنا. بمعنى آخر، لا فرق بين ان تكون الشهرة التي نبغيها من النوع الرخيص الذى يستطيع ان يراه كل الناس، او ان تكون من النوع الخفي الذى لا يراه الا نحن بانفسنا. فان كانت اليد اليسرى تعرف ما تفعله اليد اليمنى، واذا اصبحنا شاعرين بفضيلتنا الخفية صنعنا

اجرنا بيدنا واستعضنا به عن ذلك الاجر الذي قصد الله ان يمنحنا اياه في حينه. اما اذا اكتفينا بالسير وحياتنا مخفية عن عيوننا، نلنا اجرنا علنا من الله. لكن اى نوع من المحبة هي تلك التي ترضى ان تكون مخفية بهذا الشكل الى يوم الدين؟ الجواب واضح. ان المحبة خفية، فلا يمكن ان تكون فضيلة ظاهرة، او عادة يمكن ان تكتسب. لذلك يقول يسوع، احترزوا اذن حتى لا تبدّلوا المحبة الحقيقية بصلاح ودّى اصطناعي - اى بصفة بشرية. **ان المحبة الصحيحة هي دائما وابدا محبة تنسى ذاتها بكل ما تحمله العبارة من معنى.** فان اردنا الحصول عليها، وجب ان يموت انساننا القديم بكل فضائله وصفاته، وهذا لا يتأتى الا عندما ينسى التلميذ نفسه ويلتصق بالمسيح وحده. فلما قال المسيح "لا تعرف شمالك ما تفعل يمينك" كان يوجّه للانسان القديم الضربة القاتلة. ولنسأل مرة اخرى: منْ يستطيع ان يحيا حياة تجمع الاصحاحين الخامس والسادس من انجيل متى معا؟ لا يستطيع ذلك سوى الذين ماتوا في المسيح عن انسانهم القديم ومنحوا حياة جديدة باتباعهم المسيح وبشركتهم معه. **ان المحبة التلقائية التي لا تتأمل في عملها، هي ضربة قاضية للانسان القديم**، لان الانسان يستعيد طبيعته الحقيقية في بر المسيح وفي اخيه الانسان. ومحبة المسيح المصلوب الذى يسلم انساننا القديم للموت هي المحبة التي تحيا في الذين يتبعونه. "**فَأَحْيَا لا أنا، بَلِ المَسِيح يَحيا فِيَّ**" (**غلاطية ٢: ٢٠**). من ذلك الحين فصاعدا يجد المسيحي نفسه يعيش فقط في المسيح وفي اخوته.

الفصل العاشر

صَلاة في الخفاء

"ومَتى صلّيتَ فلا تكنْ كَالمرائينَ، فإنَّهمْ يحبُّون أنْ يُصلُّوا قائمينَ في المجَامع وفي زوَايا الشَّوارع، لكيْ يَظهرُوا للنَّاس. الحقَّ أقُول لكمْ: إنَّهمْ قد استَوفَوا أجْرهُم. وأمَّا أنْتَ فمَتى صلَّيت فادخُل إلى مخْدعك وأغلق بابكَ، وصلّ إلى أبيكَ الَّذي في الخَفاء. فَأبُوك الَّذي يرى في الخَفاء يُجازِيكَ علانيةً. وحينمَا تصَلُّون لا تُكرِّروا الكَلام باطلاً كالأمَم، فإنَّهمْ يَظنّون أنَّه بكَثرة كَلامهمْ يُستجَابُ لهمْ. فلا تتشبَّهوا بهمْ. لأنَّ أباكمْ يعلمُ ما تَحتاجُون إليه قبْل أنْ تسْألوه." (متى ٦: ٥-٨)

يسوع يعلّم تلاميذه ان يصلوا. ما معنى هذا؟ معناه ان الصلاة ليست، على اى حال، عملا ظاهرا او طبيعيا. انها تعبير عن غريزة بشرية عامة، غير ان هذا لا يبررها في نظر الله، لانه حتى حينما تغرس الصلاة وتنمو بالتدريب والمثابرة، يمكن ان تظل بلا قيمة، وان تتجرّد من بركة الله. لقد سُمح للتلاميذ ان يصلوا، لان يسوع اخبرهم بذلك، وهو يعرف الاب. ووعدهم ان الله سيسمع لهم. ومعنى ذلك ان التلاميذ يصلون فقط لانهم اتباع المسيح ولهم شركة معه. فليس لاحد اقتراب الى الاب بالمسيح الا اولئك الذين يتعلقون بالمسيح مثل التلاميذ. وكل صلاة مسيحية انما توجّه الى الله بواسطة وسيط، لان الصلاة نفسها اعجز من ان توجد اتصالا مباشرا بالاب. اذ لا نستطيع ان نجد الاب في الصلاة الا في المسيح يسوع وحده. فالصلاة المسيحية تفترض الايمان، اي التعلّق بالمسيح. فهو

الوسيط الوحيد لصلواتنا، ونحن نصلي حسب امره، والصلاة المسيحية مرتبطة دائماً بكلمته.

نحن نصلي الى الله لاننا نؤمن به في يسوع المسيح. وهذا معناه ان صلواتنا لا يمكن ان تكون استعطافا لله، لاننا لا نحتاج الى ان نأتي اليه في صورة استعطاف. ان لنا الامتياز ان نعرف انه يعلم ما نحتاج اليه قبل ان نسأله. وهذا ما يجعل للصلاة المسيحية ثقتها غير المحدودة ويقينها البهيج. وليس المهم الصورة التي نصلي بها، ولا الكلمات التي نستخدمها، بل الايمان الذى يتمسك بالله ويمسّ قلب الله الذي يعرفنا قبل ان نتقدم اليه.

وليست الصلاة "**اعمالا حسنة**" مطلقا، وليست تمرينا ولا موقفا صالحا تقيّا، بل هي دائما صلاة طفل لأب. وبالتالي ليست الصلاة بأي حال من الاحوال، لاظهار الذات امام الله، او امام انفسنا، او امام الاخرين. لو كان الله يجهل احتياجاتنا، كان علينا ان نفكر مقدما كيف نخبره عنها، وماذا نخبره، او هل نخبره ام لا. وبهذا نرى ان الايمان، الذى هو الباعث الاصلي للصلاة المسيحية، ينفي كل تحضير سابق او تصميم للصلاة.

ان الصلاة هي المثل الاسمى للسجية الخفية في الحياة المسيحية. انها ضد التفاخر واظهار الذات. عندما يصلي الناس، يكفون عن معرفة انفسهم، وينصرفون فقط الى معرفة الله الذى يدعونه. وليس هدف الصلاة ان تؤثر تأثيرا مباشرا في العالم، فهي موجّهة لله وحده، وهي لذلك المثال الكامل للعمل الذى لا يستهدف الظهور او الاستعراض.

وبالطبع يكمن خطر بالغ حتى في صلاة من هذا النوع اذ يمكن ان

تتجه الصلاة الى اظهار النفس او الى اظهار الخفي وابرازه للنور. وقد يحدث هذا بنوع أخص في الصلاة الجمهورية التي تهبط وتتدنى احيانا (وليس دائما في هذه الايام) الى ضجة فارغة. ولكن حتى في هذا قد لا يكون فارقٌ بين الصلاة الجمهورية والصلاة الفردية، فقد يكون الضرر ابلغ اذا ما تحوَّلتُ الى مُشاهد متفرَّج على صلاتي، وجعلت منها معرضا لفائدتي الذاتية. قد امتع نفسي كمتفرج مسرور، او قد اكتشف نفسي وانا اصلي فاشعر بخجل واستحياء. **ان الاعلان السُّوقي الرخيص ليس سوى صورة ساذجة من الاعلان الذى أَقدّمه عن نفسي.** وبوسعي ان اعرض ذاتي لذاتي بشكل جذاب، حتى عندما اكون منفردا في مخدع صلاتي. الى هذا المدى نستطيع ان نحرّف كلمة يسوع. وانال الشهرة التي اطلبها في وقوفي موقف المصلي والمتفرج معا. اكون انا السامع لصلاتي والمجيب لها. وكثيرا ما لا ننتظر الله حتى يجيب صلاتنا، ويرينا في وقته انه سمعها، بل نعدّ نحن جوابنا لانفسنا. فنلاحظ اننا صلينا صلاة جيدة مناسبة، ونعوّض لانفسنا بذلك عن التمتع بالصلاة المستجابة. اذن نكون قد نلنا اجرنا وجزاءنا. فحيث اننا سمعنا صلاتنا، لا يسمع الله لنا. وحيث اننا اخذنا جزاءنا بالاعلان والدعاية، فلا نستطيع ان ننتظر جزاء آخر من الله.

اين اذن المخدع الذى يفكر يسوع اني إستطيع ان اختبىء فيه، ما دمت غير واثق من نفسي؟ كيف استطيع ان أُحكم اغلاقه بحيث لا يستطيع احد ان يُفسد سرية الصلاة ويحرمني من جزاء صلاة الخفاء؟ كيف نحتمي من انفسنا ومن مشاهدة انفسنا؟ كيف نطرد التأمل بواسطة التأمل؟ **ان الطريقة الوحيدة لذلك هي باماتة ارادتنا البارزة دائما. والطريقة الوحيدة لذلك هي ان نجعل المسيح وحده سيدا مطلقا في**

قلوبنا، ونسلم له ارادتنا بتمامها، ونعيش في شركة معه، ونتبعه. عندئذ نستطيع ان نصلي، ان تكون ارادته ارادة ذاك الذى يعلم احتياجاتنا قبل ان نطلبها. عند ذلك فقط تكون صلاتنا اكيدة، وقوية، ونقية. وتصبح الصلاة عندئذ طلبة صحيحة حقا. ان الطفل يسأل اباه الذى يعرفه. وهكذا نرى ان جوهر الصلاة المسيحية ليس التعبد الغامض، بل الطلبة المحدَّدة المجسَّمة. ان الطريقة الصائبة للاقتراب الى الله هي ان نَمُدَّ ايدينا، وان نطلب من الله الذى نعلم ان له قلب الأب.

ان الصلاة الحقيقية تُقدَّم في الخفاء، لكن هذا لا يمنع شركة الصلاة معا، مهما كان شعورنا بمخاطرها. **ان الصلاة هي روحية لا مادية في المدى البعيد**، سواء كنا نصلي في الشارع العريض، أم في خفاء مخادعنا، وسواء صلينا باختصار ام بتطويل، في خدمة الكنيسة اثناء العبادة **أم في أنّة تصعد من قلب شخص لا يعرف ان يصلي**. ان الصلاة الحقيقية لا تتوقف على الفرد، ولا على جماعة المؤمنين كلها، بل تتوقف فقط على معرفة ان ابانا يعلم احتياجاتنا. هذا يجعل الله الغرض الوحيد لصلواتنا ويحررنا من الثقة الكاذبة في مجهوداتنا الذاتية في صلواتنا.

"فَصلُّوا أنتمْ هكَذا: أَبَانا الَّذي في السَّماوات. ليتقدَّس اسمُك. ليأت ملكوتكَ. لتكنْ مَشيئتُك كَما في السَّماء كَذلكَ على الأرض. خُبزنَا كَفافنا أعْطنَا اليَوم. واغفرْ لنَا ذنوبَنا كَما نَغْفر نحْن أيْضًا للمُذنبينَ إليْنا. ولا تُدخلنَا في تجربة، لكنْ نجِّنا منَ الشّرّير. لأنَّ لكَ المُلكَ، وَالقوَّة، والمجْد، إلى الأَبَد. آمينَ. فإنَّه إنْ غَفرتمْ للنَّاس زَلاتهمْ، يغفر لكمْ أيْضًا أبُوكم السَّماويُّ. وإنْ لمْ تَغفرُوا للنَّاس زَلاتهمْ، لا يَغفر لكمْ أبُوكم أيْضًا زَلاتكمْ." (متى ٦: ٩- ١٥).

لقد علّم يسوع ليس فقط كيف يصلون، بل ايضا ماذا يصلون. والصلاة الربانية ليست فقط الصلاة النموذجية، بل هي الطريقة التي يجب على المسيحيين ان يصلوا بها. فان صلوا هذه الصلاة يسمع لهم الله بكل يقين. ان الصلاة الربانية هي جوهر الصلاة. فصلاة التلميذ يجب ان تؤسَّس عليها وتُحصر بها. وهنا نرى يسوع مرة اخرى لا يترك تلاميذه في جهلهم، بل يعلمهم الصلاة الربانية، فيقودهم بذلك الى فهم الصلاة فهما صحيحا.

"**أبَانا الَّذي في السَّماواتِ**". يدعو التلاميذ اباهم السماوى باعتبارهم جسدا واحدا، ويصلون الى اب يعرف حاجات اولاده. ان دعوة يسوع تربطهم معا في اخُوَّة واحدة. ولقد ادركوا في يسوع رحمة الاب. وها هم في اسم ابن الله صار لهم الامتياز ان يدعوا الله اباً. هم على الأرض، وابوهم في السماء، ينظر اليهم من فوق، وهم يرفعون عيونهم اليه.

"**لِيتقدَّس اسمُك**". ان اسم الله هو "**الاب**". وهو الاسم الذى اعلن للتلاميذ في يسوع المسيح، ويجب ان يتقدس بينهم. وكل الإنجيل مُتضمَّن في هذا الاسم. ليت الله يحفظ إنجيله المقدس من الغموض والابهام، ومن التدنس بالتعاليم الكاذبة والحياة غير المقدّسة، وليته يعرّف دائما اسمه القدوس لتلاميذه بالمسيح يسوع. وليته يقوّي كل الكارزين به لكي يُعلنوا الإنجيل الصحيح، انجيل نعمته المخلّصة، ويحمينا من المجرمين، ويحوّل اعداء اسمه الى اصدقاء.

"**لِيأت ملكوتكَ**". لقد شاهد اتباع يسوع المسيح ملكوت الله يشرق ويبدأ على الارض في يسوع. لقد رأوا الشيطان ينسحق، وقوات العالم والخطية والموت تتحطم. ولا يزال ملكوت الله يتعرض للالم والنزاع، وعلى القطيع

الصغير ان يشتركوا في تلك الضيقة. انهم يقفون في البر الجديد تحت سلطان الله، ولكن في وسط الضيق والاضطهاد. ليت الله يعطي ملكوت يسوع المسيح ان ينمو ويمتد في كنيسته على الأرض، ويعجل بانتهاء ممالك العالم وتثبيت ملكوته بقوة ومجد.

" **لتكنْ مَشيئتُك كَما في السَّماء كَذلكَ على الأرضِ** ". لقد سلم اتباع يسوع بالشركة معه ارادتهم لله تسليما تاما، ولهذا يصلّون ان تتم ارادته في كل العالم. فلا يكون هناك مخلوق على الأرض يتحداه او يقاومه. لكن الارادة الشريرة لا تزال موجودة حتى في اتباع يسوع، ولا تزال تحاول ان تقطع علاقتهم به. ولهذا السبب عليهم ايضا ان يصلّوا حتى تنتصر ارادة الله اكثر فأكثر في قلوبهم كل يوم، وحتى تَكسر كل تَحدّ ومقاومة. ولا شك ان كل العالم سينحني امام تلك الارادة في النهاية، ساجدا شاكرا في الفرح وفي الضيق، اذ ان السموات والأرض ستخضع له.

يجب ان يكون الهدف الرئيسي لصلاة المسيحي هو اسم الله، وملكوت الله وارادته. وهذا لا يعني طبعا ان الله في حاجة الى صلواتنا، بل يعني ان صلواتنا هي الوسيلة التي بها يصبح التلاميذ شركاء في الكنز السماوى الذى يصلّون لأجله. علاوة على ذلك، فان الله يستخدم صلواتهم لتحقيق هذه النتيجة.

"**خُبزنَا كَفافنا أعْطنَا اليَوم**". ما دام التلاميذ على الأرض، عليهم الا يخجلوا من الصلاة لأجل احتياجاتهم الجسدية. فان الخالق الذى خلقهم على الأرض سيحفظ اجسادهم ويحرسهم، وليست ارادته ان تحتقر خليقته. لقد اخبر المسيح تلاميذه ان يطلبوا الخبز لا لانفسهم فقط، بل لكل الناس الموجودين على الأرض، لان جميع الناس اخوتهم.

والتلاميذ يدركون ان الخبز وان كان من اثمار الأرض، الا انه في الحقيقة نازل من فوق كعطية من الله وحده. لهذا السبب يجب ان يطلبوه قبل ان ينالوه. وبما انه خبز الله، فهو جديد كل يوم. فليس لهم ان يطلبوا منه خبزاً للمستقبل، بل عليهم ان يكتفوا بما يعطيه الله لهم يوما بعد يوم. وبهذا الخبز تبقى حياتهم مدة اطول فيتّمتعوا بحياة الشركة مع يسوع ويشكرونه ويحمدونه لأجل محبته. **وهذه الطلبة هي امتحان لايمانهم، لانها تبين ما اذا كانوا يؤمنون ان كل الاشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله.**

"**واغفِرْ لنَا ذنوبَنا كَما نَغْفِر نحْن أيْضًا للمُذنبِينَ إليْنا**". على اتباع المسيح ان يعترفوا انهم مذنبون وان يتألموا لأجل ذنوبهم. كان عليهم وهم يحيون في شركة مع يسوع ان يعيشوا بلا خطية، لكنهم في الحقيقة يعيشون حياة تتلطخ كل يوم بكل انواع الخطأ مثل عدم التصديق، والتكاسل في الصلاة، والافتقار الى تدريب النفس، وكل نوع من انواع الانغماس، والحسد والبغضاء والطمع والتكبر. لذلك وجب عليهم ان يصلوا كل يوم طالبين من الله الغفران. لكن الله يغفر لهم ان كانوا يغفرون احدهم للاخر زلاته برضى ومحبة اخوية. وعليهم ايضا ان يأتوا بكل ذنوبهم كجسد واحد امام الله طالبين الغفران، فلا يقول الواحد فقط يارب اغفر لي ذنوبي بل اغفر لنا ذنوبنا.

"**ولا تُدخلنَا في تجربةٍ**". ما اكثر التجارب المتنوعة التي تحيط بالمسيحي. انَ الشيطان يهاجمه من كل ناحية، لعله يسقطه. واحيانا يهاجمه بصورة يشعر معها بأمن كاذب، واحيانا بصورة يشك معها شكا آثما. لكن التلميذ اذ يشعر بضعفه لا يعرض نفسه للتجربة بدون مبرر، حتى يمتحن قوة ايمانه. ان المسيحيين لا يطلبون من الله ان يمتحن قوة

ايمانهم، بل ان يحفظهم في ساعة التجربة.

"**لكنْ نجِّنا منَ الشّرّير**". هذه الطلبة الاخيرة تختص بطلب النجاة من الشرير، ولأجل التمتع بميراث ملكوت السموات. انها صلاة لطلب موت مقدس، ولانقاذ الكنيسة في يوم الدين.

"**لأنَّ لكَ المُلكَ..**" تتجدد قوة التلاميذ بيقينهم ان الملك لله، وذلك بشركتهم في المسيح الذي عليه تتوقف استجابة صلواتهم. ففيه يتقدس اسم الله، ويأتي ملكوته، وتكون مشيئته. ولأجله يحفظ الله التلاميذ في اجسادهم، ولأجله ينالون غفران خطاياهم، وفي قوته يُحفظون من التجربة في كل وقت، وفي قدرته يُنقَذون للحياة الابدية. **له الملك والقوة والمجد الى الأبد في وحدة الاب. هذا هو يقين التلاميذ.**

ويشدد المسيح في الختام مرة اخرى على ان كل شيء يتوقف على غفران الخطية، هذا الغفران الذى يناله التلاميذ داخل شركة التائبين.



الفصل الحادي عشر

الحياة التقيّة في الخفاء

"ومَتى صُمتمْ فلا تكُونوا عَابسين كالمُرائين، فإنَّهمْ يُغيِّرون وجوهَهمْ لكي يظْهروا للنَّاس صَائمين. الحقَّ أقُول لكمْ: إنَّهمْ قد استَوفوا أجْرهم. وأمَّا أنْتَ فمَتى صُمتَ فَادهْن رأسكَ واغسل وجهَك، لكي لا تظْهر للنَّاس صَائمًا، بل لأبيكَ الَّذي في الخفَاء. فأَبوك الَّذي يرى في الخَفاء يُجازِيك عَلانِيةً" (متى ٦: ١٦-١٨).

يعتبر المسيح امرا مسلما به ان يمارس تلاميذه عادة الصوم التعبدية. **ان التدرب الدقيق على ضبط النفس عنصر من العناصر الجوهرية للحياة المسيحية.** وكان لهذه العادات هدف واحد، وهو تدريب التلاميذ على ان يكونوا اكثر استعدادا واشد فرحا في اتمام ما يريده الله منهم ان يتمموه. ان الصوم يساعد على تدريب الارادة الميالة للكسل والانغماس، والتي كثيرا ما تتباطأ في خدمة الرب، كما انه يفيد في اخضاع الجسد وقمعه وتأديبه. ونحن بضبط النفس والامتناع، نظهر للعالم ان الحياة المسيحية تختلف عن حياة اهل العالم. فان لم يكن هناك عنصر من عناصر التقشف في حياتنا، وتركنا الحبل على الغارب لشهوات الجسد (مع الاحتراس طبعا داخل الحدود التي تبدو مسموحة من العالم) نجد ان من الصعب جدا ان نتدرب على خدمة المسيح. فان جسدنا عندما يشبع ويكتفي يصبح من الصعب علينا ان نصلي بفرح او نكرس انفسنا لحياة الخدمة التي تتطلب الشيء الكثير من انكار النفس.

لهذا يِحتاج المسيحي ان يقوم بتدريب خارجي دقيق. لكن يجب ان لا نتصور ان هذا وحده يكفي لسحق ارادة الجسد، او ان هناك سبيلا آخر لصلب الانسان العتيق غير سبيل الايمان بيسوع. ان الفارق الحقيقي الذى يميز المؤمن التابع المسيح حقا وقد صلب ارادته فعلا ومات في المسيح عن الانسان العتيق، هو انه اكثر وعيا واعمق ادراكا من غيره لعصيان الجسد وكبريائه الدائمة، فهو يعي تباطؤه وتكاسله وانغماسه الذاتي، ويعرف ان كبرياءه يجب ان تُستأصل. لهذا فهو محتاج الى تدريب ذاتي كل يوم. ان القول بان الروح نشيط لكن الجسد ضعيف يصدق دائما على التلميذ، لذلك يجب عليه ان " **يسهر ويصلي**". فان الروح يعلم الطريق القويم، ويشتهي ان يسير فيه، لكن الجسد تنقصه الشجاعة، فيرى ذلك الطريق صعبا جدا، وخطر جدا، ومتعبا جدا، لذلك يحاول ان يخمد صوت الروح. ان الروح تلبي النداء عندما يأمرنا يسوع ان نحب اعداءنا، لكن الجسد البشرى قوى جدا، فيحاول منعنا عن ذلك. لذلك يجب ان ندرب انفسنا يوميا، فبهذا فقط يتعلم الجسد الدرس المؤلم، وهو ان لا حقوق ذاتية له. وما اكبر المعونة التي نتلقاها في هذا التدريب من الصلاة اليومية بانتظام ومن التأمل يوميا في كلمة الله، ومن كل نوع من انواع تدريب النفس.

والجسد يقاوم هذا القمع اليومي، اولا بالهجوم الامامي المباشر. واذ يفشل هذا الهجوم، نراه يلجأ الى الاختباء تحت ستار كلام الروح (مستخدما مثلا اسم "الحرية الانجيلية") نحن ندَّعي الحرية من كل ضغط الزامي ناموسي، من الصلب واذلال النفس، ونستهين بها كأنها ضد استخدام التدريب او التقشف الانجيلي استخداما سليما صحيحا، وبذلك نبيح لانفسنا الانغماس، ونبررها في عدم المواظبة على الصلاة، ونعفيها من التأمل، ومن مراعاة حياتنا الجسدية. لكن شتان ما بين

تصرفنا وكلام يسوع. وهل ننسى ان التلمذة معناها الاعتزال عن العالم؟ وهل ننسى الفرح والحرية الحقيقيين الناجمين عن مقياس الحياة النقي الدقيق؟ حالما يدرك المسيحي انه فشل في خدمته، وان استعداده لفعل ارادته قد ضعف، وانه قد اخطأ ضد شخص آخر، وصار مذنبا بعجزه عن مساعدة آخر في التخلص من ذنبه، وان كل فرحه في الله قد مضى وانقضى، وان كل مقدرته للصلاة قد ضاعت، عندما يحل به كل ذلك، تكون له اعظم فرصة لشن هجوم ساحق على الجسد، وللاستعداد لخدمة افضل بواسطة الصوم والصلاة (لوقا ٢: ٣٧ ، لوقا ٤: ٢ ، مرقس ٩: ٢٩ ، اكورنثوس ٧: ٥). وكل اعتراض يقول بأن التقشف خطأ، وبأن كل ما نحتاج اليه هو الايمان، هو خارج عن موضوع البحث. ومن القسوة والجفاء ان نقترح اعتراضا كهذا، اذ لا فائدة منه مطلقا. فبعد ان نقول كل ما نريد ان نقوله، وبعد ان نفعل كل ما نريد ان نفعله، يبقى ان حياة الايمان ليست شئيا مطلقا ان لم تكن جهادا مستمرا نستخدم فيه كل سلاح ممكن ضد الجسد. **فكيف يتسنى لنا ان نحيا حياة الايمان عندما نكل من الصلاة، وعندما نفقد لذتنا في قراءة الكتاب المقدس، وعندما يحرمنا النوم والاكل والشهوة من فرح الشركة مع الله؟**

ان التقشف معناه التألم طوعا واختيارا. هو الالم الاختيارى لا الالم الفرضي، وهنا يكمن الخطر. والخطر الكامن وراء التقشف هو ان نحاول ان نقلد آلام المسيح. هذا طموح يبدو تقيا لكنه ألم لا تقوى فيه، لانه يخفي تحته القول بانه ميسور لنا ان نتخذ مكان المسيح، ونتألم كما تألم، ونُميت الانسان العتيق. ونزعم عند ذلك اننا نقوم بذلك العمل المرير، عمل الفداء الابدي الذي عمله المسيح نفسه لاجلنا. **ان باعث التقشف محدود، وهو ان يعدّنا لخدمة افضل واتضاع اعمق.** ولا يتسنى له ذلك

الا اذا اتخذ آلام المسيح اساسا له. والا فانه يَهوي ويتدهور، وتتخذ آلام ربنا نفسها، مع ما فيها من هبة جدية سامية، موضع الهزل والسخرية. ويصبح باعثنا كله شهوة للفخفخة والغرور، اذ نرغب ان يرى الناس اعمالنا فيخجلون. ويصبح تقشفنا طريقا للخلاص. مثل هذه الدعاية نالت جزائها الذى تطلبه.

"**فَادهُن رأسكَ واغسِل وجهَك**". حتى هذا قد يصبح سبيلا لنوع ادهى واحيل من انواع تمجيد الذات والتمتع الشخصي. وفي هذه الحالة يفقد غايته ويصبح مجرد تظاهر. لذلك يأمر يسوع تلاميذه ان يمارسوا اعمال الاتضاع، لكن بدون ان يجعلوها قانونا او نظاما ملزما للاخرين. عليهم ان يفرحوا وان يشكروا الله للامتياز الذى منحه لهم وهو ان يظلوا في عبادة ربهم وخدمته. ويسوع لا يقصد ان تكون الابتسامة على الوجه نوعا من التعبير المطبوع الرسمي للمسيحية، لكنه يشير بالاولى الى التصرف المسيحي السليم الخفيّ، **الى التواضع الذى لا ينشغل بذاته، التواضع الذى يشبه العين التي ترى الاخرين ولا ترى ذاتها. هذا الاختفاء سيصبح يوما ما ظاهرا، وذلك بعمل الله، لا بعملنا نحن.**



الفصل الثاني عشر

بسَاطة الحياة الخالية من القلق

"لاَ تَكنزُوا لكمْ كُنوزًا على الأرض حيْث يُفسد السُّوس والصَّدأ، وحيْث ينْقُب السَّارقُون ويسرقُونَ. بل اكنزُوا لكمْ كُنوزًا في السَّماء، حيْث لا يُفسد سُوسٌ ولا صدأٌ، وحيْث لا ينْقبُ سارقُون ولا يَسْرقُون، لأنَّه حيْث يكُون كنْزكَ هنَاك يكُون قلْبكَ أيْضًا. سرَاج الجَسد هو العَينُ، فإنْ كَانتْ عَينكَ بَسيطَةً فجسدُكَ كلُّه يكُون نيرًا، وإنْ كَانتْ عَينكَ شرِّيرةً فجسدُكَ كلُّه يكُون مُظلمًا، فإنْ كانَ النُّور الَّذي فيكَ ظلامًا فَالظَّلامُ كمْ يكُون!

لا يَقدرُ أحَدٌ أنْ يخْدِم سيِّديْن، لأنَّه إمَّا أنْ يُبغضَ الوَاحد ويُحبَّ الآخَر، أوِ يُلازم الواحِد ويحتَقِرَ الآخرَ. لا تَقدِرُون أن تخْدِموا اللّه والمَال." (متى ٦: ١٩-٢٤).

نستطيع ان نحتفظ بحياة التلمذة، ما دمنا لا نسمح لأي شيء ان يتوسط بين المسيح وبيننا، فلا نسمح للشريعة، ولا للتقوى الشخصية، ولا للعالم ايضا ان يحول بيننا وبين المسيح. فان التلميذ ينظر دائما وابدا الى سيِّدِهِ وحدَهُ، لكنه لا ينظر الى المسيح والشريعة، ولا الى المسيح والدين، ولا الى المسيح والعالم. وهو ينفر من كل هذه الافكار الازدواجية كشيء كريه. انه لا يستطيع ان يُبقي عينه بسيطة الا باتباع المسيح وحده. لذلك يركّز نظره كله على النور الذى يأتيه من المسيح، النور الذي لا ظلمة فيه

ولا ضباب. وكما ان العين يجب ان تكون سليمة وصافية ونقية حتى تحفظ النور في الجسم، وكما ان اليد والقدم لا يمكن ان تحصلا على النور من اي مصدر سوى العين، وكما ان القدم تزل واليد تخطىء الهدف اذا لم تكن رؤيا العين سليمة واضحة، وكما ان الجسم كله يكون مظلما اذا كانت العين عمياء، كذلك تابع المسيح يبقى في النور ما دام ناظرا الى المسيح وحده دون اى شيء آخر في العالم. لهذا يجب ان يضع التلميذ قلبه في المسيح، ويركّزه فيه دون سواه. فان نظرت العين شيئا بعيدا عن المسيح، ضلّ الجسد كله. واذا اتجه القلب الى سراب العالم وتركّز في المخلوق عوضا عن الخالق ضاع التلميذ.

ان الممتلكات العالمية تعمل على تحويل قلوب التلاميذ بعيدا عن يسوع. **فالسؤال المهم هو: لأي شيء نحن مكرسون فعلا؟** هل قلوبنا متجهة الى الاشياء الارضية؟ هل نحاول ان نربط بين ولائنا لها وولائنا للمسيح؟ ام نحن مكرسون له وحده دون سواه؟ **سراج الجسد هو العين، وسراج المسيحي هو قلبه.** فان كانت العين مظلمة فما اشد ظلام الجسد. لكن القلب يصير مظلما عندما يتعلق بالاشياء الارضية، اذ بها لا تستطيع دعوة المسيح ان تلقى قبولا في قلوبنا، **مهما كانت تلك الدعوة رقيقة ومُلحّة. توجه الينا الدعوة ولكن قلوبنا تُغلق في وجهها لانها قد سبقت فاعطيت لاخر.** وكما ان النور لا يستطيع ان يصل الى جسم ان كانت العين شريرة، **هكذا كلمة يسوع لا تستطيع ان تنفذ الى قلب التلميذ ما دام مُغلَقاً في وجهها. بل تُخنق الكلمة، كما تُخنق الحبة المزروعة بين الشوك، "... مِن هُمومِ الحَياةِ وغِنَاهَا ولذَّاتِهَا " (لوقا ٨: ١٤).**

تتفق بساطة العين والقلب مع عنصر "**الخفاء**" الذى لا يعرف شيئا سوى دعوة يسوع وكلمته، والذى يقوم في الشركة الكاملة معه. **كيف يستطيع**

التلميذ ان يشتبك مع الاشياء الارضية ويحفظ بساطة القلب؟ ان يسوع لا يمنع امتلاك الثروة والممتلكات. لقد كان انسانا، واكل وشرب مثل تلاميذه، وبذلك قدّس الاشياء الصالحة في الحياة. وعلى التلميذ ان يستخدم بالشكر ضروريات الحياة، التي تُستهلَك باستخدامها، وتلبي حاجات الجسد المشروعة.

وما اجمل ما قاله ترشتيجن في هذا الصدد:

"اننا نسير في الأرض كسائحين غرباء، ننفض عن أيدينا كل ثقل لنظل أخفاء. فجمع الثروة لا يساوي شيئا بل هو ثقل على حياة النزلاء. ان اختار الناس طريق الموت والبلاء رفضنا صحبتهم بكل عزة واباء، لان الله لنا. حاجاتنا يقضيها. هو قريب منا. اعوازنا يلبيها."

لقد مُنحَت لنا البركات الارضية لنستخدمها، لا لنجمعها ونكوّمها. لقد اعطى الله شعبه قديما المَنَّ كل يوم وهم في البرية، فلم يتركهم يرتبكون ويقلقون في ما يأكلون ويشربون. وكانوا اذا حفظوا منه شيئا للغد، يتلف ويُنتن. هكذا الحال مع التلميذ، فعليه ان يأخذ نصيبه من الله كل يوم. فان اراد ان يخزن ويكنز ما يعتبره ثروة دائمة، لا يُتلف تلك العطايا فقط، لكنه يُتلف نفسه ايضا، لانه يضع قلبه على ثروته المخزونة، ويجعلها فاصلا بينه وبين الله. فحيث يكون كنزنا، هناك تكون ثقتنا، وضماننا، وتعزيتنا، بل الهنا ايضا. فجمع الكنوز عبادة اصنام. (ليس من قبيل المصادفة اطلاقا ان يضيف بولس في رسائله خطية الزنى على خطية الطمع، ويضيفهما بانهما عبادة اوثان - المترجم).

لكن اين نضع الخط الفاصل بين الاستخدام المشروع للمال وبين تكديسه المحرم؟ لنعكس كلمة يسوع فنجد الجواب. "**حيث يكون قلبك**

هناك يكون كنزك ايضا". قد يكون كنزنا صغيرا وغير ظاهر، ولكن ذلك ليس هاما، فان الامر كله يتوقف على القلب وليس علينا. فاذا سألنا كيف نعرف اين توجد قلوبنا، فالجواب بسيط - كل شيء يعيقنا عن محبة الله فوق كل شيء، ويقف حائلا بين نفوسنا وبين طاعتنا ليسوع فهو كنزنا، هو المكان الذي فيه قلبنا.

ولكن يسوع يعرف ان قلب الانسان يصبو الى كنز، لذلك شاءت مسرته ان يكون للانسان كنز (يُلاحظ ان يسوع لا يحرم القلب البشري من احتياجاته الفطرية الضرورية مثل الكنز، والمجد، والمديح. لكنه يمنحه اهدافاً اسمى، هي مجد الله (يوحنا ٥: ٤٤) والافتخار بالصليب (غلاطية ٦: ١٤) والكنز في السماء - المترجم). لكن هذا الكنز يجب ان يكون في السماء، لا على الارض. فان كنوز الارض تفنى سريعا، اما كنز السماء فيبقى الى الابد. ولا يعني يسوع بهذا الكنز، الكنز الاوحد العظيم اي المسيح نفسه، بل كنوزا بمعنى الكلمة الحرفي، كنوزا يذخرها التلاميذ لانفسهم. وما اسمى الوعد الذى لنا هنا، فاذ نتبع يسوع ننال كنوزا سماوية لا تفنى، محفوظة لنا، وسنتمتع بها يوما ما، وتكون ملكنا الخاص. ولا شك ان هذه الكنوز ليست سوى الشيء "**الخارق**". **هي سجية الحياة المسيحية الخفية، هي ثمرة الغيرة المضطرمة ليسوع المسيح التي تسند حياة تابعيه.**

ان كانت قلوبنا كلها لله فواضح جليا اننا لا نقدر ان نخدم سيدين. هذا مستحيل ما دمنا نتبع يسوع كل حين. وقد نرغب في ان نرى الى اي حدّ بلغ تقدمنا في حياتنا المسيحية بمحاولة خدمة سيدين، الله والمال، واعطاء كل منهما حقه. قد نسأل: لماذا لا نكون سعداء مثل ابناء العالم

بعد ان اصبحنا ابناء الله؟ الا نفرح ونتهلل بعطاياه الصالحة؟ أَوَلا نقبل كنوزنا بركة منه تعالى؟ والجواب ان الله والعالم، الله والمال لا يتفقان، لان العالم وماله يسعيان للاستيلاء على قلوبنا، فبعد ان يريحا قلوبنا يظهران لنا على حقيقتهما. لهذا السبب نجد قلوبنا تجاهد وتحاول ان تناقض وتخالف الولاء لله. وقلوبنا في حقيقتها ليس فيها الا مجال واحد لولاء واحد شامل كامل، فلا نستطيع الا ان نتعلق برب واحد ونتمسك به. وكل منافس لهذا الولاء التام، يجب رفضه رفضا باتا. او كما قال يسوع، لا يوجد بديل آخر، فاما ان نحب الله او نُبغِضَهُ. هذا امر حتمي قاطع، فاما ان نحب الله او نحب الاشياء الارضية. ان احببنا الله ابغضّنا العالم، وان احببنا العالم ابغضنا الله، سواء كانت تلك المحبة واعية متعمّدة ام لا. بل ان الواقع الخلقي يؤكد لنا ان محبتنا للعالم وبغضنا لله لن يكونا واعيين متعمّدين ولا غير واعيين ولا متعمّدين، لأن رغبتنا الواعية المتعمدة ستكون خدمة سيّدين، محبة الله ومحبة الاشياء الطيبة في هذه الحياة. وبالطبع سنرفض بغضب وشدة الفكر الذي يقول باننا نبغض الله، ونُقنع انفسنا بحزم اننا نحبه، في حين اننا نحاول ان نجمع بين حبّه وحب العالم. ونحن بذلك انما نقلب محبتنا له الى بغضة. وعند ذلك نكون قد فقدنا العين البسيطة، وتكون قلوبنا قد ابتعدت عن الشركة مع يسوع. ليس لغاياتنا واهدافنا المتعمدة ادنى أثر في النتيجة الحتمية المؤكدة: لا تقدرون ان تخدموا سيدين ان كنتم أتباع يسوع المسيح.

"لذلكَ أقُول لكمْ: لاَ تَهتمُّوا لحيَاتكمْ بمَا تأكُلون وبمَا تشرَبُون، ولاَ لأجْسَادكمْ بمَا تَلبَسُون. أليْسَت الحياة أفضَل منَ الطَّعَام، والجَسد أفضَل من اللّبَاس. انظُروا إلى طُيور السَّماء: إنَّها لا تَزرعُ ولا تَحصُد ولا تَجمَع إلى مخَازن، وأَبوكمُ السَّماويُّ يقُوتها. ألَستمْ أنتُم بالحَريِّ

أفضَل منْهَا. ومَنْ منكمْ إذَا اهتمَّ يَقدر أنْ يَزيدَ عَلَى قَامَته ذراعًا واحدةً. ولماذَا تَهتمُّون باللِّباس. تأمَّلوا زنَابق الحَقل كَيْف تَنمُو! لا تَتعبُ ولا تغْزلُ. ولكنْ أقُول لكمْ: إنَّه ولاَ سُليمَان فِي كل مجْده كَان يَلبسُ كواحدة منْها. فإنْ كَان عُشب الحَقل الَّذي يُوجد اليَوم ويُطرَح غدًا فِي التنُّور، يُلبسه الله هكَذا، أفليسَ بالحَريّ جدًّا يُلبسكمْ أنتُمْ يَا قَليلي الإيمَان. فلا تَهتمُّوا قَائلينَ: مَاذا نأكُل. أو مَاذَا نَشربُ. أو مَاذا نلبسُ. فإنَّ هذه كلَّها تَطلُبها الأمَم. لأنَّ أباكمُ السَّماويَّ يَعلمُ أنَّكمْ تَحتاجُونَ إلى هذه كلّها. لكن اطلبُوا أوّلاً ملكوت الله وبرَّه، وهذه كلُّها تزَاد لكمْ. فلا تهتمُّوا للغَد، لأنَّ الغَد يهْتمُّ بمَا لنَفْسه. يَكفي اليَوم شرُّه." (متى ٦: ٢٥-٣٤).

"**لاَ تَهتمُّوا**". ان للممتلكات الارضية جاذبية ساحرة تسبي عيوننا وتخدعنا حتى نظن انها توفّر لنا ضمانا من القلق وحرية من الهم. لكنها هي دائما مصدر كل هم وقلق. فاذا وضعنا قلوبنا عليها كان نصيبنا القلق الذي لا يطاق ولا يحتمل. ان القلق يخلق لنفسه كنوزا، وتلك الكنوز تجلب مزيدا من القلق. فعندما نسعى لايجاد ضمان بواسطة ما نملك، نحاول بذلك ان نطرد الهم بالهم، ونبعد القلق بالقلق، فتكون النتيجة عكس ما توقعناه تماما. وتصبح القيود التي تربطنا بممتلكاتنا هموما.

واسوأ طريقة في استخدام ما نملك ان نستخدمه كضمان للغد. ذلك ان القلق انما يتجه دائما للغد، في حين ان الممتلكات في ادق معناها انما قُصد بها ان تُستخدَم فقط لليوم الحاضر. فعندما نحاول ان نؤمّن بها الغد انما نخلق قلقا لليوم الحاضر. يكفي اليوم شره، كما قال المسيح. والطريقة الوحيدة لتأكيد ضمان الغد هي ان نترك الغد كلية في يد الله، ونقبل منه اليوم كل ما نحتاج اليه. فاذا ما قلقنا وارتبكنا بشؤون الغد، بدلا من قبول عطايا الله لليوم، وجدنا انفسنا ضحايا بؤساء لقلق لا

حدّ له. اذن الامر "لا تهتموا للغد" اما انه سخرية قاسية على الفقراء والتعساء، وهم الناس انفسهم الذين كان يخاطبهم يسوع، الناس الذين من وجهة نظر بشرية يموتون فعلا من الجوع اذا لم يُعدّوا اليوم ما يلزم لغدهم، واما انه قانون لا يُطاق يجب على الناس رفضه بغضب وكراهة، او انه اعلان الانجيل الفريد للحرية المجيدة التي منحها المسيح لابناء الله، اولئك الذين لهم اب في السماء، اب قد بذل لاجلهم ابنه الوحيد، فكيف لا يهبنا معه كل شيء؟

هذا الامر "**لاَ تَهتمُّوا للغَد**" يجب الا يؤخذ على انه فلسفة للحياة، او شريعة ادبية، اذ هو انجيل يسوع المسيح، وعلى هذا الاساس فقط يجب ان يُفهم. فلا يستطيع الا الذين يتبعون المسيح ويعرفونه شخصيا ان يقبلوا هذا الكلام كوعد لمحبة ابيهم، وكتحرير لهم من عبودية الاشياء المادية. فلا يمكن ان الهم يحررهم من الهم، اذ لا يحررهم سوى ايمانهم في يسوع المسيح. هؤلاء وحدهم يعرفون اننا لا نستطيع ان نهتم (عدد ٢٧). فان اليوم القادم، بل الساعة القادمة، ليست في ايدينا، ولا تحت سلطاننا، فليس من المعقول ان نزعم اننا نستطيع تدبير امورنا كما يلزم، لاننا لا نستطيع ان نغيّر ظروف هذا العالم. انما الله وحده هو الذي يدبّر ويعتني، لانه هو وحده الذى بيده مقاليد امور العالم. وحيث اننا لا نستطيع ان نهتم او نعتني، كليا ونعجز تماما عن تغيير ظروف العالم، فيجب ان لا نهتم ولا نقلق. والا فنحن نعزل الله عن عرشه.

ويعرف المسيحي ايضا انه لا يستطيع ولا يجسر ان يهتم، كما يعرف فوق ذلك انه لا حاجة به ان يهتم. فهو لا يحصل على خبزه اليومي بالهم ولا بالعمل، فان الخبز عطية الله. ها العصافير والزنابق لا تتعب ولا

تغزل، ومع ذلك تحصل على طعامها وكسائها، وتأخذ نصيبها اليومي بدون هم. وهي تحتاج الى لوازمها الارضية، لحاجتها اليومية، لكنها لا تخزن للمستقبل. وهي تمجد خالقها بهذه الطريقة، لا باجتهادها ولا بتعبها ولا باهتمامها، بل بقبولها عطايا الله يوميا بدون سؤال. والعصافير والزنابق هي خير مثال لاتباع المسيح. ان الانسان في عصيانه يتصور ان هناك علاقة بين السبب والنتيجة، بل العمل والقوت، لكن يسوع يفضح هذا الخداع المضل. فالخبز بحسب تعليم يسوع لا يؤخذ على انه جزاء عن العمل. لقد علّمنا عن الحياة الخالية من الهم والقلق، حياة البساطة للانسان الذى يسير معه ويقبل كل شيء باعتباره معطى من الله.

قال لوثر: "لاحظ انه لا يوجد حيوان يشتغل لاجل قوته، انما يقوم كل حيوان بعمله، وإذ هو يؤديه يجد طعامه الذى يبحث عنه. فالطير يطير ويغني، ويبني عشه، ويطعم صغاره. هذه وظيفته وهذا عمله، لكنه لا يغذى نفسه عن طريق هذا العمل. والثيران تحرث، والخيول تجر العربات وتحارب، والاغنام تقدم الصوف واللبن والجبن، لان هذا عملها ووظيفتها، لكنها لا تُغذّي نفسها ولا تربي نفسها بهذه الاعمال. وكذلك الأرض تُنبت الاعشاب وتغذيها ببركة الله. وهكذا الحال مع الانسان، فان من واجبه ان يشتغل ويؤدى اعماله، لكنه يعرف مع ذلك ان الذى يطعمه ويعتني به هو أخر. اى ان قوته يتوقف على بركة الله لا على عمله. صحيح ان العصافير لا تزرع ولا تحصد، ولكنها تموت جوعا اذا لم تطر وتبحث عن طعامها. لكن وجود طعام العصافير ليس عملها بل هو صلاح الله. لانه من وضع الطعام هناك حتى تجده العصافير؟ ولو لا ذلك لَمَا وجد احد شيئا مما وضعه الله، ولو اشتغل كل العالم حتى قتل نفسه بحثا عن الطعام". اما اذا كان الخالق يهتم بالعصافير والزنابق، أفلا

يهتم بالاولى باولاده الذين يصلون له كل يوم؟ الا يستطيع ان يمنحهم ضروريات الحياة، اذ ان كل خيرات الارض له، وهو يوزّعها كما يشاء؟

ان الهم من خصائص الامم، لانهم يعتمدون على قُوَّتهم وعملهم، ولا يعتمدون على الله. انهم لا يعلمون ان الآب يعلم كل ما نحتاج اليه، ولهذا فهم يحاولون ان يفعلوا لانفسهم ما لا ينتظرونه من الله. لكن التلاميذ يعلمون ان القانون هو: "**اطلبوا اولا ملكوت الله وبره وهذه كلها تُزاد لكم**". ان الاهتمام بالطعام والشراب يختلف عن الاهتمام بملكوت الله. عبثا نحاول ان نُقنع انفسنا اننا بالاشتغال لاجل عائلاتنا وانفسنا في تحصيل الخبز وفي رعاية البيوت نبني الملكوت، كأن الملكوت يمكن ان يتم عن طريق اهتماماتنا الدنيوية. **ان ملكوت الله وبره يختلفان اختلافا بيِّناً عن عطايا العالم التي تصادفنا في طريقنا.** هذا الملكوت لا يختلف في شيء عن البر المذكور في متى٥و٦، بر الصليب، بر اتّباع المسيح تحت الصليب. اذن تأتي اولا الشركة مع يسوع، والطاعة لوصاياه، وكل شيء آخر يتبع ذلك. اما الاهتمام العالمي فليس جزءا من تلمذتنا للمسيح، بل هو اهتمام ثانوى قائم بذاته. وعلينا قبل ان نهتم بحياتنا، او طعامنا، او لباسنا، او عملنا او عائلاتنا، ان نطلب اولا بر المسيح. وهذا يتضمن اكثر من تلخيص لما سبق ذكره. هنا نقول مرة اخرى ان هذا اما ان يكون ثقلا مضنيا يحطّم الانسان ويسحقه ولا يحمل في ثناياه رجاء للفقراء المساكين الاشقياء، او ان يكون لب الانجيل وزبدته ويحمل معه وعد الحرية والفرح الكامل. ان يسوع لا يخبرنا بما يجب علينا ان نفعله ونحن لا نستطيع ان نفعله. لكنه يخبرنا بما وعد الله ان يعطيه لنا، ولا يزال يعطيه. **فان كان المسيح قد أُعطي لنا، وان كنا قد دُعينا للتلمذة له، فقد أُعطي لنا كل شيء. نعم كل شيء حرفيا أُعطي لنا. وهو سيهتم بأن تُزاد هذه كلها**

لنا. فان تبعنا يسوع ونظرنا فقط الى بره، فنحن في يديه، وتحت حمايته وحماية ابيه. وان كنا في شركة مع الاب، فلا شيء يستطيع ان يؤذينا. سنتأكد دائما انه يستطيع ان يطعم اولاده، وانه لن يتركهم يجوعون. ان الله سيساعدنا في وقت حاجتنا، وهو يعلم كل ما نحتاج اليه.

بعد ان يتبع التلميذ يسوع زمنا طويلا، يسأله يسوع: "هل اعوزك شيء؟" فيجيب التلميذ "لا شيء يا سيد". كيف لا وهو يعلم انه بالرغم من الجوع والعرى، والاضطهاد والضيق، فان الرب دائما معه والى جانبه.



الفصل الثالث عشر

التلميذ وغير المؤمنين

"لاَ تَدينوا لكيْ لاَ تُدانوا، لأنَّكمْ بالدَّينونة الَّتي بها تَدينُون تُدانونَ، وبالكَيلِ الَّذي به تكيلُون يُكَال لكمْ. ولماذَا تَنظرُ القَذَى الَّذي في عَيْن أخيك، وأمَّا الخشَبَةُ الَّتي في عَيْنك فلا تَفطَن لهَا. أم كيْف تقُول لأَخيكَ: دَعني أخْرج القَذَى من عَيْنك، وها الخشبَة في عَيْنك. يامُرَائي، أخرِجْ أوّلاً الخشبَة من عَيْنك، وحينئذ تُبصر جيّدًا أنْ تُخرج القذَى من عَيْن أخيكَ! لاَ تُعطوا القُدسَ للكلاَب، ولا تَطرَحوا دُرركمْ قدَّام الخنَازير، لئَلاَّ تَدُوسها بأرجُلهَا وتَلتفتَ فتُمزّقكمْ.

اسألُوا تُعطَوْا. اطلبُوا تجدُوا. اقرعُوا يُفتَح لكمْ. لأنَّ كلّ منْ يَسأَل يَأخذ، ومنْ يطلُب يَجد، ومنْ يقْرَع يُفتَح لهُ. أم أيُّ إنسان منكمْ إذا سألهُ ابْنهُ خبزًا، يُعطيه حجَرًا. وإنْ سألهُ سَمكةً، يعطيه حيَّةً. فإنْ كنتُمْ وأنتُمْ أشْرَارٌ تَعرفُون أن تُعطوا أولادكُمْ عطَايَا جيِّدَةً، فكمْ بالحريِّ أبوكُم الَّذي في السَّماوات، يهبُ خيرَات للَّذين يَسألونه. فكلُّ ما تريدُونَ أنْ يفعَل النَّاس بكم افعَلُوا هكَذا أَنتُمْ أيْضًا بهمْ، لأنَّ هذا هو النَّاموس والأنبيَاء." (متى٧: ١-١٢).

يوجد خيط ممتد يَسري في الاصحاحين الخامس والسادس، ثم يمر في هذه الاعداد، ويظل الى الخاتمة النهائية العظمى للموعظة على الجبل. فالاصحاح الخامس عالج الصفة الأفضل للحياة المسيحية، والاصحاح

السادس عالج بر التلاميذ، البر المخفي السليم النية الخالص الطوية. والتلمذة تدل في الناحيتين على انفصال التلاميذ عن كل رُبطهم القديمة، وعلى اتصالهم الكامل الجامع المانع بيسوع المسيح دون سواه. وقد رسم يسوع بكل وضوح الحد الفاصل بين الحياة العتيقة والحياة الجديدة. لكن هذا يثير السؤال عن العلاقة بين المسيحيين وجيرانهم غير المسيحيين. هل يمنحهم هذا الانفصال عن بقية المجتمع حقوقا وامتيازات خاصة؟ هل للمسيحيين قوة ومواهب ومقاييس تؤهلهم لممارسة سلطة على الاخرين؟ ما كان أيسر على التلاميذ ان يتخذوا موقفا اعلى واسمى من غيرهم، منه يُصدرون احكاما ودينونة ظالمة على بقية العالم، وان يوهموا انفسهم بأن هذه هي ارادة الله. لهذا حرص المسيح ان يصرّح تصريحا يمنع كل شك، بان سوء فهم كهذا يعرض التلمذة لاشنع الاخطار. فليس للتلاميذ ان يدينوا الناس، والا فان الله سيدينهم. والسيف الذى يشهرونه فوق رؤوس الناس للقضاء والحكم على الاخرين، سيقع على رؤوسهم. وبدلا من ان يقطعوا انفسهم عن اخيهم، كابرار ينفصلون عن الاثمة، يجدون انفسهم قد فصلوا من يسوع.

لماذا يجب ان يكون هذا؟ ان مصدر حياة التلميذ قائم كليا في شركته مع يسوع المسيح. فالتلميذ يملك بره داخل هذه الشركة فقط، ولا يملكه ابدا خارجا عنها.

لهذا فليس بره ميزانا يطبّقه كما يشاء. هو تلميذ، لا بسبب كونه يملك معيارا جديدا، بل فقط بسبب كونه في يسوع المسيح، الوسيط الوحيد، وابن الله نفسه. بمعنى آخر، بره مخفي عن نفسه في الشركة مع يسوع. فلا يستطيع ان يكون - كما كان من قبل - هو الشاهد المراقب لنفسه، او الديان لنفسه منفصلا عن يسوع، لانه يستطيع ان يرى يسوع وحده،

وان يُرى منه، وان يُدان به، وان يُعفى من قِبله. فليس مقياس عظيم مقبول للحياة البارة المستقيمة هو الذى يفصل تابع المسيح عن غيره من غير المؤمنين، وانما الذى يفصل هو المسيح الذى يقف بين المؤمن وغير المؤمن. والمسيحيون دائما يعتبرون الاخرين اخوة واشخاصا يريد المسيح ان يجتذبهم اليه، وعلى هذا الاساس فقط يقابلونهم اذ يذهبون اليهم مع المسيح. ولا يستطيع التلميذ وغير التلميذ ان يلتقيا معا كشخصين مستقلين حرين، يتبادلان الاراء مباشرة، ويحكمان احدهما على الاخر بمقياس خارجي. كلا، فلا يستطيع التلميذ ان يلتقي مع غير التلميذ الا كانسان يأتى به المسيح اليه. وهنا يأتى المسيح وحده، يأتى بجهاده وحربه لربح نفوس غير المؤمنين، يأتى بدعوته ومحبته ونعمته ودينونته. فليست التلمذة مركزا متفوقا يخوّلنا الهجوم على الاخرين، انما عن طريق التلمذة نأتي اليهم لنقدم شركة غير مشروطة ومحبة يسوع الخالصة النقية.

عندما ندين الاخرين نجابههم بروح التفرقة ونلاحظهم كأنهم خارجون عنا. ليس للمحبة وقت ولا مجال لتدين الاخرين. فان احببنا شخصا آخر لا يمكن ان نراه بروح التفرقة، لانه دائما بل في كل لحظة له حق جوهري في ان يفوز بمحبتنا وخدمتنا. لكن ألا يدفعني الشر الموجود عند شخص آخر ان ادينه لاجل خيره ليس الا، وفي سبيل المحبة له؟ هنا نرى عمق الخط الفاصل. وكل محبة للخاطىء تُخطىء هدفها هي اقرب جدا الى محبة الخطية منها الى محبة الخاطىء. ان محبة المسيح للخاطىء، هي في ذاتها دينونة للخطية، وبها يعبّر عن مقته التام للخطية. اما تلاميذ المسيح فعليهم ان يحبوا بدون قيد ولا شرط، وبذلك قد يتممون ما تعجز محبتهم المنقسمة، المشروطة عن ان تتمِّمه.

ان كان التلاميذ يُصدرون احكاما من تلقاء ذواتهم، فانهم بذلك يقيمون مقاييس للخير والشر. لكن يسوع المسيح ليس مقياسا يمكنني ان اطبّقه على الاخرين، بل هو الحاكم الديان لنفسي، الذى يعلن لي ان فضائلي كلها شر. فلذلك ليس لي ان اطبق على شخص آخر ما لا ينطبق عليّ . لاني عندما اطبق احكامي بحسب مقاييس الخير والشر، اثبت الشر الموجود في الشخص الاخر، لانه يفعل تماما مثلي. لكنه لا يعرف الاثم الخفي الذى يستتر في الصلاح، بل يسعى الى تبرير نفسه بالصلاح. فان كنت ادين اعماله الشريرة، فأنا بذلك اؤيده في موقفه من جهة اعماله الحسنة ظاهريا، التي ليست حسنة في نظر المسيح ولا تلقى تقديره وثناءه. وبذلك تُعفيه من دينونة المسيح ونخضعه للدينونة البشرية. انما انا في هذه الحالة استنزل دينونة الله على رأسي، اذ اني بعملي هذا لا احيا بنعمة يسوع المسيح، بل بمعرفتي الخير والشر، حسب ما اعتقد. والله بالنسبة لكل انسان هو الاله الذى يؤمن هو به.

ان الدينونة هي التفكير غير المسموح به عن شخص آخر، فتقضي على المحبة الخالصة وتدمرها. وليس ممنوعا علي ان اكوّن افكارى عن الشخص الاخر، واعرف تقصيره وفشله، وانما الى الحد الذى يتيح لي فرصة للصفح عنه ويجعلني اقدم له محبة غير مشروطة، كما يُظهر لي يسوع. واذا امتنعت عن دينونتي اياه فاني لا ابرر اعماله ولا اشجعه على التمادي في طرقه الشريرة. فلست انا على صواب ولا الشخص الاخر، انما الله وحده هو دائما على صواب، وله وحده ان يقدّم نقمته ودينونته.

ان دينونة الاخرين تعمينا، في حين ان المحبة تمنح الانارة والايضاح. فاذا دأبنا على دينونة الاخرين نُعمي انفسنا عما بنا من شرور، وعن

النعمة التي للاخرين ان ينعموا بها مثلنا. لكن في محبة المسيح نعلم كل ما يمكن ان نعلمه عن اى ذنب او خطية نتصورها، لاننا نعلم كيف تألم المسيح، وكيف غفر للجميع عند اقدام الصليب. ان المحبة المسيحية ترى الشخص الاخر تحت الصليب، فهي لذلك تراه بوضوح وجلاء. ان كان باعثنا الحقيقي عندما ندين الاخرين هو ابادة الشر، وجب ان ننظر الى الشر حيث يوجد بالتأكيد، وذلك في قلوبنا نحن. ولكن ان كنا نبحث عن الشر في الاخرين يكون باعثنا الحقيقي الاكيد هو تبرير انفسنا، لاننا نحاول ان نتهرب من قصاص خطايانا، بادانة الاخرين، وكأننا نزعم ضمنا ان كلمة الله تنطبق علينا بشكل، وعلى غيرنا بشكل آخر. وهذا عمل بالغ الخطورة يؤدي الى الخداع والتضليل. فاننا به نحاول ان ندّعي لانفسنا امتيازا خاصا ننكره على الاخرين لكن تلاميذ المسيح لا يملكون حقوقا خاصة، ولا مقاييس للصواب والخطأ يستطيعون ان يطبقوها على الاخرين. وكل ما يملكونه هو شركة المسيح التي قبلوها منه. من اجل ذلك لا يحق للتلميذ ان يجلس على كرسي القضاء ليدين الاخرين، فانه ان فعل ذلك يكون قد اغتصب ظلما كرسي القضاء.

وليست دينونة الاخرين فقط ممنوعة على المسيحي، بل ان استخدام كلمة الخلاص له حدود. فليس له سلطان ان يفرضها فرضا على الاخرين، في وقت مناسب وغير مناسب. وكل محاولة لفرض الانجيل بالقوة، وللركض وراء الناس وتصييرهم دخلاء، انما هي محاولة فاشلة وخطرة، محاولة فاشلة لان الخنازير لا تقدّر الجواهر والدُّرر التي نطرحها قدامها، وهي محاولة خطرة لانها تدنّس كلمة الغفران اذ تقود الذين نسعى لخدمتهم للخطأ ضد ما هو مقدس. واردأ من ذلك اننا لن نقابَل الا بالغضب الاعمى الطافح من قلوب اظلمت وتقسّت. وفي هذا ما فيه من

تفاهة تامة وضرر بالغ. ان متاجرتنا السهلة بكلمة "**النعمة الرخيصة**"، هذه المتاجرة المحظورة لا تؤدّي الا لاثارة ازدراء العالم ومقته فينقلب في النهاية ضد الذين حاولوا ان يفرضوا عليه ما لا يريد. وهكذا يوضع حد دقيق لجهود التلاميذ ونشاطهم، كما تَوَضّح في الاصحاح العاشر من انجيل متى، حيث أُمروا ان ينفضوا غبار ارجلهم على منْ يرفضون ان يسمعوا كلمة السلام. اما طاقتهم التي لا تهدأ، والتي تأبى ان تعترف بأي حدّ لنشاطهم، واما غيرتهم التي تأبى ان تحسب حسابا للمقاومة، فهذه كلها ناجمة عن الخلط بين الانجيل وفكرة عقائدية مسيطرة. ان الفكرة العقائدية تتطلب متعصبين متطرفين، لا يعرفون المقاومة ولا ينتبهون لها ولا يحسبون لها حسابا، وهي قوة هائلة بكل تأكيد. لكن كلمة الله في ضعفها ترضى ان تخاطر وتقابل سخرية الناس وهزءهم، وتقبل ان تُرفض فان الكلمة تعرف المقاومة حين تجابهها، وهي مستعدة ان تحتملها. فمن المهم ان نعي هذا الدرس الحقيقي - على قساوته - وهو ان الانجيل يختلف عن مجرد الفكرة العقائدية، في كونه يحسب حساب المستحيلات. ان الكلمة اضعف من الفكرة العقائدية بمعنى ما، اى بمعنى ان تلاميذ المسيح وشهوده لا يملكون سوى الانجيل تحت امرتهم. هم اضعف من مروجّي فكرة ودعاة عقيدة، ولكنهم ولو كانوا ضعفاء فهم على اتم استعداد ان يتألموا وان يحتملوا لاجل الكلمة، ولذا تراهم احرارا من القلق السقيم الذي هو سمة المتطرِّف.

ان التلاميذ يستطيعون ان يتركوا الميدان ويهربوا ان دعت الحال، بشرط ان يأخذوا الكلمة معهم، وبشرط ان يكون ضعفهم هو ضعف الكلمة، وبشرط ان لا يهجروها عند هروبهم. فهم مجرد خدام وآلات للكلمة، لا تستبد بهم الرغبة ان يكونوا اقوياء حيث ترضى الكلمة ان تكون

ضعيفة. اما اذا حاولنا ان نفرض الكلمة فرضا بأيه وسيلة، فان ذلك يجعل كلمة الله الحية مجرد فكرة، ويكون للعالم الحق ان يرفض الاصغاء الى فكرة لا يرى فيها فائدة له. ولكن على التلاميذ في اوقات اخرى ان يتمسكوا باسلحتهم، ويرفضوا الهروب، انما يكون ذلك بطبيعة الحال عندما تريده الكلمة فقط. فان لم يدركوا ضعف الكلمة، فشلوا في ادراك سر التواضع الالهي. ان هذه الكلمة الضعيفة التي ترضى ان تحتمل مقاومة الخطاة، هي ايضا كلمة الرحمة القوية التي تستطيع تجديد قلوب الخطاة. ان قوتها مخبؤه في الضعف. ولو جاءت بالقوة والسلطان لكان معنى ذلك ان يوم الدينونة قد اتى. ان واجب التلاميذ العظيم هو ان يدركوا حدود مهمتهم. اما اذا استخدموا الكلمة خطأ، فستنقلب حتماً ضدهم.

ترى ماذا يفعل التلاميذ حينما يواجهون المقاومة، ولا يستطيعون ان ينفذوا الى قلوب البشر؟ عليهم ان يسلّموا تحت كل الظروف والاحوال بأن لا حق ولا سلطة لهم على الاخرين، وبانهم لا يستطيعون الاتصال المباشر بهم، فالسبيل الوحيد لوصولهم الى الاخرين هو عن طريق ذاك الذي هم انفسهم والاخرون في يديه على حد سواء. وسنتوسع في هذا ونسمع المزيد عنه كلما تقدمنا. **ان التلاميذ يتعلمون ان يصلوا، وبهذا يتعلمون ان السبيل الوحيد للوصول الى الاخرين، هو سبيل الصلاة لله. والدينونة والغفران هما دائما في يدي الله.** فهو الذي يُغلق ويفتح، لكن على التلاميذ ان يسألوا، وان يطلبوا، وان يقرعوا، وعند ذلك يسمع الله لهم. **عليهم ان يتعلموا ان اهتمامهم بالاخرين وقلقهم من اجلهم يجب ان يقوداهم الى الصلاة والتضرع والشفاعة. ان وعد المسيح باستجابة صلاتهم هو اقوى سلاح سلّمه لهم.**

والفرق بين طلب التلاميذ وطلب الامم لله، هو ان التلاميذ يعرفون ما يطلبونه وينتظرونه. فنحن لا نستطيع ان نطلب الله الا بعد ان نكون قد سبقنا وعرفناه. كيف تستطيع ان تبحث عن شيء او تجده ان كنت لا تعرف ما تبحث عنه او تطلبه؟ ان التلاميذ يطلبون الله الذي وجدوه في الوعد الذي قبلوه من المسيح.

والخلاصة، يتضح مما سبق ان التلميذ لا يملك امتيازا خاصا ولا سلطة خاصة في ذاته ليمارسها في كل اتصالاته مع الاخرين. ان العامل الرئيسي في حياته وفي عمله هو القوة التي تأتيه من الشركة مع يسوع المسيح. ان يسوع يقدّم لتلاميذه قانوناً بسيطا كفيلا ان يجعل ابسط واحد فيهم يعرف إن كان اتصاله بالاخرين على نهج الصواب ام الخطأ. كل ما يحتاج اليه هو ان يقول "انا" بدلا من ان يقول "انت". وبذلك يضع نفسه في مكان الشخص الاخر. "**فكلُّ ما تريدُونَ أنْ يفعَل النَّاس بِكم افعَلُوا هكَذا أنتُمْ أيضًا بِهِمْ، لأنَّ هذا هو النَّاموس والأنبِيَاء.**" في اللحظة التي يتمم فيها التلميذ ذلك يلاشي كل امتياز له على الاخرين، ولا يستطيع فيما بعد ان يبرر نفسه فيما يدين الاخرين عليه، بل يكون قاسيا في الحكم على الشر في نفسه، كما كان من قبل مع الاخرين. ويكون ليّنا في الحكم علَى الشر في الاخرين كما كان قبلا مع الشر في نفسه. فان الشر الذى في الاخرين هو هو بعينه الشر فينا نحن. ولا توجد الا دينونة واحدة، وشريعة واحدة، ونعمة واحدة. لذلك يصبح التلميذ من هذا الوقت فصاعدا ينظر الى الناس كخطاة قد غفرت لهم خطاياهم، وهم مدينون بحياتهم لمحبة الله. "هذا هو الناموس والانبياء". وليس سوى الوصية العظمى، ان نحب الله فوق كل شيء، وان نحب قريبنا كنفسنا.

الفصل الرابع عشر

الفصل الأعظم

"ادْخُلوا مِنَ البَاب الضَّيق، لأنَّه وَاسعُ البَاب ورَحبُ الطَّريق الَّذي يُؤدِّي إلى الهَلاك، وكَثيرُون هم الَّذين يَدخُلون منْه. مَا أضْيق البَاب وأكْربَ الطَّريقَ الَّذي يُؤدّي إلى الحياة، وقَليلون هم الَّذين يَجدُونه.

احتَرزُوا منَ الأنبيَاء الكَذبة الَّذين يأتُونكمْ بثياب الحُملان، وَلكنَّهمْ منْ دَاخل ذئَابٌ خَاطفةٌ. منْ ثمارهمْ تَعْرفونهُم. هلْ يَجتنُون منَ الشَّوك عنبًا، أو منَ الحَسَك تينًا؟ هكَذا كلُّ شجرة جَيّدة تَصنعُ أثمارًا جيّدةً، وأمَّا الشَّجرة الرَّديَّة فتصْنعُ أثمَارًا رديّةً، لاَ تقدرُ شَجَرةٌ جيِّدةٌ أن تَصْنعَ أثْمارًا رديَّةً، ولاَ شجَرَةٌ رديَّةٌ أنْ تصْنَع أثْمارًا جيِّدةً. كلُّ شجَرة لاَ تَصنعُ ثَمرًا جَيّدًا تُقطعُ وَتلقَى فِي النَّارِ. فإذًا مِنْ ثِمَارهِمْ تَعرِفُونهمْ.

ليسَ كل مَنْ يقُول لي: ياربُّ، ياربُّ. يَدخُل ملكوتَ السَّماوات، بلِ الَّذي يَفعلُ إرادة أبي الَّذي فِي السَّماوات. كَثيرُون سيَقُولون لي فِي ذلكَ اليَوم: ياربُّ، ياربُّ. أليسَ باسْمكَ تنبَّأنا، وباسْمك أخرَجْنَا شيَاطينَ، وباسْمك صنعْنَا قُوَّات كثيرةً. فَحينئذ أصَرِّحُ لهمْ: إنّي لمْ أعرِفكم قطّ. اذْهبُوا عَنّي يا فَاعلي الإثم." (متى٧: ١٣-٢٣).

لا تستطيع كنيسة المسيح ان تقطع بطريقة اعتباطية كل علاقة بالذين يرفضون دعوتها، فهي مدعوة ان تتبع الرب بوعد ووصية، وهذا يكفيها. اما دينونة الاخرين والاعتزال عنهم، فيجب ان يتركا لذاك الذى

اختار الكنيسة حسب قصده الصالح، لا لاى استحقاق او صلاح فيها. وليست الكنيسة هي التي تقوم بذاتها بالانفصال عن العالم وانما كلمة دعوتها تفصلها عنه.

لقد دعي فريق من الناس، هم اتباع المسيح، فانفصلوا بتلك الدعوة عن بقية العالم. ان التلاميذ قليلو العدد، وسيظلون دائما قليلين. فلا يليق بتلميذ يسوع ابدا ان يضع رجاءه في الاعداد الكبيرة. الذين يخلصون "**قليلون**" اما سائر العالم فكثيرون، وسيكونون دائما "**كثيرين**"، لكنهم في الطريق الذى يؤدي الى الهلاك. والعزاء الوحيد الذى يواجهه التلاميذ في صدد هذه النتيجة هو وعد الحياة والشركة الابدية مع يسوع.

ان طريق التلمذة ضيق، ومن السهل جدا ان يضل الانسان ويبتعد عنه، ولو بعد سنين من التلمذة. وهو طريق من الصعب ان يجده الانسان. والى كل من جانبي الطريق الضيق واد عميق جدا. ان الدعوة لان نحيا حياة افضل، والعيش في مستوى تلك الدعوة مع عدم الشعور بذلك، هو طريق ضيق حقاً. وان نعترف ونشهد للحق كما هو في يسوع، وان نحب في نفس الوقت اعداء ذلك الحق، اعداء يسوع واعداءنا، وان نحبهم محبة يسوع المسيح اللامحدودة، هو طريق ضيق حقا. ان نؤمن بوعد يسوع بان اتباعه سيملكون الأرض، وان نواجه في نفس الوقت اعداءنا عزّلا من السلاح، ومجردين من كل وسائل الدفاع، مفضّلين ان نُظلَم على ان نَظلِم، هو طريق ضيق حقا. ان نرى الضعف والخطأ في الآخرين، ونتجنب في نفس الوقت ان ندينهم، وان نقدم رسالة الإنجيل دون ان نطرح الدُّرر قدام الخنازير، هو طريق ضيق حقا. **ان الطريق صعب ووعر بشكل لا يوصف، ونحن معرّضون ان نضل عنه في كل لحظة. فاذا اعتبرنا هذا الطريق طريقا نتبعه اطاعة لدعوة**

خارجية، واذا كنا نخاف من انفسنا كل الوقت، فهو في الحقيقة طريق مستحيل ويتعذر علينا ارتياده. اذا نظرنا الى يسوع سائرا امامنا خطوة خطوة، فلن نضل. اما اذا قلقنا واضطربنا بسبب الاخطار المحيطة بنا، واذا ثبّتنا نظرنا في الطريق، بدلا من ان نثبته في المسيح السائر امامنا، نكون قد ضللنا "**الطريق**" فعلا. **لانه هو نفسه الطريق، هو الطريق الضيق، والباب الضيق. هو وحده اول الطريق ومنتهاه.** فعندما نعرفه نستطيع ان نسير ونتقدم في الطريق الضيق، من باب الصليب الضيق، الى الحياة الابدية. **وكلما زاد الطريق ضيقا زاد يقيننا انه الطريق نفسه. ان الطريق الذى سار فيه ابن الله، الطريق الذى يجب ان نسير فيه كرعايا عالمين مختلفين** – وهو خط فاصل بين هذا العالم وملكوت السموات - لا يمكن ان يكون طريقا واسعا. هذا الطريق الضيق لا بد ان يكون الطريق القويم.

الاعداد ١٥-٢٠ تبين ان اعتزال الكنيسة عن العالم قد بلغ نهايته وذروته. ولكن ذلك يتم بكلمة يسوع التي تشق طريقها الى الكنيسة نفسها، فتُجري فيها حكما ودينونة وقضاء. وليس الاعتزال مضمونا بكيفية دائمة، بل يجب تجديده باستمرار. فلا ينبغي ان يتصور تلاميذ المسيح انهم يستطيعون ان يريحوا انفسهم بمجرد الهروب والركض بعيدا عن العالم، والوجود معا في قطيع صغير او جماعة قليلة. فان انبياء كذبة سيقومون فيما بينهم، ووسط هذا التشويش القادم سيشعر التلاميذ بعزلة اكثر من اى وقت مضى. وها انا ارى شخصا واقفا الى جانبي يبدو عليه انه عضو في الكنيسة، بل هو نبي وواعظ. انه رجل يشبه المسيحي شبها تاما، فهو يتكلم كمسيحي، ويعمل كمسيحي، ويمثل دور المسيحي، لكن قوات الظلمة تعمل فيه وفي غيره بطريقة سرية عجيبة، وهي التي

ارسلته الينا، وجاءت به في وسطنا. فهو في اعماق نفسه ذئب فتاك، وكلماته اكاذيب، واعماله مليئة بالخداع والتضليل. وقد اتقن فن التنكر، حتى ليخفي حقيقته اخفاء تاما، ويداوم على عمله. فالذى جعله واحدا منا هو الشيطان، لا الايمان بيسوع المسيح. ربما يرجو ان مقدرته العقلية الفائقة، او نجاحه كنبي، سيكسبه سلطة وتأثيرا ونفوذا ومالا وشهرة. ان كل احلامه واطماعه مركزَّة على العالم لا على يسوع المسيح. وهو يستغل فرصة معرفته ببساطة نية المسيحيين وتصديقهم، فيخفي اغراضه المظلمة تحت ستار التقوى المسيحية، راجيا ان يحول تنكره التام دون كشف حقيقته. وهو يعلم انه ممنوع على المسيحيين ان يدينوا، ويستغل ذلك لتذكيرهم اياه كلما رأى الوقت ملائما له. وعلى كل حال، اليست قلوب الناس دائما سفرا مغلقا فلا غرو اذا رأيناه ينجح في خداع كثيرين وتضليلهم وابعادهم عن الطريق القويم. بل قد يكون هو نفسه غير شاعر بما يصدر عنه، فان في مقدور الشيطان ان يقدم له كل تشجيع وفي الوقت ذاته يعميه عن بواعثه الذاتية.

ولا شك ان تصريحا كهذا ينطق به المسيح كفيل ان يوقع التلاميذ في حيرة بالغة. فمنْ يعرف قريبه او جاره؟ منْ يعرف ان كان المظهر الخارجي لشخص مسيحي يخفي تحته زيفا وخداعا؟ لا عجب ان تسرّب الى الكنيسة قدر كبير من عدم الثقة، ومن الشك، ومن الانتقاد. ولا عجب اذا زلّ اخ وسقط في خطية ان تنهال عليه انتقادات قاسية من اخوته، بعد ان قال المسيح ما قاله عن الانبياء الكذبة. وكان انتشار كل هذا القدر من عدم الثقة كفيلا بأن يقضي على الكنيسة ويدمرّها، لولا كلمة يسوع التي تؤكد ان الشجرة الرديئة تصنع اثمارا رديئة فلابد ان تكشف نفسها، عاجلا ام آجلا. فلا ضرورة ان نتفحَّص ونتجسَّس في قلوب الاخرين.

بل كل ما نحتاج اليه هو ان ننتظر حتى تحمل الشجرة ثمرها، ولن ننتظر طويلا. وهذا ليس معناه ان من الواجب علينا ان نفرق بين كلام النبي واعماله، فان التفريق الحقيقي هو التفريق بين المظهر والحقيقة. ان يسوع يخبرنا ان الناس لا يستطيعون ان يحتفظوا بمظهرهم مدة طويلة، بل لابد ان تنكشف حقيقتهم، وسيأتي وقت الثمر حتما، ونستطيع عندئذ ان نميز الجيد من الردىء، ولابد من ان نعرف موقف الانسان الحقيقي عاجلا او آجلا. ولا تستطيع الشجرة ان تمتنع عن الاتيان بثمر، فان الثمر سيأتي تلقائيا. وقد يترتب على الانسان، في اى يوم، ان يقرر هل هو للعالم ام للكنيسة. **وقد يترتب علينا ان نقرر موقفنا لا في امور منظورة بارزة، بل في امور بسيطة تافهة، في اعمال حياتنا اليومية. وعند ذلك سنرى ونميز الجيد من الردىء. في ذلك اليوم لا يفوز المظهر الخارجي في الامتحان بل الحقيقة هي التي تفوز.**

في اوقات كهذه يريد المسيح من تلاميذه ان يميزوا بين المظهر والحقيقة، بين انفسهم والمسيحيين المزيفين. وعندئذ سيترفعون عن محاولة الحكم على الاخرين، ولكنهم سيحتاجون الى تصميم مُخلِص حتى يعرفوا حكم الله عندما يصدر. فقد يُعزَل المسيحي بالاسم عن المسيحي الحقيقي في ايه لحظة. بل قد نجد انفسنا بين المسيحيين بالاسم. ولكن اليس هذا تحديا لنا لنحيا في شركة اوثق مع يسوع، وان نكون في تلمذة اكثر وفاء واشد ولاء؟ ان الشجرة الرديئة ستُقطَع وتُلقى في النار، وكل مظاهرها الخارجية من سحر وجاذبية لن تفيدها اطلاقا.

عدد٢١. ان الانفصال الذى تخلقه دعوة يسوع يذهب الى اعمق من ذلك. فبعد التفريق بين الكنيسة والعالم، والتفريق بين المسيحيين بالاسم والمسيحيين الحقيقيين، يدخل التفريق والفصل الان الى قلب

الهيئة المعترفة بالمسيح نفسها. يقول بولس "**ليس احد يقدر ان يقول يسوع رب الا بالروح القدس**" (**١ كورنثوس١٢: ٣**). فليس من الميسور ان نسلم حياتنا ليسوع، او ندعوه ربا بمحض ارادتنا او بمجرد رغبتنا. وفي هذا يحسب بولس حساب الناس الذين قد يدعون يسوع ربا بدون الروح القدس، اى بدون قبولهم دعوته. وكان هذا اصعب في تلك الايام، حين كان اعتراف الانسان بانه مسيحي لا يضمن له ربحا ماديا، وحين كان اعتراف الانسان بالمسيحية ينطوى على خطر كبير. **قال يسوع "ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات"**. ان القول " يا رب يا رب" هو الاعتراف بايمان الكنيسة، لكن لا يستطيع ان يدخل ملكوت السموات كل منً يعترف هذا الاعتراف. ان الخط الفاصل يجري الان في قلب الكنيسة المعترفة. ان اعترافنا بايماننا لا يمنحنا اي حق او اي امتياز خاص عند يسوع. لا يمكن ان نستند الى مجرد اعترافنا، ولا كوننا اعضاء في كنيسة لها قانون ايمان واعتراف سليم يتيح لنا الحق في نوال رضى الله. وان فكرنا هذا التفكير نقع في خطية شعب العهد القديم الذى ظن ان دعوة الله منحته امتيازا خاصا في نظره. بل ان ذلك يكون خطية ضد دعوة الله المجيدة. **ان الله لن يسألنا في ذلك اليوم ان كنا من الطائفة الانجيلية او غيرها، بل يسألنا هل فعلنا ارادته.** سنُسأل السؤال الذي يوجه لكل شخص آخر. ان الكنيسة لا تمتاز عن العالم بامتياز خاص، لكنها تمتاز باختيار الله المجاني ودعوته المجيدة. والكلمتان "**يقول**" و "**يفعل**" في العدد ٢١ لا تعنيان الفارق العادى بين القول والفعل، بل علاقتين مختلفتين بين الانسان والله. فالانسان الذى يقول "**ياربُّ، ياربُّ**" هو الانسان الذى يبني دعواه على اساس انه قالها. اما الذي "يفعل"، فهو الانسان الذى يمتاز بطاعة متواضعة. الاول هو الشخص الذي يبرز نفسه

بواسطة اعترافه. اما الثاني، الذى يفعل، فهو الشخص المطيع الذى يبني حياته على نعمة الله. هنا يدل قول الانسان على بره الذاتي، اما فعله فهو دليل النعمة، التي تدفع صاحبها للخدمة المتواضعة المطيعة. فالانسان الذى يقول "ياربُّ، ياربُّ" اما انه دعا نفسه الى يسوع بدون الروح القدس، او انه اتخذ من دعوة يسوع امتيازا شخصيا لذاته. ولكن الذى يفعل ارادة الله، هو شخص مدعو من النعمة ومبارك بها، وهو يطيع ويتبع. هو يفهم دعوته لا كحق له، بل كدينونة ونعمة من الله أُسبغا عليه، بحسب مسرة الله، وما عليه الا الطاعة. **ان نعمة يسوع هي التزام على الفاعل، لذلك يصبح فعله التواضع الحقيقي، والايمان الصحيح، والاعتراف الصحيح، بنعمة الله الذى دعاه.**

في **عدد ٢٢** ينفصل القائل والفاعل او المعترف والعامل، احدهما عن الآخر، ويصل هذا الانفصال الى ابعد حدوده. ويتكلم فقط اولئك الذين استطاعوا حتى الان ان يجتازوا الامتحان. وهم يحسبون من الفاعلين، ولكنهم لا يعتمدون على اعترافهم بل على الاعمال التي عملوها. لقد اجروا اعمالا باسم يسوع، وهم يعلمون ان الاعتراف لا يُجديهم ولا يبررهم، لذلك ذهبوا بين الناس، وجعلوا اسم يسوع عظيما بين الناس باعمالهم. وها هم يَظهرون امام يسوع ويخبرونه بما فعلوا.

عند هذه النقطة يُظهر يسوع لتلاميذه انه من الممكن ان يكون للناس ايمان شيطاني يُجري عجائب عظيمة تتميز تميّزاً تاما عن اعمال التلاميذ الحقيقيين، اعمال رحمة، معجزات، وربما قداسة شخصية، لكنها مع ذلك انكار ليسوع ولحياة التلمذة. هذا ما عناه بولس في ١ كورنثوس ١٣ حيث ذكر انه يمكن الانسان ان يعظ، وان يتنبأ، وان يكون له كل علم، وان يكون له كل الايمان حتى ينقل الجبال، ولكن يفعل كل هذا بدون محبة،

اي بدون المسيح، وبدون الروح القدس. وعلاوة على ذلك، يرى بولس ان هناك امكانية ان نعمل اعمال الاحسان المسيحية نفسها، وان ينفق الانسان كل امواله، بل ان يكون شهيدا، بدون محبة، وبدون المسيح، وبدون الروح القدس. اذ نقول، بدون محبة، فاننا نعني ان كل العمل يتم بدون عمل التلمذة، اي بدون العمل الذى يقوم به في المدى البعيد يسوع المسيح نفسه. وهذه اخطر حيلة يعمد اليها الشيطان ليوقع الناس في شِراكِهِ، ولن تظهر بشاعة هذه الحيلة وفظاعتها الا في اليوم الاخير يوم يتم الفرز النهائي. لكن على تلاميذ المسيح ان يسألوا ما هو القانون النهائي الذى بمقضاه يقبلهم المسيح او يرفضهم؟ منْ ينجح في الامتحان ومنْ يسقط؟ ان الجواب هو في كلام يسوع الذي نطق به لاخر المرفوضين "**لم اعرفكم قط**". ها قد وصلنا الى النهاية. وصلنا الى السر الذي كنا ننتظره منذ بدء العظة على الجبل. هذا هو السؤال النهائي القاطع. **هل عرفنا المسيح ام لا؟** لقد جاء اولا الفصل بين الكنيسة والعالم، ثم جاء الفصل داخل الكنيسة.

واخيرا يأتي الفصل النهائي في اليوم الاخير. فلا يترك لنا شيء نتمسك به ونعتمد عليه - لا اعترافنا ولا طاعتنا. ليس الا كلمته وحدها "عرفتُكَ". وهي كلمته الابدية ودعوته الابدية. ان نهاية العظة على الجبل تردد صدى بدايتها. وكلمة الدينونة الابدية مُتَضَمَّنة مُسبَقاً في الدعوة للتلمذة. لكن الامر من البداية الى النهاية هو هو، هو دائما كلمته وحده، وهو دائما دعوته وحده. فاذا تبعنا المسيح، وتعلقنا بكلمته، وتركنا كل شيء آخر فستنفعنا كلمته في يوم الدين، وكلمته هي نعمته.

الخاتمة

"فكلُّ منْ يَسمعُ أقوَالي هذه ويعملُ بها، أشبّهه برجُل عَاقل، بنَى بَيتهُ على الصَّخْر. فنزل المَطرُ، وجَاءت الأنهَارُ، وهبَّت الرّيَاح، ووقعَتْ على ذلكَ البَيتِ فلمْ يَسقُط، لأنَّه كَان مُؤسَّسًا على الصَّخْر. وكلُّ منْ يَسمعُ أقوالي هذه ولا يَعمَلُ بها، يُشبَّه برجُل جَاهل، بنى بيْتهُ على الرَّمل. فنزلَ المَطرُ، وجَاءت الأنهَار، وهبَّتِ الرّيَاح، وصَدمَتْ ذلكَ البيتَ فَسقطَ، وكَان سُقوطه عظيمًا!.

فلمَّا أكمَلَ يَسُوع هذه الأقْوال بُهتت الجُموع منْ تَعْليمه، لأنَّه كَان يُعلِّمهم كَمنْ لهُ سلطَانٌ وليسَ كالكتبَة" (متى٧: ٢٤-٢٩).

لقد اصغينا الى الموعظة على الجبل وربما فهمناها. ولكن، ترى من منا سمعها حقا؟ يعطينا يسوع، في خاتمة الموعظة، جوابا عن هذا السؤال. فهو لا يسمح للسامعين ان ينصرفوا، ويفعلوا ما يشاءون، يأخذون منها ما يشتهون، ويختارون ما يجدونه نافعا لهم، ويختبرونه ليروا ان كان عمليا ام لا. انه لا يترك لهم الحبل على الغارب ليسيئوا استخدام كلمته بأيديهم الطامعة المأجورة، وانما يقدمها لهم بشرط ان تكون لها السيطرة الكاملة عليهم. اننا، من وجهة نظر بشرية، نستطيع ان نفهم وان نفسّر الموعظة على الجبل بألف طريقة مختلفة، لكن يسوع لا يعرف لها سوى امكانية واحدة هي طريقة التسليم والطاعة البسيطة، لا بتفسيرها، ولا بتطبيقها

فحسب، بل بعملها واطاعتها. هذه هي الطريقة الوحيدة لسماع كلمته. نكرّر مرة اخرى ان يسوع لم يقصد بهذه الموعظة ان تكون لنا موضوع درس وبحث كمثل اعلى، بل ان ننصرف في الحال الى تطبيقها والعمل بموجبها.

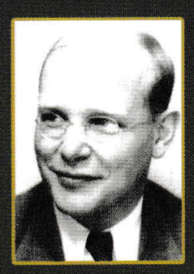
هذه الكلمة التي ندرك مطلبها، هذه الكلمة التي تصدر عن قوله "عَرفتُك"، هذه الكلمة التي تضعنا على الفور في طريق العمل والطاعة، هي الصخرة التي عليها نبني بيتنا. والجواب الوحيد السليم لهذه الكلمة التي اتى بها يسوع منذ الازل، هو ان نعملها. لقد تكلم يسوع، فالكلمة كلمته، وما لنا الا الطاعة. ولا يمكن ان تحفظ كلمة يسوع كرامتها وقوتها وسلطانها بيننا، الا بأن نعملها. والان تهبّ العاصفة على البيت، ولكنها لا تستطيع ان تحطّم الاتحاد معه، ذلك الاتحاد الذى اوحدته كلمته.

هناك امكانية واحدة اخرى، وهي ان لا نعمل بالكلمة. ومن المستحيل ان نكون راغبيين في العمل بالكلمة ولا نعمل بها. فاننا ان تصرفّنا بكلمة يسوع بأيه طريقة اخرى غير العمل، نكون كاذبين. اننا بذلك ننكر الموعظة على الجبل، ونقول لكلمته كلا. اذا بدأنا نسأل اسئلة، ونتأمل في مشاكل، ونقدم شروحات وتفاسير، فلسنا عاملين بالكلمة. بل يتمثل فينا مرة اخرى خيال الشاب الغني وخيال الناموسي المذكور في الاصحاح ١٠ من انجيل لوقا. ومهما بلغ بنا الحماس في تأكيد ايماننا، وبلغ بنا التمسك بكلمة يسوع، فان يسوع يدعو ذلك "عدم عمل". والكلمة التي لا نعمل بها، ليست صخرا نبني عليه بيتا، وليست اساسا نقيم عليه اتحادا مع يسوع. فان كان هكذا حالنا، فهو يصرّح انه لم يعرفنا قط. لهذا السبب عندما تهب العاصفة، نبدأ نفقد الكلمة، ونجد اننا لم نؤمن بها قط ايمانا حقا. والكلمة التي كانت لنا لم تكن كلمة المسيح بل كانت كلمة استخلصناها

نحن منه، وجعلناها ملكا لنا بالتأمل فيها بدلا من العمل بها. لذلك يتحطم بيتنا ويخرب لانه ليس مؤسسا على كلمة يسوع المسيح.

"بُهِتتِ الجُموع..." لماذا؟ ماذا حدث؟ لقد تكلم ابن الله، وبيّن انه صاحب السلطان. وها هم تلاميذه يقفون الى جانبه.




ديترش بنهوفر

عاد بونهوفر إلى المانيا في عام ١٩٣٥، بعد ان اصبح واحدا من قادة الكنيسة الرسمية. لكن الغستابو منعه من ان يكرز في برلين، او يتكلم فيها او يدخلها. ولما بدت الحرب امرا حتميا لا مفر منه، طلب اصدقاء بونهوفر منه ان يرحل عن المانيا لينقذ حياته، لانه كان مصمما تصميما تاما على معارضة الخدمة في الجيش في حرب عدوانيّة. وقال عبارته الشهيرة: "لن يكون لي حق في المساهمة في اعادة بناء الحياة المسيحية في المانيا بعد الحرب، ان لم اشترك مع شعبي في الالام التي يقاسونها في هذا الوقت... ان المسيحيين في المانيا يواجهون تجربة شنيعة، فاما ان يقبلوا هزيمة شعبهم، حتى تبقى الحضارة المسيحية، واما ان يقبلوا انتصار شعبهم، فتندثر بذلك حضارتنا. ولو خيّرت أنا بين الامرين لعرفت ماذا اختار، لكني لا استطيع ان اختار ما اريد، واحيا آمنا".

وقد اختار ما اراد، ولم يبال بأمن حياته ولا براحته، ولم يندم قط على قراره. فقد كتب حتى وهو في السجن بعد ذلك بسنين يقول: "اني واثق من يد الله وارشاده... ويجب ان لا تشكّوا ابدا بأني جد شاكر وجد مسرور، ان اسير في الطريق الذي يقودني الله فيه. ان حياتي الماضية ممتلئة بل فائضة بمراحم الله، وفوق كل خطة تقف محبة المصلوب الغافرة".

كانت القوة المرشدة لحياة بونهوفر، التي يستند اليها كل ما عمله واداه وتألم لاجله، هي قوة ايمانه ومحبته لله الذي وجد فيه سلامه وسعادته. من هذا الايمان جاءته الرؤيا التي بها استطاع ان يعزل الغث عن السمين في الحياة، وان يميز بين ما هو جوهري وما هو تافه في حياة الانسان.